ياسر حارب

العبيدُ الجُدد

رواية





ياسر حارب

روايـــــة

العبيدُ الجُدد

«قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا. الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا»

سورة الكهف

إلى طفلتي عائشة

أنتِ لا تكبرين في عيني بقدر ما يكبر حبكِ في قلبي. لا أملك شيئاً أغلى من الحب أمنحكِ إياه. ستكبرين يا صغيرتي، وتعلمين بأني بذلكَ منحتكِ كل شيء..

الحُب ليس عاراً يا حبيبتي، بل عارٌ ألا نُحبّ

لو أقسمتِ على قلبي، يا قلبي، لَأَبَرّك..

أَخَذَ يجري بسرعة مع مجموعة من الناس هربًا من قصف نيران الجيش، وكلّما أخطأته رصاصة أصابت شخصًا آخر فأردته صريعًا أو جريحًا. بدأت سيارات الجيش بالتدفق على الميدان لتغلقه بإحكام وتمنع المتظاهرين من الهروب. كانت التعليمات واضحة: «استخدام الرّصاص الحيّ». وكلّما دخل في زقاق، انتبه إلى أنّ المجموعة التي تركض معه يقلّ عدد أفرادها شيئًا فشيئاً. حاوَل الخروج من الميدان بأيّ طريقة حتّى لا تدكّه مدافع الجيش.

ظلّ الرّصاص ينهمر على المتظاهرين مثل المطر حتّى امتلأت الأزقة بالدّماء وكأنّها شرايين تكاد أن تنفجر. انتبه إلى فتاة تجري إلى جانبه ولكنّها تتعثر في خطواتها لأنّها تنظر إلى الوراء. اقترب منها وصرخ: «لا تنظري وراءك.. لن يبقى أحد على قيد الحياة، انجي بنفسك» ثمّ انطلق أمامها وانعطف مع زملائه في أحد الأزقة. قررت أن تلحق بهم، إلاّ أنّها كانت متأخرة قليلاً من شدة التعب، وعندما انعطفت لم ترَ أحدًا. استندت بيدها على جدارٍ وهي تُجيل بصرها في المكان بحثاً عن ملجأ. كانت أنفاسها تتسارع وهي تسمع صوت الرصاص والصراخ خلفها، بينما يتضاءل الأمل أمامها في النجاة. أرادت أن تعاود الركض إلا أن يداً ظهرت لها من أحد المحلات شبه المغلقة وأشارت إليها، اقتربت وهي ترتعش. كان باب المحل متشققاً تفوح منه رائحة الزمن، وخلفه التفّ المكان بظلمة ندية كأنّه كهف

مهجور. بَدَت مكتبة صغيرة محشورة في عمارة قديمة على وشك السقوط. صاح بها: «ادخلي بسرعة!» أرادت أن تدخل، ولكنّها توقفت على عتبات الظلام؛ فلا تدري من بالداخل. فكرت قليلاً فأيقنت أن بقاءها في الخارج لا يقلّ خطورة. اقتربت من الباب فتَبَدّت لها ملامح شيخ كبير. قال وقد انْفَرَشت ابتسامة هادئة على وجهه: «تعالي يا ابنتي، لا تخافي» فأمسكت بيده وغاصت في الظلمة.

خلا المكان من نور إلاّ قليلاً، وبدا خيط الشمس الرفيع الذي تسلل إلى الداخل من شق الباب وكأنّه شمعة تكاد أن تنطفئ. كان المكان يفوح برائحة الكتب والعرق والخوف، وكان الصّمت شديدًا، حتّى أنّها كادت تسمع دقات قلوب الشّباب الذين تجمعوا في الداخل. أغلق العجوز الباب بهدوء حتّى لا ينتبه إليه الجنود في الخارج، فتكالبت العتمة على المكان إلى أن غشيته. تصلّب الجميع في أماكنهم حتى شَعَرت بأن أحداً قد أوقف الزمن للحظات. أحسّت بحركة العجوز الذي كان يبحث عن شيء مّا، ثمّ شقّ صوت عود الثقاب وهو يشتعل حاجزي الصّمت والرعب. أشعل العجوز شمعة فأخذ الضّوء يتمدد في المكان ويُبدد العتمة. بدأت أعين الحضور في اللمعان فتخيّلتهم مجموعة ضِباع تجمّعت حول فريسة. وضع العجوز الشمعة على الرف، نظر إلى الفتاة، وقال: «لا تخافي يا ابنتي، هؤلاء الشّباب مثل إخوتك. كلنا أسرة واحدة. لا تخافي، أنتِ في مَأمن الآن». قالها بصوت عميق آتٍ من قاع الزمن؛ أشعرها بالطمأنينة. نهض الفتى، الذي كان يجري إلى جانبها في الخارج، من مكانه وبدأ يُنزل مجموعة من الكتب من فوق الرفوف ويصفّها على الأرض مُكوّنًا جدارًا صغيرًا في آخر المكتبة. ظلّ الباقون

ينظرون إليه في صمت؛ ففي لحظات الخوف لا يعود للأسئلة أيّ معنى. بعد أن انتهى من عمله، نظر إلى الفتاة وقال: «ستنامين في هذا المكان، وسننام نحن قُرب الباب. إذا كُشِف أمرنا ودخل الجنود، فإنّنا لن ندعهم يصلون إليك».

كان يحدثها دون أن ينظر إلى عينيها. شعرت بأنّه حزين لوجود فتاة بينهم، فلو حصل لها مكروه فإنّهم سيشعرون أنّ الذنب ذنبهم. نظرت إليه وقالت، وقد اعترتها صلابة مفاجئة: «لا تخف، سأقاتل معكم».

جلسوا جميعًا على الأرض، وجلست هي لوحدها في غرفتها الصّغيرة، وكلّما اقترب صوت الرّصاص من باب المكتبة، امتلأ وجهها بالعرق. كان ضوء الشمعة خافتاً، ولكن كافياً ليُبيّن انعكاس حبات العرق وهي تتزاحم على وجهها. حمل الشمعة واقفاً وسأل صاحب المكتبة إن كان لديه مصحفٌ. مدّ العجوز يده خلفه، دون أن يتكبد عناء البحث، وسحب المصحف من على أحد الرفوف، وناوله الفتى.

جلس، وقرّب الشمعة من المصحف وفتحه، ثمّ بدأ يقرأ آياتٍ من سورة الأعراف:

«قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129) وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ

وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (130) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (131) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (132) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (133) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (134) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (135) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (136) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ».

عندما انتهى، كان صوت الرّصاص قد ابتعد عن المكتبة، وأرخى الجالسون رؤوسهم إلى الوراء مستندين على الكتب، وكان العجوز يحرّك حبّات الخرز في مسبحته الطويلة ويتمتم بفمه. أمّا هي، فأسندت وجهها إلى ركبتيها، وظلت تنظر إلى يده وهو يمسح بأصابعه على صفحات المصحف وكأنّه يعيد قراءتها مرّة أخرى، ولكن في صمت..

كادت تسمع روحه وهي تعيد قراءة الآيات. كان صوته جميلاً جدًّا، ذكّرها بصوت إمام المسجد القريب من بيتها. شعرت حينها

بسحابة من الطمأنينة تلف المكان، وقد تكثّف فيها هدوءٌ أمطر سكينة على قلبها.. أغمضت عينيها، وأدركت أن هناك من يرعاها الآن.

***

فتح عينيه بصعوبة وكأنّهما غطاء صندوق قديم. أجال بصره في المكان فلم يرَ إلاّ نور شمعة تكافح لتصبغ العتمة باللون الأصفر. حاول أن يحرك يديه ليمسح عينيه، فلم يستطع. أغمضهما بشدة ثمّ أعاد فتحهما مرّة أخرى، فبدت ملامح الأشياء بالظهور. رأى طاولة مهترئة تراكمت عليها بعض الأوراق والكتب القديمة. نظر إلى الأعلى، فعرف أنّه مسجًّى على ظهره في خيمة؛ حيث كان السقف يتحرك مع حركة الرياح الخفيفة التي تداعب أغصان الأشجار في الخارج، فتحدث حفيفاً خفيفاً.

كانت رائحة البارود تملأ أنفه، وعندما حاول تحريك يده مرّة أخرى، اكتشف أنّها ملفوفة بشريطة يابسة، فعرف أنّ الدّم قد تجمّد على الضمادة وغلّفها. أعاد النّظر إلى الشمعة، فتراءت له هيأة شخص جالس خلفها. بدا له وكأنّه يكتب على الأوراق.

حاول أن يتحدث فلم يستطع. أخرج أنفاسه بقوة حتّى يجذب انتباهه. رفع الشّخص رأسه ونظر إليه. قام من مكانه ببطئ، وعندما اقترب، عرف أنّها فتاة. جلست إلى جانب السّرير واضعة خدّها على يدها، ومتكئة بيدها على السّرير. شعر بدفء يدها وهي تقترب من يديه. دَنَت من أذنه وقالت له: «لا تخف، أنت بخير الآن» فعاد إلى النوم مرة أخرى.

استيقظ فرأى نور الشمس يملأ المكان. قرّب أظافره من فخذه وأخذ يحكه فارتسمت ابتسامة على وجهه. أدرك حينها أنّ حاله أفضل من الأمس، عندما حكه ولم يشعر به. استوى جالساً على السّرير ببطء، فشعر بدوار خفيف. أغمض عينيه وأخذ يفرك جبهته بأصابعه حتّى عاد إليه توازنه. لمح إلى جانبه عصاً مُسندة إلى ظهر السّرير. ابتسم وقال في نفسه إن من كان يسهر على راحته لا بدّ أن يكون ذكياً.

ظلّ محدقاً في العصا فتذكر الفتاة التي رآها عندما فتح عينيه اللّيلة الماضية. لم يذكر ملامحها، ولكنّه تذكر دفء أنفاسها، فتشجع على الإمساك بالعصا والنهوض علّه يجدها خارج الخيمة.

مشى وهو يشعر بألم في رجله اليمنى، إلاّ أنّ فكرة رؤية الفتاة مرّة أخرى دفعته إلى المضيّ قُدماً. خرج من الخيمة فباغته ضوء الشمس بصفعة على وجهه. ظلّ مغمضاً عينيه لثوانٍ ثمّ بدأ يفتحهما ببطء. رأى عشرات الخيام، ومئات الناس يسعون بينها، غالبيتهم من النّساء، ورأى أناساً يطبخون، وهناك من يمارس رياضة الجري، فأدرك أنّه في معسكر.

لم يخط بعض خطوات حتّى فاجأته ضربة صديقةٌ في كتفه، وصوت يقول له: «يبدو أنك تحاول تقليدي يا وائل» وأتبعها بضحكة عالية. إنه الأمير بزاز أو كما يسميه الناس «الأعرج» لأن إحدى رجليه أقصر من الثانية، وكان يتكئ في مشيته على عصا فاخرة من خشب العود الهنديّ. يعدّ هذا النوع أحد أفخر أنواع الأخشاب في العالم وأغلاها. يستورده سكان الجزيرة العربية بكثرة من الهند ومناطق

أخرى في آسيا، حيث يقومون بتقطيعه إلى قطع صغيرة بحجم أصابع اليد أو أصغر ثم يحرقونها ليُعطّروا ملابسهم ومنازلهم بالدخان الزكي المنبعث منها. إلاّ أنّ بزاز يستخدم هذا الخشب في صناعة عصيّه، حيث يملك خمسًا، لكلّ منها قبضة على شكل رأس أحد الحيوانات «الخمسة الكبار» التي تعيش في القارة الإفريقية. فالأولى، على شكل رأس فيل إفريقيّ، والثانية، رأس أسد، والثالثة، رأس نمر مرقّط (الذي يخطئ الناس بتسميته فهدًا) والرابعة، رأس وحيد القرن، والخامسة، رأس جاموس إفريقيّ. والسّبب في تسمية هذه المجموعة بـ«الخمسة الكبار» ليس حجمها، ففرس النهر أكبر من النمر المرقط إلا أنه ليس ضمنها، ولكن لأنّها أصعب الحيوانات الإفريقيّة صيدًا إذا ما كان الصياد راجلاً على قدميه، حيث تصير شرسة جدًّا في المواجهة، ويصعب التكهّن بهجومها.

كان الأعرج يتكّئ هذه المرّة على رأس أسد، إلاّ أنّ لون الشّعر المحيط برأسه، والذي يسميه بعض الناس «عُرْفاً» كان فاتحاً، ما يدل على أنّ الأسد الذي اصطاده وصنع رأس العصا على شكله، كان شابّاً قويّاً.

تسمّرت عينا وائل على بزاز، وهربت الكلمات من فمه، فلم يخطر على باله أن يلتقي به يوماً؛ وعلى أية حال، فإن المكان كله غريب. ضحك بزاز من صدمة وائل، وقال: «لا تخف أيّها الكاتب الأنيق، أنت في أمان الآن. ولكن دعني أسألك، ما الذي جرّك إلى الخروج في المظاهرات؟».

عادت إلى وائل حاسّته، فقال محاولاً التغلّب على الإرباك الذي حلّ به: «أنا أحد أفراد الشعب يا سموّ..» تلعثم قليلاً، فلم يدرِ بأيّ لقب ينادي بزاز الذي طُرِدَ من السّلطة قبل عدّة سنوات. كان بزاز في يوم من الأيام وليّاً للعهد أيام والده الراحل، إلا أن أمّه لم تكن من قبيلة معروفة، بل كانت تنحدر من أسرة فقيرة، ذات بشرة سوداء، تعمل جميعها في خدمة الأسرة المالكة. عشقها والده وتزوجها، فثار عليه أفراد أسرته، لكنه وقف في وجههم رافضاً الانصياع لمطالبهم بتطليقها. ولأنه كان الابن الأكبر لوالده، وولي عهده، فإن أباه (جد بزاز) خاف إن وقف ضد ابنه أن يسعى أفراد الأسرة لاحقاً لخلعه من ولاية العهد، ولا يدري عندها ماذا يمكن أن يحل بالمملكة إذا تصارع أفراد الأسرة المالكة على الحُكم؛ فآثر القبول بتلك الزيجة على مضض. وعندما صار والد بزاز ملكاً، وكبر ابنه، عيّنه ولياً للعهد؛ فاشتاط أخو الملك (عم بزاز) غضباً، قائلاً بأنه أحق من ولاية العهد من ابن الخادمة. هذا ما كان يُكرره دائماً وأمام أفراد الأسرة عندما كانوا يجتمعون، وكان يتعمّد أن يُسمع بزاز ذلك الكلام ويضحك منه، ولا ينسى أن يكرر على مسامعه: «لم يكفكِ أنك ابن خادمة، بل أعرجاً أيضاً.» وفي الليلة التي تُوفِّ فيها الملك، أرسل أخوه مجموعة من حرسه إلى مبنى الإذاعة، بعد أن هدد رئيسها بالقتل إن لم يمتثل لأوامره وأجبره على قراءة بيان تنصيبه ملكاً على المملكة، مُدّعياً أن أخاه الراحل قد قام بتغييرات سريعة قبل وفاته بأيام. ثم ألقى القبض على بزاز ورماه في السجن. بعد مشاورات مع الأسرة المالكة، ومطالبات من بعض شيوخ القبائل استمرت أكثر من عام، وافق على نفي ابن أخيه إلى إحدى الدول المجاورة، ولكنه منعه من دخول البلاد.

ظل بزاز صامتاً في منفاه لعدة سنوات، وعندما بدأت أحوال المملكة الاقتصادية تسوء وانتشر فيها الفساد، وأخذ الناس يُطالبون بحرياتهم التي كبتها الملك، وحقوقهم التي سلبها منهم، قام بزاز بالاستعداد للعودة إلى البلاد، بعد أن اتفق مع بعض شيوخ القبائل الكبيرة التي كانت موالية له على أن يثوروا ضد الملك. عندما علم عمّه أنه قد عاد وأسس ميليشيات عسكرية، جُنّ جنونه، وقام بحملات اعتقالات وإعدامات واسعة لكل من يشك بأنه منضوٍ معه، ما أثار الناس عليه، حتى أولئك الذين لم يكونوا ضمن الميليشيات، وجدوا في بزاز وتمرّده نجاة من الملك الحالي الذي لُقّب لبطشه وجرائمه بـ«الطاغية».

بعد عودة بزاز بأيام، انفصل أحد قادة الجيش الشباب وانضم إليه، ويدعى خالد، وساعده على تنظيم الميلشيات وتدريبها، وأمّن لهم السلاح من خلال علاقاته مع مهرّبي الأسلحة. لم يُعيّنه بزاز قائداً لجيشه الصغير، ولكن حنكة خالد العسكرية كانت أكثر ما يحتاجه بزاز في تلك المرحلة، فترك له المجال ليفعل ما يُريد؛ فصار القائد بالممارسة. وما ساعد خالد في الحصول على ثقة بزاز، أنه من أسرة فقيرة وقريبة من أسرة أم بزاز.

انزعج أبناء القبائل في بادئ الأمر من تولي خالد لقيادة الجيش، ولكنه لم يكن يأمرهم بقدر ما كان يستشيرهم، وكان حريصاً على زيارة شيوخ القبائل والتواصل معهم حتى ألِفوه. ثم إنهم يرون قربه من بزاز، الذي يحمل بشرة داكنة أيضاً، فأدركوا أنه ربما يكون

سبيلهم الوحيد للتخلّص من الطاغية.

توقع وائل في تلك الثواني التي تلعثم فيها، أن يقاطعه بزاز ويطلب منه أن يناديه باسمه دون ألقاب، إلاّ أنّ بزاز ظلّ محدقًا في عينيه، وكأنّه يريده أن يلفظها. استدرك وقال: «أنا أحد أفراد الشعب يا سموّ الأمير، وما قيمة ما أكتب إن أتتني الفرصة لتطبيقه ولم أفعل!»

-أحسنت.. أحسنت يا وائل. أنت رجلٌ مخلص، ولكن القلم في يدك يساوي عندنا بندقية في يد جنديّ.

لم يفهم وائل ماذا قصد بزاز باستخدامه صيغة الجمع عندما تحدث عن نفسه، ودارت في رأسه عشرات الأسئلة حينها، ولكنّه حدّث نفسه بأن المقام الآن ليس مقام أسئلة، فقال، وقد استعاد توازنه النفسيّ:

-فما بالك يا سموّ الأمير، إن حمل الكاتب قلماً في يدٍ، وبندقية في يدٍ أخرى، ألا يصل بذلك إلى قمة المجد؟

-وما تعريف المجد يا وائل؟ أهو الموت من أجل قضيّة، أم الحياة من أجلها؟

-المجد أن يتمكن أحدنا من إحياء قضيته، حتّى وإن كان مَيتاً. ووحدهم الكُتّاب من يستطيعون فعل ذلك. انظر إلى فولتير وروسّو ومونتسيكو، ألم يبثوا الرّوح في الثّورة الفرنسيّة حتّى بعد مضيّ أعوام على رحيلهم؟

ابتسم بزاز واقترب من وائل وهو ينظر إلى عينيه، بينما كانت عينا وائل تدوران في المكان، وقال: «أهلاً بك بيننا، لنكمل حديثنا في الداخل». ثمّ مضى إلى خيمته وهو يجرّ وائل بيده، في إشارة إلى الجمع الذي التفّ حولهما حتّى يتركوهما لوحدهما. قبل أن يدخل وائل الخيمة، لمح الفتاة التي كانت معه في المكتبة. نظرت إليه وكأنّها لا تعرفه، ثمّ مضت في طريقها وتجاوزته. ظلّ محدقاً فيها حتّى دخلت إحدى الخيم.

***

سأل بزاز وائل عن رأيه في الثّورة التي انضم إليه فيها أفراد الشعب للتخلّص من «الطّاغية». هكذا وصفه، إلاّ أن وائل تردد في استخدام هذا الوصف حتّى لا يجرح شعوره، وقال له إنّه يقف مع الشعب، ويتمنّى لو زال الحاكم الحاليّ بأسرع وقت حتّى يستطيع الناس بناء عربستان مرّة أخرى. فلقد عانت المملكة كثيراً في السنوات التي حكم فيها «الطاغي..» توقف قليلاً ثمّ قرر أن يتحدث دون مجاملة. أكمل الكلمة وأردف:

- نحن يا بزاز لا نريد الإطاحة بالطّاغية لأنّنا فقط نكرهه، ولكن لأنّنا نريد أن نضمن مستقبلاً أفضل لنا ولأبنائنا. لقد تجاوزنا مرحلة الكره، وصارت المسألة قضيّة نهوض أمّة من تحت الأنقاض. فبقاء الطّاغية يعني موت أحلامنا وطموحاتنا ومستقبلنا؛ ولذلك عليه أن يرحل. إلاّ أنّني أؤمن بالطرق السلمية لتحقيق ذلك، فمستقبل الأوطان لا يُرسم بالدّماء.

- ولكن الدّماء تُقدَّمُ أحياناً للاحتفاء بالأشياء الجميلة، مثل العيد، ألم تُجرّب ذبح أضحية في العيد؟

قالها وهو يُحاول أن يبتسم. فهم وائل أنّ كلامه لم يعجبه، أو ربّما أنّه لم يرتح عندما ناداه باسمه دون ألقاب. أصر أن يستمرّ على

نفس المنوال، وقال في نفسه بأن على الأعرج أن يفهم أنّه متساوٍ معه الآن، فكلاهما يناضلان في المعسكر نفسه، ومن أجل القضيّة نفسها.

- لا أعرف كيف يمكن لإسالة الدّماء أن تصنع الفرحة، ولكنّني أذكر أنّني عندما كنتُ صغيرًا، شاهدتُ جدّي وهو يذبح شاة في العيد، وقد أصرّ أن أقف إلى جانبه لرؤيته وهو يجزّ رقبتها ويسيل دمها. أتعرف ماذا حصل؟ لم آكل لحم شاة من يومها، وصار عيد الأضحى هو عيد الحزن بالنّسبة لي، لأنّه يعيد إليّ ذكرى صدمة عظيمة في طفولتي.

أدرك بزاز أنّ عليه استخدام استراتيجيّة أخرى لكسب وائل.

- وكيف نتخلّص من الطّاغية إذاً؟ لقد جمعتُ هنا آلاف الشّباب المستعدّين للموت من أجل التّخلّص منه.

- كلاّ، أرجوك، يكفي من فقدنا حتّى الآن. لا يمكن للثورة أن تستمرّ بهذه الطريقة. علينا أن نجد طريقة أخرى.

- أفكّر في اغتياله.

- إنّه عمّك!

- أريدك أن تساعدني.

- كلاّ! لن ألوّث يدي بالدّم!

- لم أقصد ذلك. سأتولى أنا أمر التّخلّص منه، ولكنّني أريدك أن تدعم الثّورة بقلمك وبإخلاصك. تعرف أنّ هناك عدداً من الناس، أولئك المستفيدين من بقاء الطاغية، لن يقبلوا بي ملكاً عليهم. لكنهم لا يهمونني في شيء، المهم هو ألا يُؤثروا على الرأي العام أو على الشباب فنخسر كل ما ناضلنا من أجله.

- هل تريدني أن أسخّر قلمي من أجل أهدافك السياسيّة؟!

- سخره لخدمة الوطن.

- تقصد لخدمة مصلحتك.

- مصلحتي لا تتعارض مع مصلحة الوطن. لا تنسَ أنّني أُقاتل عمّي من أجل مصلحة الوطن، ولا بدّ أن يكون للمملكة ملكاً في كلّ الأحوال! لقد عانيتُ كثيراً، مثلما عانى أبناء بلدي، وأنت أحدهم. أريدُ أن أحرّر الناس من عبوديّة الفقر، وأقتلع الفساد من مَنْبَتِه. أريد أن أجعل من عربستان مملكة حضاريّة، يجد فيها كلّ إنسان وظيفة ومنزلاً. أريد للمبدعين أن يحققوا أحلامهم، وأن يعيش الناس حياة كريمة. أليست هذه أحلام الناس؟

- وماذا عن الحرّيات؟

- تعلمُ أنّني أقاتل من أجلها. لن تكون هناك رقابة على الصّحافة والإعلام، سيكون لكلّ إنسان الحرّية في قول ما يشاء، طالما أنّه لا يتعدى على حرّيات الآخرين ومعتقداتهم. سنكون مثل أوروبا

وأمريكاً.. كلا سنكون أفضل منهم.

- وكيف ذلك؟

- في أوروبا وأمريكا مسموح في المكتبات والبقالات بيع المجلات الفاضحة، ويمكن لأيٍ كان أن يؤسس موقعاً إباحيّاً على الإنترنت. أما عربستان، فلن تكون كذلك، ستكون الحرّيّات فيها مشروطة بشروط العُرْف والدين.

- إذاً ستقيّد الحرّيّات؟

-الحرّيّة المطلقة لا تصلح إلاّ للّه وحده، فهو فقط من يعرف كيف يسيّطر عليها.

- ومن يحدد الحرّيّات وما يحدّها؟

- سأترك ذلك لأهل الاختصاص؟

أطرق وائل مفكّراً فقاطعه بزاز:

- هل تريد أن تعرف ماذا سأفعل إن صرتُ ملكاً؟

- كلاّ، كلّ ما يهمّني هو: ماذا ستفعل بالحرّيّات؟ فكل شيء آخر هامشيٌّ بالنّسبة إليّ. فإذا تحققت الحرّيّة تبعها كلّ شيء آخر.

- ستكون معي إذاً؟

- إذا وعدتني بشيء واحد.

- وما هو؟

- ألاّ توليني منصباً إذا أصبحتَ ملكاً.

ضحك بزاز وقال:

- ولماذا؟

- حتّى لا أخسر احترامي لنفسي. فإذا سخرتُ لك قلمي..

سكت قليلاً عندما رأى ابتسامة علت وجه بزاز، ثمّ أكمل.. «فإنّه سيكون من أجل الوطن، ولا ثمن يعادل ذلك.»

- تبدو مثاليًّا الآن أيّها الفتى.

تغيّرت ملامح وائل، وغادر الحماس وجهه حتّى صار صلباً كالصخر. وعندما رأى أنّ بزاز لم يتوقف عن الضحك، قام من مكانه عازماً على الخروج من الخيمة. أمسكه بزاز من يده وضغط على رسغه بقوة. توقف في مكانه دون أن يدري إن كان ما يفعله صواباً أم خطأً، إلاّ أنّ بزاز قال بنبرة صارمة:

- أعدك بألاّ أولّيك منصباً، ولكن قد يجب أن تكون إلى جانبي في بداية الأمر.

- على ألاّ أكون مسؤولاً حكومياً؟

- لكَ ذلك.

وقف بزاز وصافح وائل، ووعده بأن يتخلّص من الطّاغية قريباً. خرج وائل من الخيمة دون أن ينتبه إلى أنّ خالداً كان واقفاً بجانب الباب، ويبدو أنّه سمع الحوار كاملاً. لم يتذكر أن يبحث عن خيمة الفتاة، وكلّ ما كان يدور في رأسه في تلك اللحظات هو سؤاله لنفسه إن كان تحالفه مع بزاز صواباً أم خطأً. ظلّ يمشي مطرقاً وهو شابكٌ يديه خلف ظهره، ويحك أصابع إحداهما في كفّ الأخرى إلى أن اقتربت الشمس من المغيب. انتبه حينها إلى أنّه صار خارج المعسكر. توقف وظل ينظر إلى الخيام.. تخيلها صارت منازل وعمارات. نظر إلى الرمال فشعر أن العشب قد بدأ ينبت تحت قدميه. هبّت ريحٌ خفيفة منذرة بتغيير في خطة النضال لم يكن في حسبانه.

«أصبحتَ من رجال السّلطة بهذه السّرعة؟»

باغته صوتٌ ناعمٌ من خلفه، مغلّف بنبرة تهكميّة. التفت، وإذا بها الفتاة التي كانت معه في المكتبة قبل أيّام. وعندما دقّق النّظر، اكتشف أنّها من كان يجلس إلى جانبه عندما استفاق في خيمته بالأمس. ابتسم، وكأنّه وجد شخصاً عزيزاً وقال:

- أنتِ؟ ماذا تفعلين في هذا المكان؟

أشاحت بوجهها عنه. أطرقت قليلاً ثمّ قالت:

- الأولى أن تسأل كيف وصلتَ إلى هذا المكان؟

- آه حقّاً، نسيتُ هذا الأمر تماماً! حقاً، كيف وصلتُ إلى هنا؟ وماذا جرى في المكتبة؟

- بعد أن أنهيت تلاوة القرآن، أخذتنا كلنا غفوة. ولكن يبدو أنّ أحد أفراد الجيش قد اكتشف أنّ هناك من كان مختبئاً في المكتبة. استيقظتُ على وقع خطواته أمام الباب. أيقظتُكم على الفور، وبعد دقائق عاد ومعه مجموعة من زملائه. اقتحموا الباب فدَفَعْتَني إلى الوراء وأهَلْتَ الكتب عليّ، ثمّ هجمتَ مع زملائك وبائع المكتبة عليهم. ومن حسن حظكم أنّهم كانوا ثلاثة فقط. بعد أن سقطوا على الأرض مضرّجين بدمائهم، سحبتني من يدي وهممنا بالهرب، إلاّ أنّ أحد الجنود عاد إلى وائل وعيه، وضع رجله أمامك فسقطتَ وارتطم رأسك بحافة أحد الرّفوف، فهوى زميلك بمؤخرة بندقية الجنديّ على رأسه فأسكته.

حاولنا إيقاظك إلاّ أنّك كنتَ ساكناً حتّى ظننا أنك ميّت. حملناك وجرينا بك في أزقة الميدان، كان صاحب المكتبة يعرفها جيداً، فاستطاع أن يوصلنا إلى حيث توجد سيارة الإسعاف. وضعناك في السّيّارة، ودفعني أحد زملائك في مؤخرة السّيّارة إلى جانبك.

- ولماذا ركبتِ معي؟

- لا تتعجّل الأحداث. لم أرغب في ذلك، ولكن زميلك أصرّ علي

أن أرافقك، خصوصاً أنّه قرر هو وزملاؤك الآخرون البقاء في الميدان. كما أنّ صاحب المكتبة قال إنّه من واجبي الآن الاعتناء بك؛ فلقد حميتني من الجنود.

- إذاً، فعلتِ ذلك لأنّك تشعرين بالذنب، وليس لأنّك ترغبين في مساعدة مناضلٍ أصيب من أجل بلده.

- ولكنّني لا أراك تناضل، بل تعقد الصفقات مع السّلطة.

- وما أدراكِ أنّني أعقد الصفقات؟ أنا كاتب في صحيفة الـ...

- أعرف من تكون، ولذلك لم أرِدْ أن أصدّق أنّك تخون بلدك وقلمك من أجل السّلطة؟ ولكن الأمر واضحٌ الآن.

- على مهلك! يبدو أنّ أحداث اليومين الماضيين قد أثّرت فيك كثيراً. لم أعقدْ أيّ صفقات مع الأعرج. ولكن قبل أن أقول لك ما دار بيننا، أخبريني لماذا تكرهينه، على ما يبدو، رّغم أنّه يناضل مثلنا، من أجل إزالة الطّاغية؟

- دمُ الطُغاة واحد. ما الفرق بينه وبين عمّه؟ وليكن في علمك، أنا لا أناضل من أجله، ولكن من أجل بلدي. أريد مستقبلاً أفضل لأطفالي.

- هل أنتِ متزوجة؟

كبحَت ابتسامة كادت أن تعتليَ وجهها. نظرت إلى الأسفل لثوانٍ حتّى تستعيد رباطة جأشها، ثمّ نظرت إليه وقالت:

- وما شأنكَ إن كنتُ متزوّجة أم لا؟

- لا شأن لي ولكنك ذكرتِ أطفالك!

- كنت أتحدث عن المستقبل الذي نتمناه جميعًا، لنا ولأطفالنا. ألا تتمنّى ذلك لأطفالك أيضاً؟

سكتَ قليلاً وفهم اللعبة. إنّها تريد أن تعرف أيضًا إن كان متزوجًا أم لا، تماماً كما فعل هو. إلاّ أنّ سؤالها كان أكثر ذكاءً من سؤاله. هذا ما فكّر فيه، فأراد أن يكمل اللعب، وألا يستسلم بسرعة:

- أوافقك الرأي، فلهذا خرجنا كلنا إلى الميدان، لنصنع مستقبلاً أفضل لنا ولأطفالنا. وحتّى أولئك الذين لم يتزوجوا بعد، فإنّهم يشاطرون الآخرين الحلم نفسه، ومستعدّون لتقديم التّضحيات نفسها.

أدركَت أنّها أمام شخص يشاطرها الذكاء، إلاّ أنّها أدركت أيضاً أنّ تفكيرها قد تشتت عن الموضوع الرئيس، فقرّرت العودة إليه:

- وعلامَ اتفقت أنت والأعرج؟

- لا أعرف.

- لا تعرف أم لا تريد أن تعترف؟

- حقّاً لا أعرف. فبزاز إنسان غامض على ما يبدو، وأنا يا.. عفواً لم تُعرّفيني باسمك؟

- شوق.

- ماذا تعملين يا شوق؟

أعادت النّظر إلى الأرض وكأنّها تأخذ استراحة من الغضب الذي يعتريها كلّما ذُكِرَ اسم بزاز أمامها. قالت بعد أن هدأت:

- أعمل صحافيّة في صحيفة «الوقت».

- آها، «الوقت». ألهذا السّبب تعرفينني؟

- كلاّ، فحتّى لو لم أكن موظفة هناك فسأعرفُ أنّك تكتب مقالاً أسبوعيّاً فيها. قد يروقك ما سأقول، ولكن عليك أن تعلم أنّك كاتبٌ مؤثّر، في جيل الشّباب على الأقل، حتّى أنّني أشعر أحياناً بأن الكُتّاب الكبار يغارون من شهرتك.

انطلق وائل في موجة ضحك، إلاّ أنّها لم تضحك معه، فقال:

- يا إلهي، تبدين جادّة في ما تقولين. هل أنا حقّاً شهير إلى هذه الدرجة؟

- يبدو أنك تريد إضاعة وقتي.

- وكيف تقولين هذا الكلام لكاتب شهير مثلي، ألا يجب أن تشعري بالغبطة لأنّك مع كاتبك المفضل؟

لم تتمالك شوق نفسها هذه المرّة، وأطلقت الابتسامة التي كانت مكبوتة في داخلها:

- ومن قال إنك كاتبي المفضل؟

- وصفكِ لي قال ذلك.

قالها وسمّر عينيه عليها. ظلّت تنظر في عينيه، حتّى بدا أنّها غابت عن المكان للحظات. استعادت توازنها وقالت له:

- ماذا دار بينك وبين الأعرج؟

- يريدني أن أقف معه وأسانده كي يتخلّص من الطّاغية.

- قُلْ لي إنّك لم توافق على الاشتراك في قتل عمّه؟

- هذا ما ظننتُ أنّه يطلبه في البداية، ولكنّه أوضح لي أنّه يريدني أن أسخّر قلمي لدعم موقفه بعد استيلائه على الحكم.

- ولكنك رفضت أليس كذلك؟

لم يستطع أن يردّ عليها، وفكّر في الكذب، ولكنّ عينيْها المتقدتين

اللتين تبدوان وكأنّهما حجرين كريمين غُرِسا في وجه تمثالٍ رُخاميّ أبيض، أصابته الشمس، فخامرته سُمرة خفيفة، أجبرتاه على قول الحقيقة:

- كلاّ لم أرفض، فلقد تعهد لي بحفظ الحرّيّات وحقوق الناس.

- وهل صدّقته؟

- أحاول أن أفعل ذلك، فهو الحل الوحيد لهذه الأزمة؟

- ماذا تعني بالحلّ الوحيد؟ يمكننا جميعاً إن اتحدنا أن نُطيح بالطّاغية، ثمّ نشكّل حكومة منتخبة من الشعب!

- والملك؟

- وهل نُريد ملكاً! انتهى عصر الملكية.

- لا أتفق معك، فهناك دولٌ متقدمة لا تزال ملكية حتى الآن.

- ملكية دستورية أيها الكاتب، وليست مُطلقة. ورغم ذلك فأنا لا أحتاج لملك.

- ربما الشعب يحتاجه.

- الشعب يريد حُرية، لا ملكية.

- وهل تظنين أنّ بزاز سيقبل بذلك؟ أعني أن تُلغى الملكية.

أخشى أن يجرّ البلاد إلى حرب أهلية!

- وهل تريدنا أن نضحّيَ بأرواحنا وبكلّ ما نملك لنتخلّص من طاغية ونأتي بآخر!

- ومن قال إنّ بزاز طاغية؟ ربّما يكون أفضل من عمّه؟

- وربما يكون أسوأ منه؟

- إذاً نحن نقامر؟

- وإذا خسرنا فسنخسرُ الوطن!

- وإذا ربحنا فسنكسب الحرّيّة.

- حُريّة مشروطة.

- وهل هناك حُرية مُطلقة؟

صمت الاثنان، وكأن كلّ واحد منهما يحاول أن يقنع نفسه برأي الآخر. قطع سؤال شوق صمتهما:

- هل لدينا خيارٌ ثالث؟

- لا أظنّ ذلك، فإمّا أن نكون مع بزاز، أو ضدّه. لا نستطيع ألا نكون معه ولا ضدّه. ولكن يا شوق..

بثّ نُطقَه لاسمها هذه المرّة الصّمت والسكينة في المكان، وفي داخلها أيضًا. بدا صوته وكأنّه قادمٌ مِن طرف الكون، لا يشبهه أيّ صوت آخر. أحسّت بدفء يسري في جسدها، وكأن ملائكة مّا أحاطت بها وضمّتها بين أجنحتها.. ظلت منصتة وهو يتحدث دون أن تسمع ما يقول، ما عدا صوته وهو ينطق اسمها ظلّ يتردد كالصدى في أذنها حتّى انتهى من كلامه. لم تشأ أن تقول شيئاً، وكل ما تمّنته هو أن تعود إلى سريرها، وتغمض عينيها وتنام.

أرادت أن تزيل غُمّة الإرباك التي ظللتها، فسألته بسرعة:

- قل لي شيئاً عنك؟

ابتسم، وقد أدرك بأنها زلّة لسان، فقال، وهو يسند رأسه إلى شجرة، ويحدّق في الأفق:

- عندما كُنتُ صغيراً، كنت مريضاً بالربو، وكانت نوباته الليلية تقربني من الموت كثيراً. لم يوجد دواء في تلك الأيام لتخفيف ضيق التنفس الذي كان يصيب المرضى، ولكن أمي كانت تسقيني عسلاً حتى يلين حلقي فأتمكن من التنفس قليلاً. لم تكن قصباتي الهوائية تتسع كثيراً بعد العسل، حتى أن صوت أنفاسي كان يشبه صرير عجلات قطار قديم. كانت أمي تصلي بجانب رأسي طوال الليل، وتقرأ عليّ آيات من القرآن وهي ممسكة بيدي فأشعر بطمأنينة تغمرني. كان صوتها يجعل من فكرة الموت أمراً مستساغاً؛ ويُشعرني بأنني لو مت فإن يدها لن تُفلتني. وفي الليلة التي ماتت فيها زوجتي، أتت أمي للصلاة في

غرفتي وأمسكت بأيدينا أنا وطفلتي مريم، وظلت تقرأ القرآن حتى نمنا. حينها فقط، أدركتُ أن الحُب رُقيةٌ ضد الألم. صدقيني، لم أكن مؤمناً، ولم أكن مؤهلاً للعيش طويلاً، إلا أنني عرفتُ الله مِن إيمان أمي، واستطعتُ أن أحيا من خلال حُبها.

قامت من مكانها وتركته يتحدث واتجهت ناحية خيمتها. صمت عند رؤيته ذلك المشهد. أدرك أن حديثه عن زوجته الراحلة قد صدمها، ولم تدرِ ما تقول. جلس مكانه وظلّ يراقب شعرها وهو يغازل الشمس التي كانت على وشك الغوص في الأفق. أيقن حينها أنّه أمام امرأة مختلفة، لا تستعجل البوح، ولا تحبّ من يفعل ذلك. أراد أن يُحدثها عن أشياء أخرى، ولكنّه آثر أن يفعل ذلك في وقت آخر، وفضّل أن يتركها تختلي بنفسها الآن. حتّى هو أراد أن يختلي بنفسه، فهناك الكثير من العمل ينتظره. نظر إلى الناحية الأخرى، فرأى مجموعة من المسلّحين ينظفون بنادقهم.. أدركَ أنّ الحبّ والحرب عملان لا يَلِيقانِ بأصحاب القلوب الضعيفة.

***

دخل الميدان، وقد احتشد عشرات الآلاف وهم يهتفون: «الشعب يريد إسقاط النظام». كانت هناك مجموعات موزعة في كلّ مكان، رفعت كلّ منها لافتة تطالب الطّاغية بالرّحيل. وبينما كان يشقّ طريقه بين الحشود، سمع امرأة تقول لأحد الذين كانوا واقفين على أحد مداخل الميدان: «قد يبدو ولداً صغيراً، ولكن الميدان كفيلٌ بتحويله إلى رجل». التفت، فرآى ولداً لم يتجاوز العشر سنوات تقريباً، ممسكاً بيد أمه. عاد وقال للرجل: «دعه يدخل، سأعتني به». ابتسمت الأم، وأطلقت يد الولد فهرع وأمسك بيد وائل. سأله إن كان يعرف الطريق إلى بيته، فأجابت الأم نيابة عنه: «كل البيوت هنا بيته». ابتسم، وتوغل مع الفتى بين الحشود.

بدأ رجال الجيش يتوافدون على الميدان، ورغم مطالبات أصحاب الميكرفونات للثوار بعدم التحرش بالجنود، فإنّ أحدًا لم ينصت لهم. بدأ زحف الحشود تجاه الجنود تدريجيّاً، وكلّما اقتربوا منهم، شكّلوا بأجسادهم صفّاً وازدادوا تراصّاً وكأنّهم يستعدون لأداء الصلاة. أخذ الجنود يتراجعون إلى الوراء، وبينما هم كذلك تعثّر أحدهم بشيء تحته فضغط بيده لا إراديّاً على زناد بندقيته فانطلقت رصاصة وأصابت أحد الشبّاب في صدره، فسقط أرضاً. هرع «شباب الإنقاذ» وهم مجموعة من الأطباء والممرضين من رجال ونساء تطوعوا ليسعفوا جرحى الميدان، لإسعاف الشاب. ولكنه فارق الحياة مباشرة

بعد أن أصابت الطلقة قلبه.

صرخ الثُّوار صرخة جماعيّة، وانقضوا على الجنود وكأنّهم قطيع من الجواميس الإفريقية الهائجة. اشتبكوا بهم، فبدأ رجال الأمن باستخدام الهراوات وإطلاق الرّصاص الحيّ، فتساقط الشبّاب والفتيات واحدًا تلو الآخر، إلاّ أنّ عددهم فاق عدد الجنود، وشجاعتهم فاقت أسلحتهم. أراد وائل أن يتقدم بين الصفوف، فتذكّر أنّه يجر معه ولداً صغيراً. عاد إلى الوراء، فصرخ الفتى: «احملني عالياً.. احملني أريد أن أرى». دفعه وائل للتقهقر وهو يصرخ به ويأمره بالعودة. أفلت الولد يده من يد وائل وانزلق بين أرجل الحشود المتلاطمة كأمواج عاتية في وسط محيط لا شاطئ له. حاول أن يمسك به، إلاّ أنّ صغر حجمه ساعده على الاختفاء بين الحشود.

سمع المتظاهرون صوت رصاص يأتي من كلّ مكان، ولكنّه لم يكن من رجال الجيش. دار وائل حول نفسه دون أن يدري إن كان يبحث عن الولد أم عن مصدر الرّصاص، وعندما نظر إلى الأعلى رأى رجالاً مسلحين يوجهون رشاشاتهم تجاه الجنود، ويطلقون النار عشوائيّاً. أخذ الرصاص ينهمر على الجميع كالمطر، ولم يكن واضحًا إن كان الذين يطلقون يريدون قتل الجنود أم المتظاهرين، فلقد كانوا يحصدون الجميع دون أن يكترثوا بهويّاتهم. لم يفكّر وائل حينها إلاّ في الولد الذي صار الآن تحت وابل النيران، ولكنّه اندفع، كباقي الثُّوار، إلى الوراء، حتّى فقدت الحشود اتزانها. أخذ الجميع يركض إلى أيّ مكان، وإلى كلّ مكان، وكلّما نجا أحدٌ سقط آخر. استطاع أن يصل

مع مجموعة إلى مكان آمن، وتمكن من رؤية بعض المسلحين الذين تَمَتْرَسوا فوق أسطح المنازل والعمارات. بعد أن استعاد توازنه، وأمعن النظر في أحد المسلحين، ليتبيّن هويته من زيّه، ظن في البداية أنّه من الجيش، ولكن بعد أن انقشعت غيمة الغبار التي أثارها تدافع الناس، تبيّن أنه لم يكن سوى أحد أفراد ميليشيات بزاز. لم يستطع أن يفهم لماذا يطلقون الرّصاص على كلّ من في المكان إن كانوا ضدّ النظام، ولكنّه أدرك بعد أن استطاعت الحشود أن تنفصل عن الجنود، أنّ بنادق رجال الميليشيات كانت موجهة إلى أماكن تمركز رجال الجيش، بغضّ النّظر عمّن كان معهم في ذلك المكان. استمرّ إطلاق النار نصف ساعة تقريباً، دون أن يستطيع الجنود أن يطلبوا المساعدة، فلقد كان الإطلاق مكثفاً ويهوي عليهم من كلّ مكان. أجال نظره في المكان باحثاً عن الولد فلم يرَ سوى أكوام من الجثث، يفوح منها الموت. جثا على ركبتيه باكياً. توقّف إطلاق النار، واختفى رجال الميليشيات وكأنّهم قد صعدوا إلى السّماء، وبعد أن انقشع الدخان، أدرك أنّ ما جرى كان إبادة جماعيّة.

أخذ يركض بين الجثث بحثًا عن الولد، فلم يجده. لم يجرؤ أحد غيره حتّى تلك اللحظة على الاقتراب من المكان. حاول أن يصرخ لطلب المساعدة، إلاّ أنّ صوته احتبس في صدره. انثنى على ركبتيه محاولاً أن يتنفس، فسمع صراخاً آتياً من أحد الأزقة القريبة. حاول أن يلتفت، إلاّ أنّه تقيأ حتّى ارتطم رأسه بالأرض، وشعر أنّ العالم يدور حوله. استمرّ الصّراخ من المكان نفسه. رفع رأسه محاولاً استعادة توازنه، وعندما نظر إلى الزقاق، رأى الولد مسنداً ظهره إلى الجدار، والدم يسيل من

رجله وهو يصرخ.

رغم بشاعة المنظر، إلاّ أنّه شعر بدفعة أدرينالين تتدفق في أوردته، وكأنّه بطارية قد تمّ إعادة شحنها. كان فرحه برؤية الفتى على قيد الحياة أكبر من خوفه من رؤيته مضرّجاً بدمائه. وقف محاولاً الجري، تعثر بجثّة أحد الثُّوار وسقط. نهض مرة أخرى مسرعاً تجاه الفتى، حمله وخرج من الزقاق وهو يجري تجاه الحشود التي هرعت عائدة لإنقاذ المصابين. التقت عيناه بعين أحد شباب الإنقاذ، وعندما رآى منظر الفتى برِجْلٍ شبه مبتورة، صرخ في زملائه وهرعوا إليه. وضعوا الفتى على الحمّالة وركضوا به تجاه سيّارة الإسعاف. حاول وائل أن يلحق بهم، إلاّ أنّ رجله خانته. نظر إلى الفتى وقد فقد الوعي. وضعوه في مؤخرة السّيّارة، أغلقوا عليه الباب، وانطلقوا. ظلّ ينظر إلى سيارة الإسعاف حتّى غابت عن نظره. حَبَا على يديه وركبتيه إلى أحد الأزقة القريبة، وعندما لاذ بالظلّ، أسند رأسه إلى الجدار وبكى. لم يدرِ، هل كان بكاؤه حزناً على رِجْلِ الفتى التي بدا أنّه فقدها للأبد، أم فرحة لأنّه لم يمت في المذبحة الجماعيّة التي شهدها قبل قليل. استمر في بكائه لأنه شعر أن البكاء كالإيمان يطهرنا من اليأس ويعيد التوازن لأرواحنا.

***

كانت قطرات المطر تنزلق على زجاج النافذة ببطء، والنَفَسُ الدافئ المُحمَّل بالذكريات يخرج من فم وائل فيشكل غيمة ضبابية على الزجاج. أضواء المدينة منعكسة على سطح قناتها المائيّة المتغلغلة فيها وكأنّها إحدى طرقاتها. هدوءٌ مُطْبِقٌ يملأ الآذان، فالصّمت لغة الليل والمطر حروفها. لم يكن يفكر في شيء سوى منظر الناس وهم يسقطون قتلى تحت الرّصاص قبل شهرين. إلاّ أنّ عزاءه الوحيد هو ضحكة الفتى في المستشفى مع أمّه التي شكرته على إنقاذ حياته. شعر حينها بأنّه خائن، فكيف يقبل شكرها وهو السّبب في فقدان الفتى لرجله. أكان بطلا حقاً حين حمله أم أنّ ذلك كان أقل ما يمكن لصاحب مروءة أن يفعل؟! أيّهما أشرف؟! الذي هرب من الميدان واختبأ في أحد الأزقة أم رجلاً آخر مات تحت الرّصاص؟ ولكن مهلاً، فكّر وائل، فذلك القتيل لم يمت بمحض إرادته، إنما صادف أنّه كان أقرب إلى الرّصاص منه، ولو أنّ الفرصة قد سنحت له، فلربما اختبأ مثله في أقرب مكان؟ يا للناس كيف تُحب تعظيم الأموات! هذا ما قاله في نفسه. فلو أن أحد الأموات عاد إلى الحياة لبقي شخصاً عاديّاً، ينام ويصحى ويذهب لعمله ويشرب قهوته، يقضي سنين حياته باحثاً عن رزق أطفاله، يشتكي من شظف العيش والأمراض وحرارة الطقس.. ولكن يبدو أن الرّحيل الأبديّ عن الحياة يمنح الإنسان حجماً أكبر من حجمه!

قطع صوت خُفّ أمّه، الذي كان يحتكّ بالأرض ببطء، حبل أفكاره. نادته ليشهدا معاً حفل تنصيب الملك الجديد لعربستان. لم يردّ عليها، فلم تشأ أن تقاطعه. فتَحَتِ التلفاز وظلّت تشاهد. تسلل

ووضع رأسه على رجلها، وتسمّرا لمتابعة حفل التنصيب. وقف الملك على المنصة وأدى القسم الدستوريّ، ثمّ تحدث إلى الأمة واعداً إيّاها بعهد جديد، شعاره الحرّيّة والكرامة للجميع، ومُطلقاً حزمة وعود بتحسين الاقتصاد، وإيجاد فرص عمل للشباب، والنهوض بالبلاد. كانت أصابع أمّ وائل تتغلغل في شعره، مثلما عوّدته مذ أن كان طفلاً على اللعب بشعره حتّى ينام. عندما انتهى خطاب الملك كان وائل قد رحل في نوم عميق. ظلّت أمّه تنظر إليه وتتذكره عندما كان طفلاً. وتذكرت أيضاً عندما كانت هي طفلة وتتمنّى أن تبقى كذلك أبداً حتّى تستمتع بحنان أمّها. كانت تعتقد أنّ الحصول على الحنان أجمل من إعطائه، وها هي الآن تدرك أنّ إعطاء المحبة أجمل أشكال الحصول عليها. قبّلَت جبين ابنها، وضعت وسادة تحت رأسه، وانصرفت إلى غرفتها.

بعد ساعتين، رنّ هاتف وائل المتحرك حتّى انقطع الاتصال، إلاّ أنّه لم يسمعه. رنّ مرّة ثانية، فانتبه إليه، فتح عيناً واحدة ونظر إلى الرقم فلم يعرفه. حاول وضع الهاتف على طرف الطّاولة فسقط على الأرض. مدّ يده ليعيده إلى مكانه، إلاّ أنّه كان بعيداً، وبينما هو يحاول، باغته النوم مرة أخرى. شعر وهو مغمضٌ عينيه بضوء خفيف، فتح عينيه، فاكتشف أن رأسه متدلٍّ من طرف الأريكة، وكان الضّوء قادماً من الهاتف، حيث وصلته رسالة نصيّة. أمعن النّظر فقرأ نص الرّسالة التي كانت قصيرة جدّاً، ولذلك ظهرت كاملة على شاشة الهاتف دون الحاجة إلى فتحها: «أنا بزاز، اتّصل بي».

اعتدل على الأريكة، نظر حوله فوجد المكان مظلماً إلاّ من إضاءة الشارع المتسللة من النافذة. ظن أنه يحلم، ولكنه أدرك بأنه

ليس كذلك عندما نهض باحثًا عن أمّه فوجدها نائمة في غرفتها. عاد يبحث عن الهاتف، فوجد أنّه ما يزال في مكانه على الأرض. فتحه وتحقق من الرّسالة مرّة ثانية، فكانت «أنا بزاز، اتّصل بي».

ظلّ محدقاً في الهاتف حتّى استوعب أنّ الرّسالة التي يقرأها آتية حقاً من الملك الجديد! حمل الهاتف وخرج إلى الشرفة، وأطرق ينظر إلى القناة المائيّة الممتدة التي تبدأ بالبحر وتنتهي إليه شاقّة المدينة إلى نصفين. كان سكّان المملكة يسمونها اختصاراً بـ «القناة». حاول أن يتوقع ما سيقوله له بزاز في المكالمة، ليستعدّ له، إلاّ أنّ أفكاره ظلت تهرب منه مثلما تهرب الدجاجات من صاحبها. حمل الهاتف وضغط على زرّ الاتصال، رنّ قليلاً ثم جاءه صوت بزاز مكسواً بفرحة دافئة:

- أهلا بالكاتب الهارب.

- أهلا بك يا سموّ الأمير.. المعذرة.. يا جلالة الملك.

ضحك بزاز وقال:

- عليك أن تعتاد عليها. كما أنّه عليك أن تكون رسميّاً معي من الآن وصاعداً، لأنّك تتحدث مع الملك مباشرة.

- أنا ممتنّ لاتصالك يا سيّدي.

- الحياة غريبة يا صديقي. بالأمس التقينا شريدين في معسكر على أطراف الريف، واليوم نتحدث كالملوك.

- أنت فقط ملك، أمّا أنا فلم يتغيّر في شيء.

- ما رأيك أن ننصّبك ملكاً للصّحافة.

جاء دور وائل للضحك، إلاّ أنّ بزاز لم يضحك معه، وقال بنبرة حازمة:

- هل تظنّ أنّني أمزح؟ لقد أصدرتُ قراراً بتعيينك رئيس تحرير صحيفة «الأمّة».

كان وائل متكئاً على حاجز الشرفة وهو ينظر إلى القناة، وعندما سمع هذه الجملة، قطع الشرفة مشياً من اليمين إلى الشمال، واضعاً إحدى يديه على خصره، وظلّ ممسكا بالهاتف في اليد الأخرى، بينما كان ينظر إلى الأرض محاولاً أن يجد ما يقول. قاطعته ضحكة بزاز:

- ما بالك سكتّ؟ ألم نتفق على أن تقف إلى جانبي؟

- واتفقنا أيضاً على ألاّ أتقلّد أيّ منصب في الدّولة؟

- بالضبط، لذلك لم أعيّنك في منصب حكوميّ. ستكون رئيس تحرير صحيفة، لا وزيراً. ولكن من يدري، قد تكون أكثر فائدة من وزير. سيعتمد ذلك على مدى إخلاصك للمملكة. تعال غداً.

أقفل السماعة تاركاً وائل في مكان مّا بين الفرحة والصدمة، أو ما يعرفه الناس بـ«الذهول»

***

اقترب سائق التاكسي من بوابة قصر الرئاسة وأوقف السيارة عندما أشار له الحارس بذلك. ترجّل وائل واتجه إلى الباب الصّغير وقال للحارس إن لديه موعداً في القصر. فتح الحارس دفتره الأزرق ليرى إن كان اسمه مدرجاً ضمن قائمة الزوّار لذلك اليوم، وعندما لم يجده، اعتذر له، وقال إنّه لا يستطيع أن يدعه يدخل. طلب منه وائل أن يتصل بالمسؤول في داخل القصر، وعندما فعل، أكد له المسؤول أنّهم لا ينتظرون أحداً بهذا الاسم.

خرج من غرفة الحارس وعزم على ألاّ يعود إلى هذا المكان مرّة أخرى، فيبدو أنّ الملك أراد أن يوقعه في مقلب، فمن يكون هو حتّى يتصل به الملك مباشرة ويطلبه للحضور، هذا ما فكّر فيه. وبينما كان يعبر الشارع مرت أمامه سيارة فاخرة، نظر في داخلها فرأى خالداً. عندما لمحه خالد اقترب منه وأنزل زجاج السّيّارة وناداه:

- وائل، ماذا تفعل هنا!

بحث وائل سريعاً عن كذبة يمكن تصديقها، ولكن إزعاج السّيارات في الشوارع، ووقوف خالد في مكان ممنوع، ونظراته المسمّرة عليه، كلّ ذلك جعله ينسى ما يقول. خاف أن يصارحه فيثير في نفسه الشكوك، أو ربّما الغيرة، ولكن الوقت قد فات للكذب، فعليه أن يجيب

الآن. الضجيج يزداد، والسّيّارات تمرّ بسرعة، والبرد قارس، ونظرات خالد تزداد حدّة.

انقضّ وائل على باب السّيّارة الأماميّ، ففتحه، وركب بسرعة وأغلقه بقوّة. ظلّ يفرك يديه ببعضهما وينفخ فيهما نَفَساً دافئاً وهو ينظر إلى الأمام. قال بحزم شابه تقطع صوته:

- انطلق إلى داخل القصر.

ابتسم خالد، وأدرك أن وائل لا يعرف كيف يكذب. نظر أمامه، وبدأ بتحريك السّيّارة. تجاوز البوابة وظل يقود حتى وصل المدخل الرئيس فأوقف السيارة وقال:

- لقد بدوتَ مرتبكاً على الهاتف ليلة أمس.

فهم أنّه يعلم باتصال بزاز، بل ربّما كان الهاتف الذي اتّصل منه هاتفه هو. شعر براحة مؤقتة لأنّه لم يكذب عليه. ظلّ محدقاً في الأفق وقال:

- ماذا تريدون مني؟

- من تقصد بـ«تريدون»؟

- أنت والملك؟

- أنا لا أريد شيئاً، بل جلالته من يريد.

- وماذا يريد جلالته؟

- لا أدري، لماذا لا تسأله بنفسك؟

- هل هذه لعبة يا خالد؟

- لعبة.. هممم.. نعم، إنّها لعبة. ككلّ شيء في هذه الحياة. أليست النّساء لعباً لدى الرّجال والعكس؟ أليس المال لعبة لدى صاحبه؟ أليست أجمل لحظات أحدنا مع أطفاله عندما يلعب معهم؟ ألم يقل الله في القرآن: «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ» فلماذا إذاً نُصر على أن نكون جادّين فيها حدّ القتامة؟

- ولكن يبدو لي أنّ الله تعالى كان يحذرنا من اللعب واللهو فيها. لأنّه قال في تكملة الآية: «وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلّذِينَ يَتّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

- ولماذا خلقنا فيها إذاً؟ لماذا نحن هنا؟ لماذا وضع فينا كلّ الشهوات والرغبات، ثمّ قال لنا اكبحوها؟

- ليمتحننا ربّما!

- ولماذا يمتحننا؟ ما الهدف من كلّ هذا؟ لماذا أخرج آدم من الجنة؟ والسّؤال الأهمّ، لماذا خلقه؟

- لم يستطع أحد أن يجيب عن هذا السؤال حتّى الآن. كلّ الفلاسفة والمفكرين على مرّ التاريخ عجزوا عن الوصول إلى إجابة.

- وإذا سألت رجلاً في الشارع، فسيقول لك إنّ الهدف من خلقنا هو أن نعبد الله، حيث قال تعالى في القرآن: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالْإِنسَ إِلّا لِيَعْبُدُونِ». ثمّ إذا سألته لماذا يريدنا أن نعبده؟ هل هو في حاجة إلينا أو لعبادتنا، فسيقول لا؟ إذاً لماذا خلقنا لنعبده؟ هنا سيتوقف الجميع عن طرح الإجابات، وسيبدؤون في التفكير.

- إلى أن يصلوا إلى الطريق المسدود الذي وصلت إليه.

ابتسم خالد وشعر بتقارب بينه وبين وائل. ظلّ محدّقاً فيه ثمّ قال:

- لندخل الآن، فلقد حان وقت اللعب.

بدا القصر الملكيّ وكأنّه بقعة أخرى، لا تمتّ للمدينة بصلة. فكل شيء فيه بدا مَطْليّاً بالذهب. مقابض الأبواب، مفاتيح الإضاءة، إطارات اللوحات. أمّا أرضياته فكانت مكتظة بالألوان البرّاقة، حتّى أن وائل شعر بأنّه في داخل علبة حلويات. لكنه لاحظ أن العاملين فيه غير مدرّبين جيّداً، فهم مبعثرون في كلّ مكان، ولم يتوقف أحد منهم ليلقيَ عليهم التحيّة. فَهِمَ أنّهم ليسوا موظفي القصر الأصليين، ويبدو أنّ الملك الجديد قد تخلّص من كلّ القدامى، خشية أن ينتقم منه أحد مريدي الطّاغية الراحل.

دخلوا غرفة المكتب التي كانت صغيرة، إلاّ أنّها مكتظة بالكتب. المكان منظم جدّاً، ومعظم الكتب الموجودة فيه تتوزع بين الدين

والسّياسة. سقطت عين وائل على الكتاب المُلقى على سطح المكتب، وعندما اقترب لم يتفاجأ بعنوانه «كتاب الأمير لميكيافيلّي». وبقرب الكتاب رأى ورقة صغيرة كُتب عليها: «رجل واحد يستطيع أن يعيد الأمة إلى مبادئها، ولو كان قدوة جيّدة فسيقلّده الناس. حتّى الأشرار سيخجلون أن يكونوا عكسه». ابتسم، وتذكر عندما كان يتناقش مع أصدقائه يوماً في نادٍ للكتاب حول أفكار ميكيافيلّي، فقال له أحدهم إن في داخل كلّ إنسان ميكيافيلي صغير، ولذلك عليهم أن يقرؤوا الأمير حتّى يعرفوا كيف يتعاملون مع صراعات السُّلطة.

فُتِح الباب، وتساقطت طَرَقاتُ عصاً على الأرض كتساقط قطرات الماء من فم إناءٍ عتيق. التفتَ فرأى رجلاً يشبه بزاز.. «يا إلهي، إنّه هو» هذا ما قاله في نفسه عندما أمعن النّظر. بدا مختلفاً، فوجهه مسترخٍ، وابتسامته توحي بأنّه ليس قلقاً من شيء. أمّا ثيابه، فكانت أكثر فخامة وأناقة من تلك البدلة العسكريّة القديمة التي كان يرتديها في المعسكر. كان يميل مع كلّ خطوة إلى اليسار ليعوّض ضعف رجله بقوة يده التي كانت تمسك بالعصا وكأنّها جزء منها.

- يبدو أنك اكتشفتَ أنّني أقرأ الأمير.

قالها وابتسامته تزداد اتساعاً. ثمّ اقترب من وائل وصافحه.

- نعم يا سيّدي، إنّه كتاب مفيد.

- قلْ ذلك لخالد، لقد نصحته بقراءته عدّة مرات، ولكنّه

رفض، وتعلل بأنّه يكفي لأحدنا أن يقرأه، فلو قرأناه نحن الاثنين فلن يأمن أحدنا الآخر.

ضحك الثلاثة، فأحسّ وائل بالراحة تتسرّب إلى جسده وتستقرّ في قلبه أخيراً. نظر إلى خالد وقال:

- عليك أن تقرأ الكتاب كما قال جلالة الملك، «فلكي تُقيّم ذكاء الحاكم عليك أن تنظر إلى الرّجال الذين حوله». هكذا يقول ميكيافيلّي.

قال الملك:

- في هذه الحال سأبدو غبيّاً جدّاً.

عادوا إلى الضحك ثم اتجه الملك إلى أريكته وطلب من وائل الجلوس. انسحب خالد وأغلق الباب.

- أعجبني مقالك الذي تحدّثتَ فيه عن التركيبة السياسيّة في البلاد. ولكن، هل تظن بأن القبليّة المتجذرة في مجتمعنا قد تصبح عائقاً أمام التطوير السياسي؟

- أنا مؤمن بالمشاركة السياسية، ولكنني قلقٌ عندما يُفتح الباب لوصول ممثلي القبائل الأكبر والأقوى، وليس للأشخاص الأصلح؛ فالسلطة حينها ستكون مُلكاً للقبائل، وستتفشى المصالح الشّخصيّة، وسيعمّ الفساد في مؤسسات الدّولة.

- ولكن ما دفعك لإلقاء محاضرة في الجامعة الوطنيّة؟

أدرك وائل أنّ الملك يحاول نزع اعتراف منه، ولو كان ضمنياً، بأنّه يؤمن به هو، الملك بزاز، وليس كما كتب في مقاله بأنه مع التغيير الإيجابي، وليس مع أي تغيير.

- ذهبتُ لأتحدث إلى شباب وفتيات الوطن. فالكتابة وحدها لا تكفي، والتواصل المباشر مهمّ لإقناع الناس. ثمّ إنني وجدتُ أنّ غالبية من وقفوا معك في الثّورة ضدّ الطّاغية، كانوا من القبائل الموالية لك، فأردتُ أن أشجع الشّباب والفتيات على الانخراط في العمل الوطنيّ حتّى يكون التغيير نابعاً من رغبة الشعب، لا من بعض فئاته.

- ولقد نجحتَ في ذلك. فنزول شباب الجامعة في الشوارع في الأيّام التّالية للمحاضرة وهتافهم باسمنا ساعدنا على تبرير الثّورة أمام العالم. ولكن ألا تعتقد أنّ الناس سيتساءلون: لماذا تخلّصوا من ملك ليأتوا بآخر؟ ومن الأسرة نفسها أيضاً!

- لا تهمّ هذه التساؤلات. فالتاريخ حافلٌ بانقلابات شعبية على ملوك لتنصيب ملوك من الدم نفسه. المهم، هو ما يحققه الملك الذي نصّبه الشعب حاكماً عليهم.. هل لي بسؤال يا سيّدي؟

- تفضل؟

- كنتُ في الميدان في اليوم الذي ارتكبت قواتكم مذبحة ضدّ قوّات الطّاغية، وكانوا لا يتحرّزون عن قتل الأبرياء أيضاً. فاستغربتُ

من تلك الفعلة الشنيعة التي كان يمكن تجنبها، فيبدو أن جنودكم كانوا على درجة عالية من التدريب، وليسوا ميليشيات مبتدئة حتّى يخطئوا التصويب. ودعني أسألك بصراحة، لماذا لم تغتالوا الطّاغية في بداية الثّورة، كما فعلتم في نهايتها؟ لماذا استمرت الثورة كل هذه المدة بينما كنتم قادرين على حفظ دماء الشعب؟

- أنت تسأل كثيراً!

- أليست هذه مهنتي؟

- كلاّ، مهنتك هي دعم مواقف الحكومة!

قالها دون أن يحرك رأسه أو جسده، وظلت عيناه مرتخيتان ومسمّرتان على وائل. سكت وائل وتذكر أنّه جالس الآن في حضرة ملك البلاد، لا قائد ميليشيات. بدا له، فجأة، أنّه نسيَ نفسه. وربما كان السّبب في ذلك هو الطريقة التي كسر بها بزّاز الحاجز بينهما في بداية الجلسة، إلاّ أنّ ذلك لا يعني أنّه يمكن له قول ما يريد. صار الصّمت حينها لغة المكان. أطال الملك النّظر إلى خارج النافذة حيث كانت رياح الشّتاء تموج برؤوس الأشجار. قام من مكانه، فقام وائل، اتجه إلى أحد الرّفوف وتناول كتاب «أخلاق الوزيرين» لأبي حيّان التوحيديّ. ظلّ يُقلّب صفحاته حتّى استقر على إحداها، ناول وائل الكتاب وقال له:

- اقرأ، ولا تقف حتّى أقول لك.

«وكان ابن عبّاد شديد السّفه، عجيب المناقضة، سريع التحوّل

من هيأة إلى هيأة، مُستقبِلاً للأحرار بكلّ فِرية وفاحشة. كان يقول للإنسان الذي قد قدِم عليه من أهل العلم: تقدّم يا أخي وتكلّم، واستأنس، واقترح، وانبسط، ولا تُرَع. واحسبني في جوف مُرقّعة، ولا يهولك هذا الحشم والخدم، وهذه الغاشية والحاشية، وهذا المرتبة والمِسّطبة ، وهذا الطّاق والرّواق، وهذه المجالس والطنافس ، فإن سُلطان العلم فوق سلطان الولاية، وشرف العلم أعلى من شرف المال، فليَفْرَخ روعُك، ولينعم بالك، وقل ما شئت، وانصر من أردت، فلستَ تجد عندنا إلاّ الإنصاف، والإسعاف، والإتحاف، والإطراف، والمقاربة، والمواهبة، والمؤانسة، والمقابسة، وعلى هذا التنزيل، ومن كان يحفظ ما يهذي به في هذا وغيره.

حتّى إذا استقى ما عند ذلك الإنسان بهذه الزخارف والحِيَل، وسالَ الرّجل معه في خَدُوره على مذهب الثقة، وركب في مناظرته وردعه، وحاجّه وراجعه ووضع يده على النكْتة الفاصلة، والأمر القاطع، تنمّر له، وتنغّر عليه، واستحصد غضباً وتلظى لهباً، قال بعد وثبتين أو ثلاث: يا غلام! خذ بيد هذا الكلب إلى الحبس، وضعْه فيه بعد أن تصبّ على كاهله وظهره وجنبيه خمسمائة عصا، فإنّه مُعاند ضِدّ، يحتاج أن يُشَدّ بالقِدّ ساقطٌ هابطٌ، كلبٌ نبّاح، متعجرف وقاح، أعجبه صبري، وغرّه حِلمي، ولقد أخلف ظنّي، وعدت على نفسي من أجله بالتوبيخ، وما خلق الله العصا باطلاً، ولا ترك خلقه هاملاً».

أمره أن يتوقف. ظلّ وائل ينظر إلى الصّفحة، وأدرك أنّه قد تجاوز حدوده في أسئلته لبزّاز. أدرك الآن أنّه في حضرة مَلِكٍ ذي حُكْمٍ

مُطلَق، لا يُسألُ عمّا يفعل. أدرك الآن أنّ بزازاً، المُقاتل عن حقوق شعبه، والمناضل من أجل الحرّيّة قد مات في الميدان. تناول الملك الكتاب من يده بلطف، وأعاده إلى الرفّ. دخل الخادم بالقهوة. جلس الملك ودعا وائل إلى الجلوس أمامه، وقال:

- لقد تركنا الطّاغية يعيش ليس لأنّنا لم نقدر على اغتياله، بل كنا قادرين على ذلك بعد أشهر من اندلاع الثّورة. ولكننا أردنا أن يرى العالم ظلمه ودمويّته. لم يكن كلّ الشعب ضدّه، أما ما يُسمّى بـ«المجتمع الدوليّ» فقد كان يرى أنّ ما يجري في عربستان صراع داخلي، حتّى أتى ذلك اليوم في الميدان وصارت المذبحة، حينها فقط أدرك شعبنا والعالم أنّ الطّاغية مجرمُ حرب، وصار التّخلّص منه رغبة شعبيّة، وصار موته مطلباً عامّاً. إنّ من أخطاء بعض القادة، يا وائل، أن ينتصروا قبل الأوان، فالنصر الذي يجيء قبل أوانه، يشبه الجنين الذي يولد قبل اكتمال نموّه؛ يصبح مشوّهاً أو مَعاقاً. لقد أتى موت الطّاغية في أوانه بالضبط، وهذا بالنّسبة إليّ أجمل ما في الثّورة، التوقيت، التوقيت الصحيح. ثمّ إن ذلك كان قدره، أتريدنا أن نستعجل قدر الله!

قالها وهو يبتسم، فسأله وائل:

- لماذا تخبرني كلّ هذا يا سيّدي.. ألكي أثق بك؟

- كلا، بل لكي أثق أنا بك... عندما يعرف الإنسان الحقيقة، فإنّه يكفّ عن البحث عنها، وعندما يتوقف عن البحث، يصير أقلّ

فضولاً. شخصان لا يمكن أن تثق بهما، الجاهل والعاشق. فالجاهل لا يُقَدّر عواقب الأمور، والعاشق يعطيها أكبر من حجمها. الأوّل مستهتر، ذو عقل صغير، فيفضحك، والثاني يظن أن الحبّ يزداد عذوبة كلّما باح به.

- أوليس كذلك؟ أعني، لماذا كتب الشّعراء إذاً قصائد في عشيقاتهم؟ ألم يبوحوا للعالم بسرّهم؟

- كم شاعراً تزوج ممّن أحب؟ لا يمكنك أن تذكر واحداً أليس كذلك؟ أتعرف لماذا؟ لأنّ الحبّ كالإيمان، يصير أكثر نقاءً عندما نحتفظ بسريته بيننا، وبين من نحبّ، وكلّما كشفنا عنه، خسرنا منه.

- ولكن الإيمان ما وقر في القلب وصدّقه عمل!

- اعمل إذاً، وكُفّ عن الكلام.

ارتشف الملك قهوته ثمّ أردف:

- أتذكر عندما رأيتك في المعسكر أوّل مرة؟

- نعم!

- هل تذكر رأس العصا التي كُنْتُ أتكئ عليها؟

- أظنّ أنّه كان رأس أسد؟

- فعلاً. لي من العصيّ خمسٌ، قبضة كلّ واحدة منها تشبه رأس أحد الحيوانات الإفريقيّة المسماة «الخمسة الكبار». هل تعرف من هم؟

- أظنّ أنني قرأتُ عن الموضوع مرّة.. لكن لم أفهم ماذا تقصد؟

- لا يهم أن تفهم الآن، المهم أن تُنصِت.

قالها وهو يضرب بعصاه، التي تحمل رأس نمر مُرقّط، على الأرضية الخشبيّة. لم تكن قبضة العِصيّ فقط على هيأة أحد الحيوانات الخمسة، بل حتّى قواعد العِصيّ كان تشبه أقدامهم:

- طوال فترة الثّورة، كنت أتكئ على تلك العصا فقط، فأهم دور يقوم به الأسد هو حماية القطيع. يعتقد كثير من الناس أن اللبؤة تقوم بدور أهمّ وهو الصيد، ولكنّهم مخطئون. فالصيد انطلاق، والمنطَلِقُ أكثر عرضة للكسب، وأقل عرضة للخسارة، تماماً كلعبة كرة القدم. فعندما يفوز الفريق، يُعزى ذلك غالباً إلى المهاجمين الذين سجّلوا الأهداف، وعندما يُهزم، فإن الحارس أوّل من يُلام. قد يكون لاعبو الدفاع أو الوسط أو حتّى الهجوم بطيئين أو متخاذلين، وقد يكون خطأ ارتكبه أحدهم هو سبب خسارتهم، ولكن يبقى الحارس دائماً هو السّبب. وإن أخطأ الحارس، فإنّ النتيجة ستكون هدفاً لصالح الخصم مباشرة، أمّا إن أخطأ المهاجم فإنّ النتيجية ستكون خسارة هدف، أي أهون بكثير من دخول الكرة في مرماك.. هل تفهم ما أقول؟

- نعم.

- إذاً، أنت مقتنع بأن دور الأسد أهمّ من دور اللبؤة.

ودون أن يُعطه الفرصة ليجاوب استطرد:

- ولذلك كنتُ أحمل عصا الأسد معي أينما ذهبت، لأنّني كنتُ معنيّاً حينها بحماية الثّوار، والناس، وكلّ من شارك معنا من المخلصين. ثمّ إنّه من أعراف الأسود أن يتفوّق الأسد الأصغر سنّاً على الأكبر ويرميه خارج القطيع ليموت كالشرذمة. وهذا ما كنتُ أنوي فعله، وفعلته.. لقد كانت تلك عصا حظي يا وائل.. هل تفهم! كلّ هذه العصي تجلب لي الحظ.

سكت وائل وانتظر الملك حتّى يفرغ من ارتشاف قهوته، ثمّ سأله:

- ماذا تريد منّي يا سيّدي؟

- الإخلاص يا وائل، الإخلاص.

- وما هو الإخلاص؟

وقف الملك هامّا بالانصراف. اقترب من وائل وطرق بأصابعه على صدره، وقال:

- ما وَقَر في القلب، وصدّقه عمل.

عاد وائل إلى بيته، وبحث في الإنترنت عن مواصفات النمر المرقط. اكتشف أنّه عدوانيّ جدًّا عندما يتدخل أحد في خصوصياته،

ويحبّ العزلة إلى درجة أنّه يضع الخطط ليتجنب اللقاء ببني جنسه طوال اليوم. «ويصيد وحيدًا».. توقف عند هذه الجملة طويلاً. لم يدرِ إن كان بزاز يحمل تلك العصا صدفة، أم أنّه تعمّد أن يُرسل رسالة واضحة مفادها أنّه لن يقبل من الآن فصاعداً أن يتدخل أحدٌ في شؤون المملكة، أو يوجه إليه أيّ نصيحة أو نقداً، فهو الملك الأوحد، ولكنّه، ربما، الوحيد أيضاً.. يصيد وحيداً، ويعيش وحيداً.. وقد يموت وحيداً.. هذا ما دار في نفس وائل الذي توقف عن البحث عن إجابات، فقد كانت الأسئلة كبيرة جدّاً إلى درجة أنّه ظن أنّه ما مِن إجابات ستنفع الآن.

***

كان صباحًا مُشْرِقًا على رغم برودته، إلاّ أنّ خلوّ السّماء من غيوم بثّ الدفء في الطرقات وفي الصدور. نزل وائل من التاكسي ودخل العمارة التي يقع فيها مقرّ صحيفة «الوقت» المعارضة للنظام السّابق. وهي الصّحيفة نفسها التي كان له فيها عمود في الصّفحة الأخيرة، ما جعله أحد أشهر كُتّاب المملكة. ركب المصعد، وكانت معه سيّدة عجوز، وكاد الباب أن ينغلق لولا أن اعترضته يدٌ صغيرة وناعمة، قفز من مكانه ووضع يده حتّى لا يُغلق الباب على يد الفتاة، فتشابكت أصابعهما بالخطأ، وعندما فُتِح الباب وتلاقت عيناهما، تسمّر كلّ منهما في مكانه. ساد صمتٌ لم يقطعه سوى صوت باب المصعد وهو يعود للانغلاق مرّة ثانية. عندما سمع وائل صوت الباب عاد إلى الوراء بسرعة فاصطدم ظهره بجدار المصعد. دخلت الفتاة وأدارت ظهرها له، وظلّت محدّقة بالباب، أما هو، فقد خُيّل إليه من رائحة شعرها، أنّه في حديقة أزهار، أو كأنّه يغوص في زجاجة عطر قد عُصِرَ زيته قبل قليل.

لقد كانت شوق..

لم يدرِ ماذا عليه أن يقول، ففضّل الصّمت. «عندما لا تعرف ما تفعل، فلا تفعل شيئاً أبداً».. كانت هذه إحدى قواعده في الحياة. فُتح الباب، فنزلت معه في الطابق نفسه وانطلقت تمشي مسرعة. حاول

اللحاق بها لولا أنه خشي من نظرات الموظفين، فتركها حتى غاصت بين المكاتب. لمحه رئيس التحرير من بعيد فخرج من مكتبه مسرعاً وعانقه أمام الموظفين الذين قاموا للسلام عليه. كان الكل يعرفه ومعجب به، وكلّما سلّم عليه أحدهم أو إحداهنّ، يمطرونه بالثناء والمديح، ويطرّزون له من جُمَلِ الإعجاب ما لم يسمع به من قبل. جاؤوا إلاّ شوق، حتّى ظنّ أنّها لم تكن هي.

بعد أن انتهى من السلام على الموظفين، وتجاذب أطراف الحديث معهم، دعاه رئيس التّحرير إلى مكتبه. دخلا وأغلق الباب.

- مباركٌ يا صديقي.. مباركٌ هذا الخبر الجميل. لقد صرنا زملاء مهنة الآن.

رد وائل:

- يا للمفارقة! بعد كلّ سنوات الكتابة في صحيفة مُعارِضة، صرتُ رئيس تحرير الصّحيفة الحكوميّة الأولى في البلاد.. يا للمفارقة!

- لقد كُنتَ قَلَم الثّورة يا صديقي، ولحسن حظّ البلاد أنّ مخلصين أمثالك صاروا من قادة الإعلام فيها.

- ولكن، هل أنا مُخلِص حقّاً؟

- وهل كنتَ تكتب عكس ما كنت تؤمن به؟

- كلاّ بالطبع.

- إذاً، هذا هو الإخلاص. أنت لم تُزيّف الحقائق، ولم تقف مع الطّاغية. لقد وقفتَ مع الحقّ.

- وهل الملك الجديد هو الحَقّ؟

- ماذا؟ ألم تُشجع الناس على دعمه والوقوف معه؟ لماذا فعلت ذلك إن لم يكن على حقّ؟!

- لا أدري إن كان كذلك أم لا. الأيّام وحدها كفيلة بإخبارنا بالحقيقة. المهم الآن هو أن نعينه ليكون على حقّ.

- لن يكون مثل عمّه على أيّ حال.

- ولكنّ أنت تعلم أنّ الناس لم يُضحّوا بحياتهم لكي تصبح حالهم « أيّ حال». لقد ضحّوا من أجل أن يكون في أفضل حال.

- صدقت، وهذا دورك الآن.

- كلاّ، هذا دورنا كلّنا، علينا أن نبقى كما كُنّا، مع الحقّ.

- قُلْ لي ماذا ستفعل بالصّحيفة؟

- لا أدري يا صديقي، ولهذا جئتُكَ. فخِبْرَتي في الكتابة والصّحافة، وليست في الإدارة. لم يسبق لي أن أدرتُ مؤسسة كبيرة

كهذه. أنا خائفٌ من الفشل.

- لا تخف. يمكنك أن تقرأ في كتب الإدارة، وتحضر عدّة دورات، وستتقن الأمر. المهم هو أنك تفهم الصّحافة جيّداً.

- وهل تقترح كتاباً مّا لأبدأ به.

وبينما هما يتحدثان، مرّت شوق مع موظف آخر أمام مكتب رئيس التحرير، فأومأ إليهما من خلف الزّجاج ليدخلا:

- لا أظنّ أنّني أحتاج إلى تعريفكما بهذا الرّجل. وخصوصاً أنتِ يا شوق، فأظنّ أنّك من أشد المعجبين به، وكنتِ تصرّين على قراءة مقاله قبل الآخرين.. هل تذكرين؟

قالها وهو يضحك، أما شوق، فقد احمر وجهها وحاولت أن تكبح جماح الابتسامة نفسها التي باغتت وجه وائل. استطرد رئيس التّحرير، وهو يتحدث إلى وائل:

- سأرسل مجموعة من المديرين الجدد إلى كليّة إنسياد في فرنسا لحضور دورة في القيادة والإدارة، ومن بينهما هذين الشابين. إننا نحذو حذو دبي في هذا المجال. فقد اتصلنا بهم وأخبرونا أنّ لديهم برامج لتأهيل القادة والمديرين، يتعاونون فيها مع أفضل كليّات العالم. واتفقنا، بمساعدة أصدقائنا من دبي، مع كليّة إنسياد لتدريب قادة الصّحيفة الجدد. لقد أتعبتنا دبي يا صديقي.

- بل قلْ ألهمتنا!

- مهلاً، ما رأيك أن تذهب معهم إلى إنسياد؟ ستختصر وقتًا طويلاً، وستتعلّم فنون الإدارة من أفضل الأساتذة والمتخصصين.

- إنسياد! ولكن عليّ أن أبدأ عملي في الصّحيفة بعد أيّام.

- لا بأس، السفر بعد شهر تقريباً، أليس كذلك يا شوق؟

تريّثت شوق قبل أن تردّ، وانتقلت بنظراتها بين رئيسها ووائل، وقالت:

- نعم، بعد شهر من الآن.

- عظيم. ستعتنين بوائل إذاً.

لقد كان هذا القرار الذي اتخذه رئيس التّحرير بالنيابة عن وائل، هو أسعد قرار اتخذه منذ سنوات. لم يكن وائل صادقاً في تردّده ذاك، بل كان يريد أن يُضفيَ نوعاً من المصداقيّة على ردّة فعله. وفي الحقيقة، فإن قلبه قد قفز من مكانه عندما علم أنّ شوق ستكون في تلك الرّحلة.

إنّه على وشك بدء مغامرة جديدة، ولكنّه تمنّى هذه المرّة أن تكون أكثر لُطفاً من المغامرات والأهوال التي مرّ بها في السنة الأخيرة.. على ألاّ تكون أقلّ مفاجأة منها.

استأذن وائل للانصراف، فأراد رئيس التّحرير إيصاله إلى باب الصحيفة، إلاّ أنّه أصرّ على أن يبقى في مكتبه، وطلب منه أن يرشده إلى دورة المياه. دخل الحمّام، وأقفل على نفسه الباب، أخرج ورقة صغيرة من دفتره الذي يحمله معه لتدوين أفكار مقالاته، وكتب فيه شيئاً. خرج واقترب من مكتب شوق ببطء، التفت حوله، وعندما تأكد من أنّ الجميع مشغولون بأعمالهم، غرز الورقة في لوحة مفاتيح كمبيوترها، واستمرّ في طريقه إلى الخارج. بعد نصف ساعة، خرجت شوق من غرفة الاجتماعات، وعندما جلست على كرسيّها انتبهت إلى القصاصة. انتزعتها، ونظرت حولها إن كان هناك من يريد إيقاعها في مقلب سخيف، وعندما وجدت أنّ أحداً لم يُعِرْهَا أيّ انتباه، فتحتها ببطء فقرأت:

- إذا كان سفري سيزعجك، فلن أحضر. وإذا كان بقائي يُرضيك، فلن أحضر، ولكنّي لن أرضى أيضاً. بين السفر والانتظار تسكن الأمنيات.. وأنا.

ثم ذَيّل الورقة بعنوان بريده الإلكتروني. لم تدرِ شوق إن كان صادقاً في ملاحظته هذه، أم أنّه يبحث فقط عن حُجّة لمراسلتها؟ ولكن كاتباً شهيراً وشاباً مثله، لن يعجز عن إيجاد فتاة أكثر جمالاً منها.. هذا ما قالته في نفسها. فمن يطرح أسئلة مفتوحة، لا بدّ أنّه يطمح إلى سماع إجابة غير نمطيّة. ذهبت إلى الكافتيريا وأحضرت كوباً من القهوة. أطرَقَت في التّفكير وهي تحتسي قهوتها، ثمّ فتحت بريدها الإلكتروني وكتبت له:

- أحتمِلُ كلّ شيء في السفر، إلاّ قراءة تفاصيل التذكرة وحدي. ليس لأنّني لا أفهمها، بل لأنّني لم أفهم حتّى الآن كيف يسافر أحدنا وحيداً..!؟ كيف يضحك ويبكي وحيداً..!؟ بين تذكرة وأخرى، تسكن الأمنيات.. وأنا.

***

نزل الأمير فيصل من الطائرة، وكان في استقباله سفير المملكة في باريس. ركب معه السّيّارة وانطلقا إلى فندق جورج الخامس (فور سيزونز) الذي يقع في إحدى جادّات شارع الشانزليزيه، وعلى الرّغم من أنّ قصر الملك يقع في إحدى ضواحي باريس، فإنّه لم يكن مسموحاً لأيٍّ من أفراد الأسرة المالكة بدخوله، إلاّ إذا كان الملك موجوداً، حتّى فيصل، الشقيق الوحيد للملك، لم يكن مسموحاً له باجتياز بوابة القصر في غيابه.

بدأ السّفير بالحديث مع فيصل:

- الحمد لله على السلامة يا سموّ الأمير.

- شكراً.. ما أخبار باريس.

- جميلة كالعادة، ولكن ينقصها وجودكم.

يمقت فيصل أحاديث المجاملات هذه، ولكنّه يعلم أن الناس يظنون أنّ الأمراء يحبونها، ولذلك، فإنّه يحوّل دفة الحديث إلى موضوع آخر، لكي لا يخوض ضيفه في مزيد من التزلّف.

- أستغرب من الفرنسيّين، أراهم في المقاهي حتّى آخر الليل،

ومن ثمّ يعودون إليها مرّة أخرى في النهار، ألا يعمل هؤلاء؟

- بل يعملون يا سيّدي، ولكن الشعب الفرنسيّ يحبّ الاستمتاع بتفاصيل الحياة كما تعلمون. فمتوسط ساعات العمل في فرنسا، يبلغ سبع ساعات، ومن عادة الفرنسيّ أن يأخذ إجازة مرّة كل شهر أو شهرين ليرفّه عن نفسه. أما خلال النهار، فإنّه مهْمَا حاول الالتزام بساعات عمله، فإنّه يهرب وسط النهار، في غير وقت الغداء طبعاً، لاحتساء القهوة وتبادل أطراف الحديث مع أصدقائه.

- ألا يخشى هؤلاء أن يكتشف مديروهم ذلك؟

- مديروهم يهربون مثلهم أيضاً.

ضحك الاثنان بعفويّة.. ما شجع السّفير على الاستطراد في الحديث:

- الفرنسيّون، كما تعلمون، شعب يحبّ الاستجمام والدّعة، ولا يقيمون للمال أو للتجارة وزناً كبيراً، بعكس الأمريكان والبريطانيين. فهم شعب مغروم بملذات الحياة مثل الفن، والموسيقا، والمتاحف، والمعارض، والأزياء، والموضة.. وكل ما تراه من أوجه الحضارة عندهم هو من إرث الماضي، إلى أن دخلوا عصر الصناعة عام 1889، عام الانتهاء من برج إيفل.

- وماذا حصل في عام 1889؟

- في ذلك العام، احتفلت فرنسا بمرور مائة سنة على سقوط سجن الباستيل، الذي يعده البعض بداية للثورة الفرنسيّة التي غيّرت مجرى التاريخ السلطويّ في أوروبا كلها لاحقاً. إلى جانب تلك المناسبة، أرادت فرنسا أيضاً أن تحتفي بعصر الصناعة، فأوكلت الحكومة آنذاك إلى المهندس غوستاف إيفل مهمة تصميم البرج والإشراف على بنائه، وكان تدشينه إيذاناً بدخول فرنسا عالمَ الصناعة من أوسع أبوابه، عندما أُقيم فيها المعرض العالميّ في العام نفسه، فقدمت للعالم أعجوبة صناعيّة تاريخيّة، ترمز إلى الصّناعة والحديد على وجه الخصوص، حيث تعتبر فرنسا من أكبر دول العالم تصديراً للحديد والصلب.

لم يكد السّفير ينهي حديثه، حتّى توقفت السّيّارة أمام مدخل الفندق، لم ينتبه فيصل إلى أنّهم وصلوا، وكانت عيناه مركّزتين على السّفير، وأذناه تصغيان باهتمام بالغ، وكأنّ الحياة قد صمتت من حوله، وبقي صوت محدّثه يسري في الأجواء.. قاطعه صوت باب السّيّارة وهو يفتح بيد عامل الفندق. ترجّل معه السّفير حتّى أوصله إلى جناحه، ثمّ تمنّى له ليلة سعيدة، ووعده بلقائه في الغد.

عندما اعتزل فيصل السياسة بعد عزل بزّاز، فضل مغادرة المملكة للتركيز على استثماراته، لكنه كان مؤمناً بأنه سيعود إلى بلاده يوماً. وخلال رحلاته، احتك برجال أعمال في مختلف دول العالم؛ وأدرك أنه لكي يكون معهم على قدم المساواة، فإن عليه أن يفهم لغة الأعمال وفنون الإدارة، ما دفعه للدراسة في مختلف جامعات العالم، فلم تكن تفته دورة في القيادة أو الإدارة إلا ويحرص على حضورها.

وبعد عدة سنوات، بدأ يقارن الناس الذين يلتقي بهم في الجامعات ورجال الأعمال الناجحين، بأولئك الذين كان يعيش بينهم في المملكة، فأدرك أن البون شاسع بين العقليتين، وأنه إذا كان له دورٌ في المستقبل، فإنه لا يريد أن يعود إلى وطنه بنفس العقلية البسيطة التي غادره بها.

نزل فيصل إلى شارع الشانزليزيه في الصّباح الباكر، كما تعوّد أن يفعل كلّما زار باريس. وكان أفراد الأسرة المالكة يزورون باريس بشكل منتظم. حتّى في أيّام الطّاغية، لم يكن فيصل ينقطع عن باريس، فقد كان مستقلاً عن دائرة الحكم، وله أملاكه واستثماراته الخاصّة، وكان يُفضّل أن يبقى بعيداً عن عمّه حتّى لا يُحسب عليه. وعلى الرّغم من كثرة زيارة أفراد الأسرة المالكة لباريس، فإنّهم لم يكونوا يعرفونها جيداً. فجدولهم ثابت لا يتغيّر؛ يستيقظون بعد الظهر، يَحْضُر أصدقاؤهم مائدة الغداء الذي يمتد لأكثر من ساعتين، تتخلله أحاديث متقطعة وسطحية، وما إن يفرغوا حتّى يتّجهوا إلى شارع الشانزليزيه لاحتساء القهوة، وكانت لكلّ أمير طاولة خاصة به في مقهى مّا، تُحجز له طوال فترة جلوسه في باريس.

تمتدّ الجلسات في المقاهي حتّى الغروب، وأحياناً، ينهض أحد الأمراء ليمشي في الشارع الشهير مع ثلة قليلة، وغالبًا ما تكون من الأصدقاء المقرّبين. لا يبتعدون كثيراً، ليس لأنّهم يخشون ذلك، فكلّ أمير ترافقه ثلّة من حُراسه، ولكن لأنّهم لم يعتادوا البحث عن المجهول. فهم يحبّون البقاء في منطقة الراحة التي بُنيت حولهم منذ طفولتهم، فكلّ شيء مهيّأ لهم، وكل شيء يأتيهم، ولا حاجة إلى الذهاب إليه.

يكره فيصل هذه الفكرة، وعلى الرّغم من ممارسته لبعض هذه الطقوس، فإنّه كان توّاقاً للخروج عن المألوف والذهاب بعيداً.

جلس مع اثنين من أصدقائه يحتسون القهوة في مقهى «البَحّار» كما يسميها أصدقاؤه، حيث يرتدي النادلون في تلك المقهى لبس البحارة: بنطالاً أزرق لا يصل إلى القدمين، وقميصاً أبيضاً ذا خطوط عرضيّة زرقاء، وقبّعة بيضاء تشبه التي يرتديها البحارة لتقيهم حرارة الشمس. كان مستوى المقهى أقلّ بكثير من مقاهي باريس الفخمة مثل مقهى «فوكيه» مثلاً، ولهذا السّبب بالذات، يصرّ فيصل على الجلوس فيه رغم امتعاض أصحابه منه.

وما كاد يُنهي قهوته حتّى وصل السّفير وأخذ مكانه إلى جانبه:

- صباحك جميل يا سموّ الأمير.

- نعم، إنّه كذلك.. اسمع، لا أريد لأيّ شخص في الكليّة أن يعرف من أنا، أريدهم أن يعاملونني كطالب عاديّ. كما أنّني سأقيم في سكن الطلبة.

- ولكن سكن الطلبة لا يليق بك يا سيّدي!

- أعرِفُ ما يليق بي، وما لا يليق! افعل كما أقول لك. ولا ترسلوا لي سيارة هناك.

لم يعرف السّفير كيف يردّ على فيصل، فكلّما حاول التقرب

منه يجد نفسه بعيداً فجأة! بالأمس، كان الحوار بينهما جميلاً، وكان الأمير مندمجاً جداً في حديث السّفير عن تاريخ فرنسا. هل يكمل موضوع أمس؟ كلاّ، فلو أراد الأمير أن يتحدث عن التاريخ، لبادر هو بالسؤال، هكذا فكر السّفير. آثر الصّمت حتّى يُطلَبَ منه الحديث.

انطلق وحده مع السائق في صباح اليوم التّالي متجها إلى قرية فاونتِن بلو، في جنوب شرق باريس، حيث كليّة إنسياد. كانت تلك القرية منتجعاً للصيد يرتاده ملوك وأباطرة فرنسا، بدءاً بلويس السابع إلى نابليون الثالث، وما يزال القصر الملكيّ متربعاً في وسطها، كالقلب الذي أرهقته السنون. أما اليوم، فإن القرية مهبط أفئدة طلبة الإدارة والقيادة من جميع أقطار الكرة الأرضية، حيث تُعدّ كليّة إنسياد إحدى أفضل عشر كليّات في العالم.

عندما وصل إلى الكليّة، طلب من السائق الوقوف بعيداً عن البوابة. نزل وسار راجلاً على قدميه، يجرّ حقيبته خلفه. حرص على ارتداء ثياب عاديّة، حتّى أنّه عندما دخل مبنى الكليّة، لم ينتبه إليه أحد. وبعد أن أتمّ إجراءات التسجيل، قادته موظفة الاستقبال إلى غرفته في الطابق الأوّل والأخير في سكن الطلبة، ولحسن حظه، أُعطي غرفة في زاوية المبنى مطلّة على الحديقة من جهة، وعلى ملعب كرة القدم من جهة أخرى، وعلى أطراف البصر، تمتد غابة فاونتِن بلو الخلّابة.

وجد الغرفة ضيقة ومظلمة نوعاً مّا، ولكن تلك كانت إحدى أمنياته لكي يعيش حياة الطلبة تماماً. يوجد في طرف الغرفة تلفاز

صغير لا يعرض إلاّ القنوات الفرنسيّة وبعض القنوات الإخبارية الإنجليزيّة. لم يهتم لذلك، فخطته كانت أن يقضي جلّ وقته في الكليّة ومع الطلبة.

بعد أن رتّب ثيابه، نزل إلى بهو السكن في انتظار الموظفة المسؤولة عن برنامج القيادة لكي تصطحب جميع الطلبة في جولة داخل الكليّة، وتعرّفهم أقسامها. كانت تلك هي التعليمات التي أعطته إيّاها موظفة الاستقبال.

توجه نحوه شخص كان يقف وحيداً، وقال له بالإنجليزيّة:

- أهلاً، أنا اسمي إنريكو، من إيطاليا.

فردّ عليه:

- وأنا فيصل من عربستان، سُررت بالتعرف إليك.

لم يكد فيصل ينهي جملته حتّى رأى علامات الدهشة على وجه إنريكو الذي باغته بسؤال سريع:

- عربستان، يا إلهي، أنتم الذين تخلّصتم من الديكتاتور! لا بدّ أنك كنت أحد الثوار المناضلين! هل لي أن آخذ صورة معك؟

قالها مازحاً، فانطلق الاثنان في ضحكة حاول فيصل ألا يُظهر زيفها، إلاّ أنّه أحسّ بوخز في صدره من كلام الإيطاليّ، فماذا لو عرف

أن الطّاغية كان عمّه! قاطعت تلك الفكرة كلمات الفتاة الشقراء المسؤولة عن برنامج التدريب، عندما قدّمت نفسها للجميع وهي واقفة على كرسيّ لكي يروها بوضوح، ثمّ طلبت منهم أن يتبعوها لتأخذهم في جولة في أروقة الكليّة.

لم يستطع إنريكو أن يحوّل نظره عن تلك الشقراء الجميلة، حاله في ذلك حال بقيّة الطلبة، وخصوصاً عندما تلوّح بيديها، لتخبرهم بتفاصيل المكان، فتِصِفُ جمال النّساء في كفوفهن.. هذا ما أسرّه فيصل في نفسه وهو يبتسم لانفعالات إنريكو المضحكة.

بعد أن أمضى الطلبة ساعة كاملة يتعرّفون خلالها على تفاصيل الحرم الجامعيّ، دخلوا إلى قاعة الدّراسة التي كان ينتظرهم فيها مدير برنامج القادة، وجلس كلّ طالب على الكرسي الذي خُصص له.

بدأ المدير كلمته الترحيبيّة، ولم تمض دقائق قليلة حتّى تداخل مع صوته صوت انفراج باب القاعة قليلاً. التفت الطلبة ليَروا مَنْ كان صاحب تلك الضجّة، وإذا به طالب تبدو عليه ملامح عربيّة. انزلق بين الكراسي بسرعة، وجلس في المقعد الخالي الذي كان في الوسط، وما أن رفع رأسه حتى التقت عيناه بعيني فيصل. توقف عن الحركة، أما فيصل فقد تغيّرت ملامح وجهه قليلاً، ولاحظ أن وجه ذلك الشّخص كان مألوفاً.

جلس وائل في صمت وصدمة.. «أيعقل أن يكون الأمير فيصل!» هذا ما قاله في نفسه.

طلب مدير البرنامج من الطلبة التعريف بأنفسهم ولكن بطريقة غريبة، فقسّمهم إلى مجموعات، تضمّ كلّ مجموعة طالبين فقط، ومنحهم خمس دقائق لكي يتعرف كلّ اثنين على بعضهما جيداً، ومن ثمّ يقوم كلّ شخص بذِكر شيء واحد عن زميله، ولكن بشكل طريف. كان بعضهم طريفاً وبعضهم الآخر عاديّاً، وعندما أتى دور فيصل وإنريكو، بدأ فيصل بقوله:

-هذا زميلي إنريكو، وهو من إيطاليا، وعلى الرّغم من أن ملامح الغباء تبدو على محيّاه، إلاّ أنّه ليس غبيّاً.

انفجرت القاعة بالضحك ثمّ جاء دور إنريكو فقال:

- هذا زميلي فيصل من عربستان، وعلى الرّغم من كونه عربيّاً إلاّ أنّه شخص لطيف.

انفجرت القاعة بضحك هستيري هذه المرّة، ويبدو أنّ فيصل وإنريكو أصبحا صديقين منذ تلك اللحظة.

عندما خرج الطلبة من القاعة، توجه وائل ناحية فيصل، وقال له:

- صباح الخير يا سموّ الأمير.

نظر إليه فيصل وقد تقطب حاجباه، إلاّ أنّ شفتاه انفرجتا عن ابتسامة صفراء. ردّ عليه:

- أيّ صباح هذا وأنتم ورائي أينما ذهبتُ!

ضحك وائل، فاستطرد فيصل:

- أنا أعرفك، أنت تكتب في الصّحافة، أليس كذلك؟

- نعم.

- وماذا أتى بك إلى إنسياد؟

- أتيت للعلم والمعرفة، وللبحث عن الأمراء أيضاً.

قال فيصل مبتسماً:

- أنا هنا لست أميراً، ولا أحد يعلم من أكون، نادني فيصل فقط، وتصرّف معي بشكل طبيعيّ.

قاطعهما إنريكو وهو يمدّ يديه إلى وائل معرفاً بنفسه، فعرّف وائل بنفسه أيضاً، واتجه الثلاثة لاحتساء القهوة في حديقة الكليّة.

***

لم يتردد وائل في دعوة فيصل كلّ ليلة للانخراط مع الطلبة غير العرب وتناوُلِ العشاء معهم، وهو ما كان فيصل يبحث عنه. كان الاثنان يسعيان إلى الاستفادة من تجربة الدّراسة في الخارج بقدر المستطاع، وخصوصاً في كليّة مثل إنسياد، وكانت فائدة أحدهم من هذا المزيج الهائل من الثقافات والخبرات، أهمّ من الموادّ التي يدرسونها في الكليّة.

وضع فيصل لنفسه هدفاً واحداً من هذه الرّحلة، وهو الاستفادة القصوى من الجوّ العام في الكليّة، أما وائل، فكان له هدفان، الأوّل هو التقرّب من فيصل، والثاني هو الاستفادة من الدورة. حاول أن يكون في مجموعة الطلبة نفسها التي كان بها فيصل، ولكن الكليّة لا تشجع أن يكون طالبان من الدّولة نفسها في مجموعة واحدة عندما يتعلّق الأمر بالتحضير للدروس.

في إحدى الليالي، خرج مجموعة من الطلبة لتناول العشاء في مطعم هنديّ صغير يقع في وسط قرية فونتون بلو التي يمكن لزائرها أن يعُدّ مطاعمها على أصابع يده. أخذ كلّ طالب مكانه على الطّاولة، وبدؤوا بطلب الطعام والشراب. وعندما أتى دور وائل قال للنادل:

- لا تحضر لي ولصديقي أيّ مشروب كحوليّ.

وعلى الرّغم من أنّه لا يدري، إن كان فيصل يشرب الكحول أم

لا، فإنّه افترض من هيأته وأسلوبه أنّه محافظ. سأله إنريكو باستنكار:

- لماذا؟

فرد:

- لأنّنا مسلمون!

ما زال إنريكو مستنكراً:

- اشرب قليلاً فقط لكي يسهل هضم الأكل.

تدخل فيصل وابتسامته تعلو وجهه:

- الموضوع يا إنريكو لا يتعلّق بكميّة الشراب، ولكن بنوعه. فنحن المسلمين لا نشرب الكحول، ولا نأكل لحم الخنزير لأنّ ذلك محرّم في ديننا.

- لماذا؟

سأل إنريكو مرّة ثانية.

هنا شعر وائل أنّ فيصل لن يستطيع أن يعطيَ إنريكو والحضور الذين فاق عددهم العشرة، إجابة شافية، وقد يحوّل الموضوع إلى قضيّة حلال وحرام فقط، كما يفعل معظم المسلمين الذين لا يستوعبون أنّ غيرهم لا يفقهون أو لا يهتمّون بقضيّة الحلال والحرام. فقرر أن

يتدخل بطريقة سلسلة دون أن يحرج أحداً:

- دعوني أخبركم بهذه القصّة: قبل الإسلام، كان هناك رجل عربي من قادة القبائل في الجزيرة العربيّة، وكان بيته مفتوحاً على مدار الساعة، يلجأ إليه عابرو السبيل والضّيوف، وكل من له حاجة في تلك المنطقة. كانت بعض البيوت في تلك الفترة عبارة عن خيام من الشّعر، ينصبها البدو كلّما وجدوا مكانًا به ماء وكلأ لأغنامهم وحيوانتهم، وكان طبخ الطعام يتمّ خارج الخيام، حيث تخصص أماكن خلف الخيام عادةً للقدور التي يطبخ فيها الطعام طوال اليوم. أمّا القهوة، فكان يتمّ إعدادها أمام الخيمة لكي يراها الضّيوف، ويعلموا أنّها طازجة، وتم إعدادها للتوّ، ولذلك، كان العرب قديماً يتفاخرون بأنّ النار لا تنطفىء تحت قدورهم.

كانت العرب تشرب الخمر، إلاّ أنّ هذا الزعيم كان يرفض ذلك، وفي إحدى الليالي، وبعد انتهاء العشاء، قال له أحد جلسائه: «لماذا لا تسكب الخَمرة كما تفعل الملوك؟»

سكت الجميع فجأة لأنّ السؤال كان محرجاً. أجال الزعيم نظره بين الحضور ثمّ نظر إلى سائله، وابتسم، وقال له: «لأنّ الخمرة تذهب العقل، ووالله، لو علمتُ أن الماء يُذهب العقل ما شربتُ قطرة قطّ».

عَلَت وجه فيصل ابتسامة عريضة، وظلّ محدقاً في وائل حتّى بعد أن انتهى من قصته، وصفّق له الحضور احتفاءً بطريقته المسرحيّة في السرد.

حقّا، لقد أغنت هذه القصّة عن كلّ الأعذار الأخرى التي كان يمكنه أن يأتيَ بها.. هذا ما فكّر فيه فيصل.

وقف إنريكو، ورفع كأساً به ماء أمام الحضور، وقال لهم:

- من أجل أصدقائنا المسلمين، وائل وفيصل، نتعهد ألاّ نشرب الخمر وهما معنا.

ضحك الجميع، وبعد أن شرب إنريكو ما كان في الكوب، التفت إليه أحد الجالسين، وقال له:

- هل أنت ثمل يا إنريكو؟

- أظنّ ذلك.

انفجر الجمع ضحكاً، وعادوا إلى أحاديثهم المتفرقة إلى أن أسدل الليل ستاره.

***

في أحد الأيّام، كان الدرس المقرّر على الطلبة هو «إدارة فرق العمل» الذي يُعَدُّ جزءا مهمّاً من برنامج القيادة، حيث يحرص القائمون عليه على أن يطبق الطلبة ما تعلموه داخل قاعة الدّراسة بشكل عمليّ، فصمّموا برنامجاً مكوّناً من أنشطة وألعاب رياضية في الغابة التي تقع فيها الكليّة، يتعلمون من خلالها فنّ العمل الجماعيّ، ويستفيدون من أخطائهم بشكل عمليّ ومباشر، حيث يحرص الأساتذة المشرفون على المجموعات على إخبار الطلبة بأخطائهم على الفور، ويربطون ما تعلموه في داخل الفصل بالتمارين الجماعيّة.

توزّع الطلبة إلى مجموعات، ورافق كلّ مجموعة أحد المدرّبين المختصين. طلب المدرّب من كلّ مجموعة أن يصطفّ أعضاؤها في صفين متقابلين، ثمّ أعطاهم عصا خفيفة جدّاً، وطلب منهم أن يضعوا سباباتهم فقط تحتها، ثمّ أمرهم بإنزال سباباتهم حتّى تلامس العصا الأرض ودون أن تُفارق أصابعهم. بدأت كلّ مجموعة بالمحاولة، ولكن، كلّما نزل الطلبة ارتفعت العصى عن أصابعهم. حاولت المجموعات، كلّ واحدة على حدة، عدّة مرات دون جدوى. وبعد عدّة محاولات، جمع المدرّبون طلبتهم وقالوا لهم:

- هل تعلمون لماذا لم تستطيعوا أن تنزلوا العصي إلى الأرض؟ لأنّ العصا مصنوعة من مادة خفيفة جدّاً، تظلّ مرتفعة في الهواء ما

لم يلمسها شيء من الأسفل، أيّ في هذه الحالة سبّاباتكم، وعليكم أن تحرصوا وأنتم تنزلون على ألا يفارق إصبع أحد منكم العصا، فكلّما قلّت عدد الأصباع من تحتها ارتفعت أكثر. فكّروا قليلاً وقرروا كيف ستفعلون ذلك.

عاد الطلبة إلى عملهم، إلاّ فيصل، وقف يفكّر قليلاً ثمّ لحق بمجموعته، وقال لهم:

- انتظروا، لن نستطيع أن ننزل العصا بهذه الطريقة، لديّ اقتراح: على أحدنا أن يقود العمليّة.

التفت الطلبة إلى بعضهم، ثمّ قالت إحداهنّ:

لتكن أنت القائد إذاً.

- حسنًا. افعلوا ما سأقول: ضعوا أصابعكم تحت العصى، ولا تحيلوا أنظاركم عنها. لا شأن لكم بمن يقف إلى جانبكم أو أمامكم، ركّزوا فقط على أصابعكم، ونفّذوا كلامي جيّداً.

سأعد حتّى العشرة، وبعد كلّ رقم أريدكم أن تنزلوا قليلاً ولكن مع بعض. لا تثنوا أذرعكم واجعلوها مستقيمة، انزلوا بأرجلكم فقط. ومرة أخرى، لا تحوّلوا أنظاركم عن أصابعكم.

فعل الطلبة ما قاله فيصل، وبدأ بالعدّ حتّى وصل إلى العشرة تحت مراقبة المدرّب الذي غالبَ ابتسامة شقت طريقها إلى وجهه

الأجعد القديم. نجحت مجموعة فيصل في إنزال العصا إلى الأرض، وكانت هي المجموعة الوحيدة التي فعلت ذلك.

بعد أن انتهى النشاط، جلس كلّ مدرّب مع طلبته ليحدثهم عن أخطائهم. وبعد أن انتهوا، وقف كبير المدرّبين على كرسيّ صغير ليراه جميع الطلبة، وقال:

- تعلّمتم في هذا التدريب أهمّية العمل الجماعيّ، صحيح؟

نظر إليه الجميع بصمت.. ثمّ تابع:

- خطأ، لم يكن الهدف إيجاد تناسق بين أعضاء فريق العمل، على الرّغم من أهمّية ذلك، ولكن كان الهدف أن تتعلموا أهمّ شيء يخصّ العمل الجماعيّ.. وهو أن تختاروا قائداً قبل أن تبدؤوا بالعمل. لم تنجح أيّ من المجموعات في إنزال العصا إلى الأرض، ما عدا مجموعة واحدة، لأنّها اختارت قائداً على الفور. إن وجود قائد في أيّ عمل هو حجر الأساس لنجاحه، فهو الذي يوجد التناسق، وهو كالصمغ الذي يلصق الأشياء ببعضها فتصبح قويّة. وعندما يغيب القائد الناجح، يغيب النظام، هذا أحد قوانين الحياة. كما أنّ الإنسان يحتاج إلى من يشجّعه، ويدفعه، ويحاسبه، ويثني عليه، ويلومه، يحتاج إلى ذلك وأكثر لكي يستمرّ في عمله وتستمر إنجازاته، والقائد وحده القادر على فعل ذلك.

يحتاج الناس إلى قائد ليشعروا بالطمأنينة والأمان، وعندما

ينجح القائد معهم مرّة، فإنّهم يندفعون خلفه كالنهر الجارف... هنا يَكمن الخطأ. الولاء مطلوب وضروريّ لنجاح أيّ مهمة، ولكن الولاء المطلق نوع من أنواع الغباء، فالقائد ليس إلهاً ولا يعلم كلّ شيء، وإحدى مُهمات فريق عمله أن ينبّهوه إذا ما أخطأ. إن الولاء الخالص للقائد لا يكمن عندما يُقال له: «أنت مبدع» ولكنّه يتجلّى ظاهراً عندما يقف له أحد أتباعه ويقول له أيضاً: «لقد أخطأت».. عندها فقط، يتأكد القائد من أنّه قد أحسن القيادة.

«القائد الحقيقيّ ليس الذي يجعل الناس يثقون به، ولكنّه الذي يجعلهم يثقون بأنفسهم» هكذا تقول الحكمة، فهو بذلك فقط، يصنع قادة ومتخصّصين حوله، ومهما بلغ علمه، فإنّه يبقى في حاجة إلى خبراء في كلّ مجال.

انظروا إلى أكثر الشّركات نجاحاً في العالم، أتعلمون ما سرّها؟ أن لديها قائداً يعرف كيف يجعل من حوله يستمرّون في الإبداع والعمل. يناضل الناس كثيراً لامتلاك سلطة مطلقة، ويُبرّرون كلّ أساليب القمع والدمار في سبيل حصول ذلك، بأن نواياهم صافية ويُريدون الخير للمكان والناس. وما إن يصلوا إلى هدفهم حتّى يُصابوا بكُساح عقليّ، وتثبط عزائمهم، ويتسلل إليهم حبّ الاستمتاع بالحياة وملذاتها، فيصبحونَ نُسخاً مكرّرة لمن كان قبلهم.

تسمّر فيصل ووائل وهما ينصتان باهتمام بالغ أكثر من غيرهم من الطلبة، فهما أكثر من يحتاج إلى سماع هذا الكلام لأنّهما يعيشان صراعات سياسيّة كلّ يوم. كان كلاهما يفكّر إن كان الملك الجديد

سيلهم الناس أم سيسترخي على كُرسيّ السّلطة.

هذا ما دار في خلدهما، دون أن يعلما أنّ غيمة الأفكار ذاتها تحلّق فوق رأسيهما.

***

كان وائل ينتظر إجازة نهاية الأسبوع بشغف، فلقد أنهى لتوّه قراءة رواية «شيفرة دافنشي» لدان براون، وأراد أن يُشاهد الفيلم في السينما. كانت الفرصة مواتية لحضور الفيلم في باريس، وزيارة متحف اللوفر الذي دارت فيه أهمّ أحداثه.

استعد للذهاب إلى باريس باستخدام القطار، وعندما وصل إلى المحطة، تفاجأ بفيصل واقفاً على الرّصيف في انتظار القطار:

- ماذا تفعل هنا يا سموّ الأمير؟

- قلت لك إنّني لستُ أميراً هنا، نادني فيصل.

ابتسم وكرّر السؤال بصيغة أخرى:

- حسناً، ماذا تفعل هنا يا فيصل؟

- ذاهب إلى باريس.

- ولماذا لم يرسلوا لك سيارة من السفارة؟

- أريد أن أعيش حياة الطلبة.

- وما ضرّك لو كنتَ أميراً وطالباً في الوقت نفسه؟

- أنت لن تفهم ما أعنيه فأنت طالب حقيقيّ.

استغرب من نبرته التي اختلط بها نوع من اليأس فجأة، فسأله، وهو ينظر إلى مكان آخر غير عينيه:

- ماذا تريد أن تقول؟

تحاشى الاثنان أن تلتقيَ أعينهما وهما يتحدثان، وكأنّه اتفاق غير مكتوب.. قال فيصل:

- أريد أن أعرف كيف يشعر الناس الذين يسكنون خارج القصور. أريد أن أشتري قهوتي من ذلك المحل الصّغير، وأعدّ النقود بحذر قبل أن أدفعها للبائع.. أريد أن أحمل حقيبتي على ظهري وأنا أنتظر القطار. أريد أن أقرأ اللوحات الإرشاديّة لتدلني على الرصيف الصحيح، أريد أن أبحث عن مواعيد وصول القطارات ومغادرتها، أريد أن أتيه بين الأرصفة، وأن تضيع حقائبي وتُسرَق نقودي، أريد أن أبكيَ لفقد شيء. آه كم أفتقد البكاء..! أنتَ لا تدري كيف يشعر الإنسان عندما لا يعرف كيف يفتقد الأشياء؟ لا تدري كيف يشعر عندما لا يحتاج إلى شيء؟ ليس لأنّه راضٍ بما عنده، ولكن لأنّه لم يعد هناك ما يسدّ حاجته! أصعب شعور على الإنسان ألا يُغريَه شيء في الحياة. هل تفهم ما أقول؟

- نعم، يفقد حينها القدرة على الانبهار.

كانت حبات المطر تتساقط على ظهر فيصل الذي لم تغطيه

مظلة الانتظار، وكان شعره قد بدأ يبتلّ وهو منطلق في حديثه مع وائل، وكان حاجباه يتقطّبان هنيهة ثمّ يعودان للانبساط مرّة أخرى. أما وائل، فقد غاب عن نظره كلّ شيء في المكان: صفير القطار، جلبة الركاب، صوت النداء الذي يعلن عن ساعات تحرك القطارات... كأنّ أحداً قد ضغط على زرّ الصمت في جهاز التحكم عن بعد، وبقيَ صوت فيصل فقط يدويّ في أذنيه، تارة كالرعد، وتارة كهزيز الريح.

عندما انتهى فيصل من كلامه، كان من المفترض أن يردّ عليه وائل بالإيجاب على الفور، كما جرت عادة الناس في الكلام مع الأمراء، إلاّ أنّه سأله:

- ولماذا تحتاج إلى كلّ ذلك وأنت الأمير، وأخ الملك؟ لماذا تريد أن تجرّب حياة الناس العاديّين؟ إنك تعيش في قصور لا تعرف عدد غرفها، وتملك من السّيارات ما لا تعرف أنواعها، ولديك من الأرصدة في المصارف ما لا تدري عنه. متى كانت آخر مرّة سمعت فيها صديقاً يناديك بشيء غير «سمو الأمير»؟ ومتى سمعت أحدهم يقول لك «لا»؟

لديك ما يبحث عنه كلّ شاب، وتبحث عمّا يمقته كلّ شاب.. لماذا؟

وصل القطار ، فركبه الاثنان، وأخذ كلّ منهما كرسيّاً مقابل الآخر، ثمّ قال فيصل:

- أنا أملك كلّ ما ذكرته، ولا أملكه. إن اللذة لا تكمن في ما

تملكه، ولكن في ما تشعر به. أنا لا أشعر بكلّ تلك القصور والسّيارات التي تحدثت عنها، ولا أعرف ماذا أفعل بكلّ تلك الأموال. عندما أفكّر في حياتي، أجد أنّني لا أستطيع أن أقود أكثر من سيارة واحدة في الوقت نفسه، ولا أستطيع أن آكل أكثر من لقمة واحدة في الوقت نفسه، ولا أستطيع أن أنام على أكثر من سرير في الوقت نفسه...

قاطعه وائل قائلاً:

- هل تعلم أنّ أطباء الفراعنة اخترعوا لهم دواءً يشربونه بعد الوجبات الدسمة لكي يتقيّؤوا ما أكلوه ثمّ يأكلوا مرّة ثانية، حتّى يستطيعوا أن يستمتعوا بالطعام طوال اليوم؟

ضحك الاثنان، ثمّ عاد فيصل ليكمل حديثه:

- أعتقد أنّك متزوج، فقد سمعتك تتحدث عن طفلتك أمام الطلبة قبل عدّة أيّام. قلْ لي، بماذا تشعر عندما تعود إلى منزلك؟

- عندما أدخل بيتي، أشعر أنّني لا أريد الخروج منه حتّى اليوم الثاني. وعندما تقع عيناي على ابنتي أشعر أن كلّ السعادة الموزعة على البشر في هذه الدّنيا قد اجتمعت فيها، وعندما أحملها بين ذراعيّ، أشعر أنّني أتّحد مع الكون كله، أستنشق كلّ الروائح العطرة فيه، وأستمد منها طاقة الرّبيع. وعندما أنظر إلى عينيّ زوجتي، أشعر بدفء الحبّ، وأنتقل للعيش في مكان آخر أجمل.. أندفع في ذلك العالم دون هموم أو مشكلات، ولا أجد عندها غير الحلول فقط...

عندما أوقف سيارتي أمام البيت، وأضع مُغيِّر السّرعة في موضع الوقوف، فإنني أضع جميع مشكلات العمل وهموم الحياة في الموضع نفسه، لأنّ بيتي هو ملاذي الأخير، ولا أريد لهذا الملاذ أن يتحوّل إلى ساحة حرب، أخسر فيها أغلى ما أملك.

قال فيصل:

- أما بالنّسبة إليّ، فإنني لا أعيش مع أسرتي، بل مع أصدقائي. لي بيت كبير لا يخلو من الأصدقاء ليلاً ونهاراً، يحتلون جميع الأماكن التي يسمح لهم بدخولها. وما إن أدخل البيت، حتّى يأتيني الخادم ليرى إن كنت أريد شيئاً أم لا. أغيّر ملابسي ثمّ أخرج للأصدقاء لأرى ماذا يفعلون. أشعر أحياناً أنّ هذا هو مصدر ألمي، فلا أجد من أشكو إليه، فأنا الأمير، ولا يجوز أن أتألم أمام الناس، حتّى وإن كانوا أصدقائي... أعود أحياناً ورأسي مثقل بالهموم، فلا أجد من أبثّه همّي. أوّلاً لأنّه لا يوجد بين الأصدقاء من يفهمني، وأولئك الذين يُبدون فَهْماً مبتوراً، فإنّ اهتمامهم يكون زائفاً... في هذه اللحظة فقط، أتمنّى أن أعيش حياة عاديّة كحياتك.

قال وائل وقد تجاوز الحاجز الاجتماعيّ الفاصل بينه وبين الأمير:

- عندما أشكو لزوجتي شيئاً مّا، فإن أوّل شيء تفعله هو أن تضع رأسي على صدرها، ثمّ تغرس أصابعها في شعري، وتنصت باهتمام بالغ وكأنّها طرف في المشكلة. تعطيني أحياناً حلولاً غريبة،

ينجح بعضها ويفشل بعضها الآخر، ولكنّني لا أشكو لها لكي أحصل على حلول، بل لأشعر بالراحة.. أتعرف ما الراحة؟ هي أن تعلم أنّ الطرف الذي تشكو إليه يحبّك، ويحنّ عليك، يفرح ويبكي معك، حتّى وإن لم يستطع مساعدتك.. تأتي إليّ زوجتي أحياناً بكوب من الشّاي به قليل من النعناع، وتقول لي إنّ النعناع يريح الأعصاب، هنا أشعر بأن جميع مشكلاتي قد حُلّت. وأن تحلّ مشكلاتك في رأسك أهمّ من أن تحلّها في الواقع.

- يا لحظّك بهذه الزوجة!

- فعلاً.. رحمها الله.

شعر فيصل وكأن قطاراً صدمه فجأة!

- اعذرني..

قاطعه وائل حتّى يوفر عليه مغبّة الإحراج:

- لا عليك. أحبّ أن أذكرها بين الفينة والأخرى، فهذا من حقها عليّ. لا تقلق، لستُ متألّما لفراقها الآن، وكما قال ثرفانتس: «الوقتُ يُنضِجُ كلّ شيء».

تسلل الصّمت إلى المكان، وانسابت الذكريات في رأس وائل، فتذكر زوجته التي رحلت قبل أعوام وهي تضع ابنتهما الوحيدة. رحلت بعد سنة تقريباً من زواجهما، ورغم حزنه على فراقها، فإنّه

يظنّ أحياناً أنّه لا يعرفها جيداً، لدرجة أنّه بدأ ينسى ملامح وجهها. أكثر ما كان يحزنه في الأمر هو مريم ذات الأربعة أعوام، فما ذنبها أن تُحرم من أمّها بهذه الطريقة. ولكن من يدري ما يخبئ القدر؟!.. هكذا فكّر. وربما تكون أمّه التي تعتني بمريم الآن، أفضل تربية لها من أمّها.. من يدري؟!

ظلّ الاثنان يحدقان في الحقول الملوّنة التي انتشرت أمامهما، ثمّ قرر فيصل أن يدير دفّة الحديث إلى موضوع آخر:

- ماذا ستفعل في باريس؟

- إذا سمعت عن رواية شيفرة دافينشي، فإن الفيلم يعرض الآن في السينما، وقد أثار ضجّة كبيرة، أفكّر في مشاهدته ثمّ زيارة بعض المتاحف.

- ما رأيك أن نذهب معاً؟

- لم لا.

- إذاً، ستسكن معي في الفندق

***

جلس فيصل مع وائل وإنريكو في حديقة الكليّة يشربون القهوة بعد الغداء، كان الطقس غائماً والهواء البارد يداعب شعور الحسناوات اللاّئي افترشن العشب في كلّ مكان، وعينا إنريكو تعيثان فساداً بين الفتيات في محاولة بائسة لاجتذاب أنظارهنّ. كان فيصل يقرأ في ورقة مّا، أمّا وائل فكان ينظر إلى شوق وهي تتحدث مع إحدى زميلاتها وهما تتناولان الغداء. لاحظت شوق اهتمامه بها منذ أوّل يوم، ولكنّها لم تبدِ أيّ اهتمام، طالما أنّه لم يفضِ لها بشيء، بل إنّه لم يتحدث إليها منذ أن أتيا إلى الكليّة، وكان يكتفي باستراق النّظر إليها خلال المحاضرات، وفي أوقات الطعام.. كان يعلم، أنّها تعلم أنّه مهتمّ بها.

التفت فيصل إلى إنريكو، وقال:

- كأنك تبحث عمّن تنام معها اللّيلة؟

- كيف عرفت؟

- أراك تنظر إلى الفتيات وترسل إليهنّ إشارات كالصمّ.

- إنني أبحث عن واحدة فقط لكي أقضي معها ما تبقى من أيّام في الكليّة.

- ولماذا واحدة فقط؟

- لأنّني لو ارتبطت بأكثر من واحدة فسيعرفن سريعاً أنّني ألهو معهنّ، وستشن ضدي حملة مقاطعة، وسأخسر فيها كلّ شيء. ألا ترى أن المكان صغير وجميع الفتيات يتحدثن مع بعضهنّ. أراهنك على أنّهن لا يتحدثن عن أيّ شيء يخصّ الدّراسة، بل يروين قصص الغرام التي مررن بها في اللّيلة الماضية.

كان يتحدث، وهو ينتقل بنظره من واحدة إلى أخرى، ولم يكن يحوّل نظره عن إحداهن حتّى يعلم جميع تفاصيل جسدها بدقة.

- ولكن إن كنّ كلهنّ يبحثن عن الجنس، فماذا يضرهنّ إن ارتبطتَ أنتَ بأكثر من واحدة؟

عقّب فيصل، فردّ إنريكو:

- المرأة يا صديقي تهوى التملّك، ولا تحب أن تشاركها أيّ امرأة أخرى الرّجل الذي ترتبط به، سواءً كان ذلك الارتباط عاطفيّا أو جنسيّا. حتّى المومس، تحبّ أن تشعر وأنت معها بأنّك ملكها هي فقط.

ضحك فيصل وقال له:

- وهل اخترت واحدة حتّى الآن؟

- بل قلْ هل اختارتني واحدة، فالفتيات هنا أكثر من الرّجال. أنا مستعدّ للقبول بأيّ واحدة بشرط ألاّ تطلب الحبّ، أريد الجنس فقط، الجنس يا صديقي. نحن الإيطاليون مهوسوون بالجنس، مثلكم أنتم العرب. الفرق بيننا وبينكم هو أننا نقولها بصراحة، ونكاد نعلّق لوحة

على صدورنا ونحن نمشي في الشوارع مكتوب عليها «نريد أن نمارس الجنس» أما أنتم، فإنكم تخافون قولها. لقد زرت بعض البلاد العربيّة، ووجدت العرب يعشقون ممارسة الجنس في كلّ وقت، ومع أيّ شريك، ولكن هناك إجراءات طويلة يجب أن تمرّوا بها قبل أن تحظوا بلحظة دفء، تماماً مثل الإجراءات الحكوميّة العقيمة.

ضحك الاثنان، واشترك معهما وائل الذي أغلق كتاباً كان يقرأ فيه، وبدأ ينصت باهتمام. قال فيصل:

- الجنس جزء من الحياة ولا أحد ينكره، ولكنّه لو تُرك دون ضوابط فسنعيش مثل الحيوانات. ولهذا جاءت الأديان والأعراف لتنظم العلاقة بين الذكر والأنثى.

- دع الأديان والأعراف لك يا صديقي، أما أنا فسأظلّ أمارس الجنس حتّى أبلغ السبعين، وأفقد القدرة الجنسية، عندها سأتوب، وأترهبن، وأطلب الصفح من الرّبّ، وربما أبحث عن دير بعيد، بشرط أن تكون فيه راهبة جميلة.

- أيّها اللعين. وماذا ستفعل إن تجاوزت السبعين وما زلت تحتفظ بقدرتك الجنسيّة؟

- أدعو الرّبّ أن يحدث ذلك، فربما أدخل موسوعة غينيس، ويزداد عدد معجباتي.

انفجر الجميع ضحكاً، ووجه فيصل لكمة إلى كتف إنريكو، ثمّ قال وائل:

- أعتقد أنّ الجنس الذي يخلو من حبّ كطعام من غير ملح، أو كأشجار من غير أوراق. إنّه عمليّة ناقصة، تخلو من جوهرها الحقيقيّ، فلا تكتمل ولا تبلغ ذروتها مهما تكررت ومهما كان الطرفان يتمتعان بمواصفات جماليّة عالية. الجنس أحد نتائج الحبّ، وليس العكس.

ردّ فيصل:

- ولكن ألا تعتقد أنّ الجنس أهمّ أجزاء الحبّ، وهو الغاية القصوى منه؟ أليس هو النار التي تحرق الحطب لتوجد الدفء؟

رد وائل وهو في حالة انسجام مع الهواء البارد:

- نعم، ليس هناك حبّ كامل دون جنس. تخيّل اثنان متزوّجان، ويعيشان تحت سقف واحد دون أن يمارسا الجنس وهما قادران على ذلك، كيف سيكون حالهما؟

ولكن، تخيّل أيضاً أنّ أحد هذين الحبيبينِ أصيب بمرض خبيث، وعرف أنّه مفارق للحياة، ثمّ بدأت حالته تسوء يوماً بعد آخر، كيف سيكون حال الحبّ هنا؟ ألن يتوهج وينمو مع كلّ يوم يمر عليهما؟ ألن يشعر كلّ واحد منهما بأنّه مستعدّ للتضحية بكلّ شيء لكي يبقى مع حبيبه؟ ماذا سيكون حال المعافى منهما؟ وماذا سيكون دور الجنس في خضم مشاعر الشّوق والحنين بين هذين المتحابين اللّذين يعرفان أنّهما سيفترقان فراقاً أبدياً قريباً؟ هل تظنّ أنّ الجنس سيحظى باهتمام في وقتهما الضيّق آنذاك؟

فيصل:

- ولكنّي أعتقد أن هذا الحبّ أشبه بالشفقة، وليس عشقاً.

إنريكو مقاطعاً:

- حقّاً، هذه شفقة وحزن وليست حباً. الحبّ هو الرّومانسيّة، الشّوق، الحنان، الرّغبة...

وائل:

- ما الفرق بين الشّفقة وبين الحبّ؟ أليست الشفقة إحدى مراتب الحب؟ ألا يشفق المحبوب على حبيبه وعلى نفسه إذا ما عزم أحدهما على السفر مثلاً؟ إن عاطفة الشفقة هي أحد أشكال الحبّ العميق، وهي إحدى هبات الحياة التي تنمو عند البعض، تبعاً لظروفهم، وتخبو عند بعضهم الآخر، تبعاً لظروفهم أيضاً.

فيصل:

- أنت تحاول أن تقول إنّك تبحث عن الحبّ وليس عن الجنس إذاً؟

وائل:

- قد يُمارس الأزواج الجنس من باب الواجب، أما الحبّ فإنّه لا يُتكلّف. بل إننا لا نستطيع حتّى أن نخطط له، وكلّ ما يمكننا فعله

هو أن ننصت لقلوبنا جيداً حتّى نسمع نداءه. ولكن دعوني أعترف، بأنّه عندما يكون الجنس رديئًا، فإنّه يؤثر في الحبّ ولا شكّ، لن يقتله بالطبع، ولكنّه قد يحيله إلى التقاعد أو يصيبه بالوهن.

إنريكو:

- تركنا الحبّ لك، وسنكتفي نحن بالجنس.

ضحكوا، ثمّ قام وائل، وجلس على كرسي وفتح كتابه مُدّعياً أنّه يقرأ. أومأ برأسه ثمّ رفع عينيه وظلّ محدّقاً بشوق التي تحمل ملامحها جينات أجداده الأولين، وتحمل أيضاً تعابيراً ونظرات لم يرها إلاّ في لوحات الرسّامين. يُقال إنّ الفنان يرسُم ما يتمنّى، ولكن هل سيكفّ الرسام عن الرسم إن وجد الوجه الذي يتمنّى؟ هذا ما دار في رأسه وهو يرى شوق تتلألأ تحت السّماء. لاحظ أنّها تسترق النّظر ناحيته بطرف عينيها دون أن تلتفت، ولم يدرِ لماذا تجنّب كلّ منهما الآخر منذ أتيا إلى هنا.

***

انزوى وائل للقراءة ذات مساء في أحد أركان مكتبة الكليّة التي اكتست جدرانها الخارجية بالزجاج، كأنّها قطعة بلور ناصعة الصفاء خرجت لتوّها من الفرن، وكان يستطيع الجالس بداخلها أن يطلّ على معظم أقسام الكليّة، وخصوصاً الحديقة التي يجتمع فيها الطلبة بين المحاضرات.

توشّح المكان بالهدوء، حتّى موظفو المكتبة كانوا يتحدثون همساً، وكان الصاعد على السلّم الخشبيّ إلى الطابق الأول، يحدث جلبة بصوت حذائه.

سمع وائل صوت خطوات ناعمة ترتقي السلّم، فعرف أنّها خطوات فتاة. ساورته أوهام بأنها قد تكون شوق، لكنه طردها سريعاً حتى لا يُحبَط إذا لم تكن هي، لكن بصيص أمل صغير في قلبه دعاه لرفع عينيه قليلاً.. لقد كانت شوق! ظلّ يلاحقها بنظراته، خلسة، وهي تغوص بين رفوف الكتب، فقرر أن يتبعها. نهض من مكانه ودار حول الكتب بعكس اتجاهها، وعندما وصل إلى الممرّ الذي كانت واقفة فيه، قام بتمثيل دور الباحث عن كتاب. شعرت بأن هناك من يقترب منها بخطوات بطيئة، ولكنّها استمرّت في بحثها. اقترب منها وقال:

- مساء الخير شوق.

قالها وكأنّه يعرفها منذ زمن.

لم تملك كبح جماح ابتسامة قفزت من فمها وكأنّها كانت تتهيأ لهذه اللحظة، فقالت:

- مساء النور وائل.

شجّعه نطقها لاسمه على التحدث بجرأة أكبر:

- أبحث عن كتاب ولم أجده. المكتبة كبيرة، فهلاّ ساعدتني في الحصول عليه؟

قالت، وهي تشيح بوجهها ناحية مكتب خدمة العملاء، لتخفيَ شبح ابتسامة ثانية، كاد يفضح أمرها:

- بالطبع، سأنادي أحد موظفي المكتبة!

أدرك أنّها تراوغ، فلقد لمح غمّازة تغوص في خدّها الأيمن كَرِمال متحركة، ولم تَفُته حركة أصابعها التي كانت تداعب أطراف أحد الكتب، ولحسن حظه لم يكن هناك أحد جالساً خلف مكتب المعلومات. عادت بوجهها إليه وهي تحرك يديها في دلالة على أنّها لا تعرف ماذا تفعل.

اقترح عليها أن تساعده في البحث عن الكتاب دون أن يكلّف نفسه سؤالها ما إذا كان لديها متّسع من الوقت أم لا، فالمرأة تحبّ

الرّجل اللحوح، هذا ما قاله في نفسه، وأعطاها اسم كتاب كان قد قرأه قبل عام. استمرّ بحثهما لعشر دقائق دون جدوى، وكلّما التقت عيناهما من خلف رفوف الكتب، ابتسما لبعضهما. شعر أنها لم تكن تبحث عن الكتاب بصدق، بل كانت تريد للوقت أن يطول لكي تزيد عدد المرات التي تلتقي فيها أعينهما، عندها، توقف وقال لها:

- لا أظنّ أنّ الكتاب موجود، سأبحث عنه غداً.. ما رأيك لو نخرج للعشاء اللّيلة؟

قالها همساً، لا لكي يحافظ على هدوء المكتبة فقط، ولكن حتّى لا يُحرَج لو تجاهلت طلبه، وستبدو أنّها لم تسمعه. إلاّ أنّها ردت دون أن تبدو عليها ملامح استغراب:

- لمَ لا؟

بقَدْرِ ما فوجئ بالإجابة، فإنّه لم يدّخر وقتاً للتفكير:

- ما رأيك أن نلتقي عند باب الكليّة في السابعة؟

أومأت برأسها، وقد اعتلتها حمرة الخجل. ابتسم ولكنّه لم يقل شيئًا حتّى لا يزيد من إحراجها، واتجه إلى خارج المكتبة. هرع إلى غرفته ليأخذ حمّاماً سريعاً ويغيّر ملابسه ويحلق لحيته، ثمّ توجه إلى بوابة الكليّة قبل الموعد بخمس دقائق.

- لقد حضرت باكراً، يبدو أنك جائع؟

لم ينتبه لكلامها في البداية، فقد سلب انتباهه ثوبها الأسود الذي تخللته حمرة داكنة، وإذ نظر إلى وجهها محاولاً إجابتها، سلبه ضياؤها الذي خلا من مساحيق تجميل، غير كحل بسيط، وأحمر شفاه داكن بلون الورود الحمراء الموزّعة في فستانها. بدَت وكأنّها قد خُلِقَت قبل قليل. كانت تلك أول مرّة يراها فيها دون نظارات، حيث استبدلتها بعدسات لاصقة لتتناسب مع أجواء الأمسية الصّغيرة.

ابتسم وقال:

- لا أحبّ أن أتأخر على موعد أبداً، وعندما أفعل ذلك فإنني أشعر بالخجل إلى درجة أنّني أتمنّى لو أنّ لي قوّة تعيد الزمن إلى الوراء.

- لو وُجدِت هذه القوة فسيفقد الوقت قيمته.

ابتسم ودعاها للمشي إلى المطعم. وكان من حسن حظهما أن المطعم في تلك اللّيلة لم يكن مزدحماً بطلبة الكليّة. جلسا وطلبا الطعام، ثمّ سأل بتردّد:

- تبدو عليك ملامح غربيّة؟

- لأنّ أمّي فرنسيّة.

- آها.. ولماذا تعيشين في عربستان بدل باريس؟

- قضيتُ طفولتي مع خالتي في باريس، فبعد أن تُوفيت أمي كانت هي من اعتنى بي، إلا أن أبي أصر عندما بلغت سن المراهقة أن أنتقل للعيش معه في عربستان. وبعد أن تُوفي، اتصلت بي خالتي ودعتني للعودة، ولكنني وجدتُ نفسي أكثر قرباً للثقافة العربية من الفرنسية.

- لكن الثقافة الفرنسية جميلة أيضاً.

- طبعاً، وأحبها جداً، إلا أنني لم أعد أشعر بأن فرنسا بلدي، كما أن أصدقائي وزملائي كلهم في عربستان، وعملي هناك، وأحلامي كلها هناك.

- وما هي أحلامك؟

- هل هذه مقابلة صحفية؟

ابتسم وقال:

- نعم هي كذلك، لنتبادل الأدوار؟

- كما تشاء، ولكن عليك أن تعلم أن الصحفي الماهر لا يسأل أسئلة مباشرة، حتى لا تأتيه إجابات مُعلّبة. وتجنب الأسئلة التي أجوبتها نعم أو لا.

هز وائل رأسه مُبدياً علامات اندهاش وابتسامة عريضة،

فأكملت شوق:

- كان أحد أحلامي أن يزول الطاغية، ولقد صار، وحُلمي الآن أن تصير عربستان دولة حضارية، تخلو من فساد، ويتحقق فيها العدل، وينال الناس حُرياتهم. أريد أن أرى شعبي مثقفاً واعياً، غير أحادي النظرة، يقبل الآخر رغم اختلافاته معه، ويحترم كل المعتقدات والآراء.

- لكنها أحلام كبيرة على فتاة في سنك.

- ولهذا أحتفظ بها لأن فتاة في سني لديها الوقت، ربما، لتحقيقها.

- وكيف ذلك؟

- أؤمن بأنني صحفية بالفطرة، فمذ أن كنتُ صغيرة، كنت أعكف على قراءة الصحف بتفاصيلها الشيقة والمملة كل يوم. كانت خالتي تُحب أن أقرأ لها الأخبار وهي تشرب قهوتها الصباحية. وعندما عملتُ في الصحافة، اكتشفتُ أنها قادرة فعلاً على صناعة الرأي العام، وتوجيهه لغاياته العُظمى.

- ولكنها قد تخدعه وتغشه أيضاً.

- بالضبط، ولذلك فإنني أؤمن أن علينا أن نُحارب فساد نفوسنا أولاً قبل أن نُحاربه في الحكومة، وقد يُقال بأنه لا توجد صحافة

نزيهة، ولكنني أختلف مع ذلك الرأي، فالعالم مليء بالشرفاء، إلا أن الفاسدين أطلقوا تلك الشعارات الزائفة ليُقنعونا بأنهم ليسوا أسوأ الناس.

- وإلى أين سينتهي بك المطاف؟

- لا أدري، ولكنني في سعي دائم للحقيقة.

- لكن لا توجد حقيقة مُطْلَقة.

- ولا يوجد وَهْمٌ مُطْلَق.

- إذاً الحقيقة ما نعتقده نحن صواباً.

- بل هي القدرة على الشك فيما نعتقده صواباً، فالشك يقود إلى اليقين، أليس هذا ما يعتقده ديكارت؟

- يبدو أنك فكرت في هذا الموضوع أكثر مني.

- ويبدو أنك قد صرتَ صحفياً بارعاً أكثر مني.

ضحكا، ثم أراد وائل تغيير دفة الموضوع، فقال:

- وهل تزورين باريس؟

- عدة مرات في العام لزيارة خالتي، وبعض أصدقاء الطفولة.

أزاحت أجوبتها المباشرة الجدار الفاصل بين أفكاره وبين لسانه، فقال مبدياً اهتماماً بالتعرّف على الثقافة الفرنسيّة عن كثب:

- ألاحظ أن الفرنسيّين عندما يقدّمون الأكل، فإنّهم يضعون كمية قليلة في وسط صحن كبير، بعكس الشعوب الشرقيّة التي تحب أن تملأ الأطباق عندما تقدم الطعام للضيوف، دلالة على الكرم.

كانت شوق تضم كفيها، وتشبك أصابعها وهي تتحدث معه، ثمّ لا تلبث أن تفصل بين أصابعها عندما تبتسم أو تقول شيئًا يضحكه. قالت وأصابعها مشبّكة:

- يعتقد الفرنسيّون أن الأكل هو إحدى ملذات الحياة التي نستمتع بها مثل الأشياء العديدة الأخرى، ولكن عندما يأكل الإنسان، فإن أوّل أربع أو خمس لقمات يأكلهنّ يكنّ مليئات بالمتعة، أمّا ما يلي ذلك فهو شبيه بملء خزان السّيّارة بالوقود، لا طعم له ولا قيمة ذوقية.

والفرنسيّون شعب يحبّ المتعة كثيراً، ويعيش كلّ لحظة بتفاصيلها، ولذلك، فإنهم يتوقفون عند اللقمات الخمس عندما تنتهي المتعة، كما أنّهم يحبّون أن يحافظوا على رشاقتهم.

لم يعلّق على هذه النقطة، فتلك لم تكن الغاية، ولو فعل لشعرت بأنّه يتغزّل بجسدها الذي يبدو على شكل ساعة رملية، وعلى الرّغم من أنّه لم يفته الانبهار بهذا الجسد السماويّ، فإنّه أراد أن يفتح باب الحوار على مصراعيه حتّى يطيل الوقت، وينسى معها، وينسيها،

أنّهما لم يلتقيا حقاً إلاّ الآن. لقد كان كلّ منهما يشعر بأنّه يعرف الآخر منذ زمن، وكأنّهما خُلِقا من التربة نفسها.

سألت وأصابعها مشبّكة:

- يبدو أن حديثكم كان شيقاً أثناء استراحة الغداء قبل يومين؟

تأكد أنّها كانت مشدودة إلى وجوده ذلك اليوم، مثلما كان هو مشدوداً لوجودها الذي أطلق حينها عبيراً دافئاً في المكان. شجّعه السؤال على التحدث بصراحة وجرأة:

- كنا نتحدث عن تعريف الحبّ، وكنا نتناقش حول الفرق بينه وبين الجنس.

- ثلاثة رجال يتحدثون عن الحبّ والجنس، أراهن بأن حديث الجنس قد طغى على حديث الحبّ.

ابتسما، واحمرّت وجنتا شوق التي شعرت بأنّها قد اندفعت في حديثها قليلاً، فاعتذرت له، ولكنّه كَنَسَ اعتذارها بيده في إشارة إلى أنّه غير آبه به. فقالت، بعد أن اطمأنّت إلى أنّه لا يزال مهتمّاً بها، وخصوصاً بعد أن قرأت ذلك في عينيه اللتين كانتا لا تزوغان عنها للحظة:

- وإلامَ توصّلتم؟

قالتها وقد غاصت عيناها في عينيه. شعرت أنّها موجودة بداخله، وذكّرتها عيناه بحديقة بيت خالتها الريفيّ المليء بأزهار عبّاد الشمس السخيّة. أما هو، فقد رأى في عينيها واحة نخيل ترتع فيها خيول عربية، تتسابق فيها وكأنّها فضاء لا نهاية له. شعر بأن الكون يتمدد فعلاً في تلك الواحة التي تنضح بصوت نايٍ قديم، نُقِشت على قصبته قصة حبّ سرمديّ.

«حقّاً إن العيون بوابات القلوب».. كرّرها في نفسه ثمّ قال:

- لم نتوصل إلى شيء، فلم يكن الهدف هو أن يقتنع أحدنا برأي الآخر، فلقد كان كلّ واحد منا يذكر وجهة نظره.. كنا نتساءل إن كان الجنس يأتي قبل الحبّ أم بعده.

ثم تشجّع قليلاً وقال:

- ما رأيك أنتِ؟

ساعدها تردده على أن تفهم أنّه يريد أن يكون على سجّيته، ولكنّه يخشى أن يحرجها، فأدركت أنّه يمكنها الآن أن تتحدث بحرّيّة تامة:

- هناك جنس دون حب، ولكن لا يوجد حبّ دون جنس. ومن وجهة نظري كامرأة، فإن الجنس هو آخر شيء يمكن لإحدانا أن تفكّر فيه، بعكس الرّجل. فلو مرت امرأة أمامه، فإنّه لن يستطيع إخفاء اهتمامه بقوامها، وقد يظلّ محدقاً في تفاصيل جسدها حتّى تغيب

عن ناظره، ولذلك فإن المظهر هو أوّل شيء يجذب الرّجل. أما المرأة، فإنّها لا تهتم كثيراً بجسم الرّجل وقوامه، رغم أهمّية ذلك، إلاّ أنّها قد تُعجَب بابتسامته أو بنظراته قبل أيّ شيء آخر، ويمكن للمرأة أن تشعر بدفء قلب الرّجل من عينيه.

- ولكن لماذا تهتم النّساء، والفرنسيّات خصوصاً، بأناقتهن وزينتهن؟

فهمت أنّه أراد بذلك أن يُثني على أناقتها، دون أن يقولها مباشرة، هذا ما دار في نفسها، فقالت:

- قلت لك، لأنّ الرّجل ينظر إلى المظهر قبل أيّ شيء آخر؟

- إذاً تريد المرأة أن تجذب الرّجل بأيّ طريقة؟

- ربّما، ولكنّها ستكون تعيسة لو كان شكلها فقط هو ما يُعجب الرّجل بها.. أعني بعد أن يتعرف عليها عن قرب.

- ولكن، ألا يجب أن يتوافق مظهر المرأة مع جوهرها؟ هناك من النّساء من يتمتعن بثقافة واسعة، ويتحدثن لغة راقية تشنّف مسامع الرّجال، ولكن أشكالهنّ المتواضعة تمحق ذلك كلّه.

- «يَمْحَقُ الله الربا ويُربي الصدقات».

أُعجب بجوابها الفلسفيّ، فأراد أن يُجاريَ ذكاءها ومدحها

لنفسها بطريقة غير مباشرة، فذكر لها بيتين من الشّعر لأبي تمّام:

تاهَت عَلى صورَةِ الأَشيـــاءِ صورَتــُه

حتــّى إِذا كَمَلَت تاهَت عَلى التّــيهِ

ما استُجمِعَت فِرَقُ الحُسنِ الَّتي افتَرَقَت

عَن يوسُفِ الحُسنِ حتّى اِستُجمِعَت فيهِ

ضحكت فصمت الكون برهة للاستمتاع بضحكتها. شعر أنه يستمع إلى صوت قانونٍ شرقيّ عذب، يعزف لحناً جميلاً. كانت تحفظ كثيرًا من الشّعر، مثل وائل، وهي إذ وجدت فيه متذوّقاً لهذا الفنّ، فإنّها قررت أن تجاريه. ردت عليه ببيتين للشاعر الشريف الرضيّ:

لا تَجــعَلَنَّ دَليــلَ المَرءِ صورَتــَهُ

كَمْ مخبَرٍ سَمجٍ عَن مَنـظَرٍ حَسَـــنِ

إِنَّ الصَّحائِفَ لا يَقريكَ باطِنُها

نَفس الطَّوابِعِ مَوسومًـا عَلى الطّــينِ

تعلم أن وائل ما أراد بذيّنك البيتين إلاّ وصفها، أما بيتاها فقد كانا إشارة له للبقاء في صلب الحوار، والابتعاد عن الغزل.

«يتمنعن وهنّ الراغبات».. هكذا فكّر.. قال بجرأة تفاجأت منها

شوق:

إذا ما رَأَتْ عينـــايَ لابسَ حُمْرَةٍ   تقطّع قلبي حَسْرة وتَفَطَّرا

غَدا لِدِماء النّاس باللّحظِ سافكا   وضُرّجَ مِنها ثَوْبُهُ فَتَعَصْفَرا

شعرت ببرودة عصفت بأطرافها بعد أن انتهى من نطق آخر كلمة في البيت. كان إلقاؤه للشعر جذّاباً بحجم الأبيات نفسها. صمتت بعد أن ارتشفت قليلاً من ماء.. دفع قيمة العشاء بسرعة حتى يُزيل عنها الخجل الذي اعتراها، ثم ابتسم ودعاها لأخذ جولة في القرية التي أطبق عليها الليل لثامه.

- هل تذهبين إلى الصّحراء يا شوق؟

كان نُطقه لاسمها يبعث في نفسها الطمأنينة...

- نعم، كنت أذهب إليها مع عمّي عندما كنتُ صغيرة. كان يحبّ الصّحراء كثيرًا، وكان يقول إنّه لا توجد حياة في المدينة، وما الناس إلاّ أشباح يتحركون فيها. لكنّني أحبّ المدينة وأحبّ الصّحراء في آن واحد، هل تظنّ أنّ قلبي مشتت يا وائل؟

تشكّلت موجة دخان أطلقتها أنفاسه التي أخذت بالتسارع عندما تلفّظت بكلمة «قلبي» وأتبعتها غير بعيد باسمه.

تلاقت يداهما وهما يمشيان في أزقّة المدينة المظلمة، وكانت

أضواء الأزقة الخافتة كفيلة بإحالة تلامسهما الخاطف إلى حالة من السّكْرِ المُلحّ الذي يأتي على عجل دون مَسّ الخمر.

كان التلاقي العفويّ الذي تدفعهما له أرضيّة الأزقة المهترئة، كفيلاً ببعثرة الكلمات التي يحاول كلّ منهما التلفظ بها حتّى يزيح عن نفسه غُمّة الإحراج. ورغم برودة الشتّاء، فإنّهما فضّلا أن يبقيا أيديهما مكشوفة خارج جيوبهما، علّهما يحظيان بفرصة أخرى للتلاقي الأزليّ الذي كُتِب على الجدران العتيقة، حين ضمّتهما في جوفها المقدّس.

الشتّاء يزيد الحبّ دفئاً، ويُحيل الماء خمراً، مثلما يفعل القديسون.. هكذا فكّر عندما حاول أن يجيب عن سؤالها، إلاّ أنّه أدرك أنّها لم تنتظر منه جواباً، وفضّل أن يستمع إلى صوت أنفاسها، ووقْع خطواتها على الأحجار القديمة. كان كلّ نَفَس يفرسها في داخله أكثر، حتّى انتظمت خطواتها مع ضربات قلبيهما، وكأنّهما قد صارا شيئاً واحداً.

تفاجأ الاثنان بباب الكليّة يقف شامخاً أمامهما كالطود العظيم. كان ذلك إعلاناً صارخاً بانتهاء الأمسية التي تمنيا ألا تُصرف حتّى الفجر.

تقابلا وقد غرز كلّ منهما يديه في جيب معطفه لاتقاء البرد القارس. أحسّا أنّهما يريدان أن يعانقا بعضهما بشدة، إلاّ أنّ كلاًّ منهما آثر الاحتفاظ بمشاعره لنفسه. ظلاّ محدّقيْن في عينيّ بعضهما،

ودخان المشاعر المختلط ببرد الشتّاء يتكثّف أمامهما. لم تكن هنالك حاجة إلى قول أيّ شيء، فالعيون تنوب عن كلّ الرُّسُل.

قاطع وائل هذا الهِيام السرمديّ:

- أنا مغادر غداً، وكنت أتمنّى لو أمضينا هذه الأمسية قبل اليوم. هل سأراك مرّة أخرى؟

- لا أدري.. هل تريد ذلك؟

أمسك بيديها، قرّبهما من فمه، وأخذ ينفخ فيهما هواءً دافئاً. لاحظ أنّهما تتزينان بالحنّاء. كانت ترتعش من شدة البرد، أو ربّما من شدة الخجل.. لم تعد تعرفُ أيّ شيء، وكل ما كانت تعرفه هي أنّها لا تعرف شيئاً.

أمسك بكفيّها ووضعهما على وجنتيه وقال:

- بين كفّيكِ تسكُن الأمنيات.. وأنا.

انفرجت شفتاها عن ابتسامة فتكثّف الدخان أمامهما أكثر.. سألته:

- هل ستكتب لي؟

لم يُشح عينيه عنها، وقال لها بنبرة تشبه القَسَم:

- بل سأكتب من أجلك.

شَعَرت بأن قلبها قد انزلق إلى كفها وأخذ ينبض كقلب أرنب أنهكه العَدْوُ في الثلوج.. قبّل ظهر كفّيها، ثمّ قلبهما، وقبّل راحتيها. عاد إلى الوراء وقبل أن يُفلت يديها، ضغطت بأطراف أصابعها على أصابعه، ثمّ أفلتتها ببطء.

كان ذلك إذنٌ للقلوب بالبقاء، واستئذان للأبدانِ بالرّحيل.. دخل غرفته، أمسك بقلمه وفتح دفتره وكتب: «ما أجمل أن يتوغّل الإنسان في البدايات!»

***

في عموده البارز في الصّفحة الأخيرة، تحدث وائل عن أهمّية تطوير اقتصاد المملكة، بدءاً بالعاصمة ثمّ انتقالاً إلى المناطق الأخرى. واقترح حزمة مشاريع اقتصاديّة وسياحيّة، وكان إحداها، وربما أهمها عند خالد الذي أعاد قراءة المقال عدّة مرات، ودوّن بعض الملاحظات، هو مشروع توسعة القناة. فقد كانت القناة ضحلة جدّاً إلى درجة أنّ المراكب التّجاريّة لا تكاد تصل إلى منتصفها إلاّ في أوقات المدّ. أمّا أوقات الجزر فكان عليها أن تنتظر في البحر. وكان رصيف البضائع قديماً. ومما اقترحه وائل في المقال، أن يتمّ توسعة القناة وتعميقها ليسهل دخول المراكب إليها في أيّ وقت من اليوم، تماماً مثلما فعلت مدن أخرى مثل دبي وسنغافورة، إلاّ أنّ ما يميّز قناة عربستان أنّ غالبية الأماكن الحيويّة في المدينة تقع على طرفيها.

أُعجِب خالد بالفكرة كثيراً، وأراد أن يقترحها على الملك، إلاّ أنّه لم يكن يعرف كيف يتحدث في الأمور التّجاريّة؛ فكل ما يعرفه في الحياة هو العسكرية. ظلّ يفكر في الموضوع لعدة أيّام ثمّ قرّر أن يتصل بوائل ويستشيره. اقترح عليه وائل أن يلتقيا على العشاء ليتباحثا في الموضوع أكثر.

كانت تلك أول مرّة يتصل فيها مسؤول حكوميّ بوائل ويعرض تبني أفكاره. فالعادة أن يتصل به المعجبون من القراء، أمّا الحكومة

فإنّها كانت بعيدة جدّاً عن الكُتّاب والمثقفين.. كانت تلك الفكرة مصدر سعادة له، وشعر بأن مملكته بدأت تتغير حقاً. إلاّ أنّه تساءل بينه وبين نفسه عن منصب خالد!

على العشاء، تحدث الاثنان عن أوضاع المملكة، وعن أبناء الملك (أحمد وسيف وسلمان) وعن أخيه فيصل. كان وائل متحمّساً جدّاً لفيصل الذي اقترب منه خلال دراستهما في فرنسا، وحين لمس خالد ذلك الحماس آثر ألا يُطْلِعه على حماسه لأحمد، الابن الأكبر للملك. وعندما وصلا إلى فكرة توسعة القناة، قال خالد:

- الفكرة جميلة جدّاً، ولكنّني لا أدري كيف أقدمها للملك!

- ولماذا تريد تقديمها للملك؟

- حتّى يُطبّقها.

- وهل تعلم إن كانت فكرة مربحة أم لا؟

لاحظ وائل أن علامات الإحراج تبدّت على وجه خالد، فاستدرك:

- عليك أولاً أن تدرس الفكرة دراسة ماليّة، وتقدم دراسة استراتيجيّة للمشروع وتأثيراته على اقتصاد المملكة.

- ولكن كيف؟

- اطلب من أحد موظفيك أن يقوم بذلك؟

- موظفيّ! ليس لديّ موظفين!

- بالمناسبة، لم تُخبِرني عن منصبك؟

مثّل خالد أنّه منهمك بالأكل، فقال باستهتار:

- لا أعرف ما هو منصبي، إلاّ أنّني أعرف أنّني مع الملك.

سكت وائل قليلاً، ثمّ قال:

- لا عليك، سنصل إلى ذلك قريباً. دعنا الآن نركز على المشروع. أتعرف ما عليك فعله؟ اتّصل بإحدى الشّركات الاستشارية العالميّة، واعرض عليهم المشروع، واطلب منهم أن يدرسوه بالتفصيل ويقدموا لك تقريراً حول فوائده الماليّة للمملكة. وبعد ذلك، اطلب منهم أن يُلخصوه في خمس أو ست صفحات، ويشرحوه لك جيداً حتى تستوعبه كما لو أنك من كَتَبْته. ثم اعرضه على الملك بلغة بسيطة، واحرص على أن تحمل معك الملف الكبير الذي به كلّ التفاصيل، وقُل له إنّ الأوراق التي تعرضها عليه ما هي إلاّ الملخص، وأرِه الملف الكامل ليعلم أنّك قمتَ بجهد كبير في إعداد الدّراسة.

بعد عدة أشهر، كانت الدّراسة جاهزة، وحرص خالد على قراءتها عشرات المرات حتّى كاد يحفظها. وفي أحد الصّباحات، دخل على الملك، وهو يحتسي قهوته، وعرض عليه المشروع. أصيب الملك بالذهول لسببين، الأوّل لأنّه لم يكن يعتقد أن خالداً يمكنه أن يفكّر بهذه الطريقة. والثاني لأنّ المشروع كان مدروساً بطريقة ممتازة.

أخبره خالد أنّه استعان بإحدى الشّركات الاستشاريّة، ما زاد من إعجاب الملك به، ولكنّه أطرق يفكر ثمّ قال:

- ومن أين سنأتي بالمال لتمويل المشروع؟

حاول خالد أن يقول له «من مال الأسرة المالكة» إلاّ أنّه تردد كثيراً. فرغم الثروة الهائلة التي يملكها الملك وأفراد أسرته، إلاّ أنّهم لا يستخدمون أموالهم في المشاريع الحكوميّة. فكر قليلاً ثمّ قال:

- أعرف من يُمكنه أن يدخل معنا شريكاً.

- من؟

- حكومة شرقستان.

تبدّلت ملامح الملك، وضرب بكوب القهوة على الطّاولة حتّى انسكبت قطرات منه على الأرض وقال بصوت عالٍ:

- هل جُننت؟ تريدني أن أتشارك مع هؤلاء.

حافظ خالد على رباطة جأشه، وتذكر عندما كانا في معسكر الثورة ويعرض على بزاز رأياً لا يعجبه، فإن كل ما كان يفعله هو أن يصر على رأيه ولكن بهدوء، ثم يخوض معه في التفاصيل ويدفع ويستمر في دفعه حتى يقتنع. لم يكن بزاز عنيداً بقدر ما كان سريع الانفعال. قال خالد:

- إنّهم جيراننا الأزليّون، ولن نستطيع التّخلّص منهم يا سيّدي.

وكما يقول ميكيافيلي «إما أن تُعانق الرّجال، وإمّا أنْ تقتلهم. فالجروح، وإن كانت غائرة، فإنّها ستجعلهم أكثر شراسة للانتقام منك.»

ارتفع حاجبي الملك. حمل كوب قهوته وقال قبل أن يرتشف منه قليلاً:

- وصرتَ تقرأ ميكيافيلي؟!

أدرك خالد أنّ هذا الاقتباس الذي حفظه قبل أيّام، قد أفاده جدّاً. فقد أعطاه وائل قائمة بالكتب التي عليه قراءتها، وبدأ بالأمير. رأى على ملامح الملك نوعاً من القبول الأولي للفكرة، فتشجع وقال:

- دعني أجلس مع سفيرهم وأبحث الأمر معه؟

استمر الملك في شرب القهوة ببطئ وهو ينظر إلى لوحة معلّقة على الجدار، وعندما انتهى قال:

- بشرط. لا أريد لأحد أن يعرف بهذا الاجتماع. وقُل له ذلك.

بعد أسابيع، عاد خالد إلى الملك يزف الأخبار:

- وافقت حكومة شرقستان على تمويل المشروع، ولكن لديهم شرط واحد.

- ويضعون الشروط أيضاً!

- ليس شرطاً صعباً يا سيّدي. يريدوننا أن نوقع معهم اتفاقيّة

نمنحهم فيها صلاحية تأسيس بنك يسمونه «بنك شرقستان الجديد» ويكون لهم الحقّ في فتح أفرع له في المملكة، على ألا تفتح حكومة عربستان أيّ بنك آخر لعشرة أعوام، وأن تكون جميع ودائع الحكومة وحسابات مؤسساتها موجودة في ذلك البنك طوال تلك المدة، ولا تفتح لها حسابات في بنوك خارجيّة.

نهض الملك من كرسيه، واتجه ناحية النافذة. ظلّ محدّقاً في القناة.. تخيّلها وقد حُفِرَت ووُسِّعَت، وتراءت له المراكب التّجاريّة وهي تمخر عبابها، والناس مزدحمون على أرصفتها لتنزيل البضائع وتحميلها. ظلّ يتخيّل شكل المدينة الجديدة، والثروة الهائلة التي قد تؤول عليها، وعندما اكتملت الصورة أمامه، قال لخالد دون أن يتكبد عناء النّظر إليه: «دعهم يبدؤون الحَفر».

***

اتّصل خالد بوائل ليخبره بقرار الملك، إلاّ أنّه فضّل ألاّ يخبره بموضوع القرض لعلمه بكره معظم المثقفي، لحكومة شرقستان التي كانت تفرض وصايتها قديماً على عربستان، ولذلك، فإنّها تنظر إلى نفسها على أنّها شرطيّ المنطقة، وعلى باقي الدول أن ينصتوا لها وينفذوا ما تقول. كما أنّ وائل لم يفتأ يهاجمهم كلّما سنحت له الفرصة.

- مبارك يا خالد.. لقد أجدت الصُّنْع. هذا بالضبط ما تحتاجه المملكة، دماء جديدة وحماس وتنمية.

- لقد طلب منّي الملك أن أوقع اتفاقية تمويل المشروع، ولكنّه لم يقل لي بأيّ منصب أوقّع؟

- وهل تنتظر من الملك أن يفكّر في هذه الأشياء التافهة!

- ولكنّها ليست تافهة، وأنت تعلم ذلك جيداً.

- بل تافهة بالنسبة إليه، أمّا نحن فإنّنا نضخّم الأمور كثيراً. إنّ الملوك يا خالد لا يشغلون أنفسهم بكلّ صغيرة وكبيرة، ولو فعلوا ذلك، لما عاشوا يوماً واحداً هنيئاً. إنهم لا يعرفون أسماء الناس أو صفاتهم، ولكنّهم يعرفون فوائدهم. عليك أن تتعلم كيف تضع الملك أمام الأمر

الواقع.

- وما فائدتي؟

- بالضبط. ما فائدتك؟ هيّا قلْ لي؟

- أستطيع أن أقود الجيش!

- وما فائدة الجيش الآن؟ هل تظن بأن الملك يهتم به بقدر ما يهتم باقتصاد المملكة؟

- لا أعرف شيئاً غير ذلك.

- إذاً حتّى الملك لن يعرف.. أنتَ مَن يُحدّد مكانه ومنصبه وفائدته.

- اللعنة عليك.. ماذا تريدني أن أفعل!

- أقِم حفلاً كبيراً للتّوقيع، ووقع باسم «مدير ديوان الملك».

- وماذا لو غضب؟

ضحك وائل وقال:

- يمكنك حينها أن تعتذر.

***

مرّ على لقاء وائل وشوق في إنسياد أشهراً طويلة، ورغم اشتياقه إليها، فإنّه كان متردداً بالاتصال بها، حيث بدا أنّها تريد أن تبقى بعيدة. لم يفهم السّبب، ولم يدرِ إن كان تفكيره هذا منطقيّاً أم لا، ولكنّه لم يفهم لماذا لم تتصل به، ولم ترسل إليه حتى رسالة بالبريد الإلكترونيّ!

كان أحد زملائه في الصّحيفة يلحّ عليه لكتابة زاوية أدبيّة إلى جانب عموده في الصّفحة الأخيرة. وكان يقول له إنّ الأدب وحده ما سيبقى، وكل الحروف الأخرى زائلة. وبينما هو يفكّر في الاقتراح، مرّ زميله من أمام المكتب، فأشار إليه من خلف الزجاج بالدخول.

- أفكّر في اقتراحك حول الزاوية الأدبيّة.

- هل اقتنعت أم تريدني أن ألحّ أكثر.

- أظنّ أنّني اقتنعت، ولكن اسمع فكرتي: أريد أن أنشر رسالة عاطفيّة كلّ أسبوع، وأوجهها إلى مجهولة، وبذلك أكون قد أثرتُ الشكوك حول هويّتها، فيتحدث الناس عنها، ويتساءلون من تكون. وفي الوقت نفسه، سأستطيع أن أكتب بأريحية دون أن يُلقبوني بـ«مجنون ليلى».. فما رأيك؟

رد زميله:

- فكرة جميلة، ولكن ماذا تريد تسمية الزاوية؟

- لا أدري.. ولكنّي أفكّر أن أنشر الرّسائل كلّ خميس حتّى يتسنى للناس قراءتها ليلة الإجازة الأسبوعيّة.

- سمّها إذاً «رسائل الخميس».

- فكرة جميلة.. على أن تتولى أنت مراجعتها ووضعها في المكان المناسب.

- اتفقنا.

رسائل الخميس

«الحنّاء في يديكِ مخطوط قديم.. تسنّى لي انتشاله مِن تحت غبار السّنين التي قضيتها قبلك.. في تلك السّنين، لم أكن أعرف ما الكتابة، لأنّني لم أكن أعرف ما الحبّ. فالكتابة دون حبّ كتابة باهتة، يزول لونها قبل الانتهاء منها، ويذبل ورقها مثلما يذبل قلب كاتبها، فيعيش على هامش الحياة.

في يديكِ، تستوي الخطوط وتتساوى، ليس لأنّهما ناعمتان فقط، ولكن لأنّهما عذبتان وعادلتان، لا تقتصّان ممن أساء إليهما، بل تمسحان على قلبه، لتنزعا منه الحزن والأسى. يداكِ تزيّنانِ الحنّاء ولا تتزينان به، وكلّما انتابِ الحياة عرس، أناخت ركاب الفرح على راحتيك المخضبتين بحبر الأُمنيات.

الحنّاء في يديكِ، يا سيّدتي، لوحةٌ تكتظّ بألوان الطيف السبعة، لتزداد لوناً جديداً هو لون عينيك الذي يتسرّب بين أصابعك كلّما أشرق يومٌ جديد. في تلك اللوحة، يتسمّر الناظر إليها، لا إعجاباً بها، ولكن تعجباً منها، ورغبة في ملامستها.. وهو ما لا يُسمحُ به في المتاحف العريقة.

يغويني الحنّاء للاقتراب منكِ، والبوح إليكِ بما أردتُ أن أقول.

كنتُ أقول لنفسي ما أستحي أن أقوله لسواها، ولأنّك صرتِ نفسي، فقد عزمتُ على البوح الآن. يداكِ، يا سيّدتي، نهرانِ من حبّ ونور، يُسكَبانِ ولا يجريان، وإذا ما التقيا تكوّنت بُحيرة غزَلٍ وإيمان، تحفُّها أضلعك، وترعاها النجوم التي تدور في فضاء عينيكِ.

ينهمر الحبّ منكِ، كما تنهمر البركاتُ مِن السّماء، فيُمنحُ للفقير والغنيّ على حدّ سواء، فكلاهما فقيرٌ إلى حُسنِك، وكلاهما يأملان منكِ ما لا يأملان من غيركِ. لم أحبّ الحنّاء قبلك، لأنّه كان يُسوّد كفوف النّساء، أما حناؤكِ فإنّه يلوّنُ قلوب الرّجال. لقد فتنتِ الحنّاء حتّى أبى أن يُخضّبَ يدَ غيرك، فصرتِ معشوقته ودفتره، وصرتِ قصيدته الجديدة التي استطاع أن يُنجِزها أخيراً.

حنّاؤكِ مُبَعْثَرٌ ومُبَعْثِرٌ، ما عاد يفهمه أحد غيرك، فلقد اكتفى بكِ عمّن سِوَاكِ، وآمنَ بأنّ مَن سَوّاك، قد عَدَلَك وعَدّلَك.

***

كيف أشتاق إليك وأنت فؤاد في فؤادي..؟! البحث عنك كالبحث عن قشّة في كومة إبر. كيف أشرح لك أنّني ما عدتُ أنا بعدك..؟ هل يكفي أن أقول لك أنّني اشتقتُ إليك حتّى أكفّر عن انكساراتي وتألمي؟ لا شيء يملأ قلب المشتاق إلاّ وجه من يحبّ..

لماذا أحبّك إلى هذا الحدّ يا رُقيّة البُعد والألم؟

نضطر أحياناً إلى السفر بعيداً حتّى نحتمل ألم الكتابة عمن

نحبّ، فذاكرة المكان أشد وجعاً من ذاكرة الإنسان.

كل شيء بيننا قابل للموت إلاّ الحبّ، فهو وحده ما يبقينا على قيد الحياة.. ما أثقل الحياة عندما تملؤها رغبة صادقة بالموت! وما أثقل الموت عندما لا يكون بين يديّ من نحبّ!

ما كان بيننا أكبر من أن يموت، وأصغر من أن يحيا..

ما أصعب أن تحبّ أحدهم، وتجد صعوبة في تذكّر ملامح وجهه.

لا تليق بمثلك القسوة، ولا يليق بمثلي الانكسار.

من حماقتنا، أننا عندما نحبّ أحداً فإنّنا نكتب إليه، وعندما نفقده، فإنّنا نكتب عنه..

الوفاء، يا سيّدتي، هو أن نكتب عمّن نحبّ، ونكتب لمن فقدنا.

أجمل النصوص هي التي نكتبها ولا نضطر إلى مراجعتها، إنّها كالحبّ، لا يمكننا أن نجده في الشّخص نفسه أكثر من مرّة.. أما أنتِ، فإني أحبّك مرّة أخرى في كلّ مرة.

عندما نحبّ أحداً دون أن يعلم، نصير نسخة منه. إنّ انتظارك يشبه احتراق الشموع بعد منتصف الليل، عندما نُشعلها فقط نشعر بقسوة الوقت.

أحبّ منتصف الليل لأنّه يكمل نصفك الآخر.

كلّما تكلّمتِ كثيراً أحببتكِ أكثر. يا اكتمال الهوى في منتصف العمر وأعذبه.. أحبّ من الحبّ أني أحبّك.

يا لطول المسافة بين قلبي ونبضاته عندما لا تكونين معي..! الليل دونك ثوبٌ قديم، لا يجد من يرتديه ولا من يتخلّص منه.. يا لقسوة الزوايا المعتمة، عندما تملأ أحداق المشتاق!

إنّ من يجيد الحب، يجيد الكتابة.. ومن يجيد الكتابة، يضطر إلى تدوين التاريخ حتّى لا ينسى نفسه..

كتابة التاريخ أقسى من تَذَكُّرِه.

ما أجمل الحماقات التي يتفوه بها العاشقون في اللقاء الأول!

إن من لا يبحث عنا بشغف لا يستحقّ أن تنتظره بشغف.. يا لحماقة الرّجال عندما ينتظرون!

عندما نحبّ أحداً، نصير جزءاً منه، وعندما نفارقه، يصير جزءاً منا.

وحده من يقف على الضفّة الخطأ من النهر يعشق العبور.. وحده من ينام على الجانب الخطأ من السّرير يسهر حتّى الصّباح..

إن من يعبر النهر وحيداً قد لا يصل، ومن ينام على السّرير وحيداً قد لا يستيقظ..

نحتاج إلى من نحبّ حتّى نقوى على السّباحة، ونحتاج إلى من يحبنا حتّى نقوى على النوم.

لا أؤمن بالاحتمالات إلاّ عندما تكونين إحداها. لقد كان احتمال فقدك وارداً، ولكنّه كان أثقل من أن يُحتمل. أمّا احتمال عودتك، فإنّه أجمل من أن يُدفن. الغياب يحفر قبر الأمل، واليأس يهيل التراب عليه.

يقال إنّ حبّ الرّجل الحقيقيّ يكون في الثلاثين من عمره، وأقول إنّ حب الرّجل الحقيقيّ هو عندما يكون مع امرأة تجعله يكتب إليها.. وها أنا أكتب إليكِ في الثلاثين من عمري.

بعض البشر يملكون من الحبّ في قلوبهم ما يكفي لإنقاذ البشرية من مجاعة الحنان.

كنت، كلّما لقيتك، تصفحت ملامح وجهك، تصفّحاً رقيقاً لأقرأ أقداري المبعثرة في طيّاته. عندما نفقد من نحبّ، تصير الأقدار أكثر قسوة من أيّ وقت مضى.

يكتب الإنسان لكي يحسّ، ويرسم لكي يرى، ويحبّ لكي ينكسر.. القلب الوحيد يشبه في حزنه القلم الذي لا يجد ورقة في المساء يبثها آلام الحياة..

إن من يخشى الأزهار يموت قبل الرّبيع.

تذكّر من نحبّ نوع من أنواع التأمّل.

الأصعب من إخفاء لذة الحبّ هو إخفاء الشقاء بعده..

بعض من نحبّ، يغيّرون حياتنا، وبعضهم يصنعونها.

تظهر فتوّات الأدباء على صفحات الكتب، وتظهر فتوّات العاشقين على صفحات الوجوه..

ما بيننا كان فوق طاقاتنا، ومن يحبّ فوق طاقته يفقد أكثر ممّا يملك، ويتألم أكثر ممّا يحتمل..

لا شيء يشبهني مثل قلمي، ولا شيء يشبهك مثل رسائلي.. بين القلم والرّسائل أحتفظ بما كان بيننا، حتّى لا يموت حبّنا.

لديّ إحساس أني سأراك مرّة أخرى، ولكن لا أدري إن كنت ستعرفينني، فبعد كلّ هذا الزمن لم يعد فيّ شيء يستحقّ النّظر إليه.. إلاّ أنتِ.. عندما أنظر في المرآة أرى رجلاً ناقصاً أحبّ امرأة كاملة. إنّ قسوة انكساري أمام المرآة عندما أتذكرك لا يضاهيها تكسّر كلّ مرايا العالم في هزّة كونيّة عملاقة..

عندما يحبّ المرء تبدأ حياته، وعندما يفارق تبدأ قيامته.

ما أقسى أن تخلو حياتي منك، ويمتلئ فؤادي بك.

بالأمس، لم يكن شيء بيننا إلاّ أنا وأنت، أما اليوم فكل شيء بيننا، إلاّ أنا وأنت.

***

النّظرة الأولى تُشبه الأخيرة، كلاهما تُسيلان الدّموع. أمّا الأولى، فإنّها تُقرّبنا من بعضنا حتّى لا يُدْرك أحدنا أنّه الآخر، وأمّا الأخيرة، فإنّها تجعلنا شيئاً واحداً.

ودّعتُكِ في تلك اللّيلة وأودَعْتُكِ قلبي، فلا حاجة إلى قلبي بعدك.. فالقلوب التي تبقى وحيدة تقتل أصحابها..

كُلّ اشتياقي إليكِ الآنَ لا يُساوي لحظة ساعة لقائك.. الاشتياق أَكثر أنواع اللقاء غُربةً وغرابةً.

عندما أفلتُّ يدي من يديكِ، كنتُ كالذي ينزعُ سهماً استقرّ في صدره. لا شيء يتبعُ ذلك العمل غير الموت.. لا أعرف فارساً غيري يشتاق إلى أن يعيد غرس السهم في المكان نفسه، فأن نموت مع من نحبّ، خيرٌ من أن نعيش مع من نكره.

أريدُ أن أمضي هذه اللّيلة في عينيكِ، كي أحبّك الآن وأموتَ غداً.

الاشتياق إلى لقائك هو لقاءٌ في حدّ ذاته، ومِن شدّة اشتياقي إليكِ، نسيتُ كيف أشتاق إلى غيرك.. لا تحاولي كُرهي الآن، فلا يمكننا أن نكره من يشتاق إلينا، وقد نحبّ الذين يحتاجون إلينا أكثر من الذين نحتاج إليهم.

أريدك أن تبقَيْ معي بأيّ صورة شئتِ.. ابقيّ ولا تُفلتي يديّ.

الحياةُ بين يديكِ خلودٌ مُعجّل، والموت بين ذراعيكِ نعيمٌ مؤجل.. لا يهمّنِي كم بقيَ لي لأعيش، وما يهمنِّـي هو مَن بقي لأعيش معه.

// عندما يرحل أحدنا، فإنّه يمرّ على كلّ جثث الذكريات المتناثرة أمامه.. الذكريات رمالٌ متحركة لا تبلع إلاّ صاحبها. عندما نرحل، فإنّنا نمارس قسوة لا تنتمي إلى بني البشر.. فالقسوة هي رغبتنا في أن نكون مخلوقات أخرى غيرنا.. القسوة هي رغبتنا في ألاّ نكون شيئاً.

يا مدادي الأزرق، اكتبيني حتّى أقرأك، وامنحيني موتاً مُفعماً بالفرح، فالحياة تُقزّم الأبطال، والموتُ يطيل أعمارهم. لا تكوني مثلهنّ.. لا تعيديني إلى داخلي وحدي وادخلي معي، فقد أقوى على العتمة، ولكنّني لا أقوى على الوحدة. كلّ ما بداخلي مُظْلمٌ، إلاّ أنتِ، وكلّ من حولي ظالمٌ، حتّى أنتِ.

كوني الحقيقة الكاذبة، واروي على مسامعي قصص الرّجال الذين تكسرت أصواتهم على مسامعك، ثمّ ردّدي أغنياتنا التي كتبها الزمان قبل ألف عام.. وسأروي لك قصص النّساء اللاّئي كُنّ قبلك.. كلماتي لهنّ صدقة، ولكِ أنتِ زكاة.

كلّ الرّجال يبوحون بما لا يريدون قوله، إلاّ أنا، لأنّني أبوحُ بك أنتِ.. لا شيء مثلك، ولا شيء بعدك.

عندما أفلتُّ يدي من يديكِ آخر مرة، أدركتُ أنّها لن تكون آخر مرّة.»

***

في تلك اللّيلة، وصلت إلى وائل رسالة في صندوق بريده في «فيسبوك». ولأنّه معتاد على كثرة رسائل المعجبين والمعجبات، فإنّه قرّر أن يتجاهلها. كان مندمجاً في قراءة «رسائل ابن عربي» إلاّ أنّ عينيه، كانتا تزيغان عن السطور، فكلّما انتهتا من سطر، عادتا إلى أوّل السطر نفسه. يعرف هذه الحالة جيّداً، فهي تدل على أن هناك شيئاً مهمّاً يشغل باله. ولكن ما هو؟ تساءل في نفسه.. تذكر منبه الرّسائل. وضع الكتاب وفتح «فيسبوك» فوجد رسالة من شوق:

«لا أحد يستوطن الأماكن المهجورة، وأنا بعدك وطنٌ مهجور.. لا أدري لِماذا كان عليّ أن ألتقي بك، ولكنّني أدري أنّه كان عليّ أن أفارقك حتّى أُقِرّ بأنّي أحبّك. قد تعجب من كلامي واستعجالي، ولكنّني لستُ مثلك، أنا لا أقف عند البدايات كما تُحبّ أن تفعل، أو هكذا يخيّل إليّ.»

فتح برنامج الحوار (الشات) فوجدها هناك:

- أين أنت؟

- سافرتُ إلى عَمّان.

- عمّان! لماذا؟

- لأدير مكتب الصّحيفة هنا.

- أرجوكِ، قولي لي إنّك تمزحين.

- كلا.. تصوّر. لم يجدوا غيري ليرسلوه إلى عَمّان. كلّ هذا بسبب إنسياد.

- عمّان بسبب إنسياد؟

- أجل، عمّان.. وأنت.

- أمازلت تتذكرِينني؟

- كلاّ.

- ظننتُ ذلك أيضاً.

- لأنك معي.. وكيف أذكرُ مَن لا يُفارِق؟

- متى ستعودين؟

- لقد بدأتُ للتوّ يا صديقي.. اسألني متى تستقرين.

ظلاّ يتحدثان حتّى ساعة متأخرة.. وفي الصّباح، أحست شوق بشيء يدفعها إلى الكتابة.. لتدوين كلّ شيء.. لم تدرِ لماذا، ولكن بعض الأعمال لا تحتاج إلى أسباب، مثل الكتابة والحبّ. جلست وقررت أن تدوّن في مفكّرتها لحظاتها مع وائل، على أن تُبقيها لنفسها.. وسمّتها «رسائلها»:

«إنّها السادسة في صباح من صباحات عمان البيضاء.. يومي سيكون طويلاً.. ما بين الصّحيفة والسفارة الألمانيّة، شدّ وجذب.. أكثر الأشياء التي أضحكتني من حالي اليوم ما جرى مع موظف الاستقبال في الفندق. في الصّباح، طرق باب غرفتي، وإذا به يحمل باقة ورد! أعطاني إيّاها وغادر.. فشلتُ في تخمين هوية المُرسِل.. توقعت للحظة أنّه ربّما يكون الصديق المتصوّف الجديد! وبينما أنا غارقة في الظنون، أحسب المسافة بين عربستان وعمّان، اتّصل الموظف واعتذر، وقال إنّ الورد وصل إليّ بالخطأ! يا لسذاجة الطفل الذي يسكنني. ألا أؤمن بأن جنون الرّجال تبدّد في هذا الزمان!

لكن، لا أعلم لماذا أشعر بنسمات جنون قادمة تجاهي! البارحة قضيتُ الليل بطوله أحادثه، كان عميق الكلام، واسع الاطلاع، شدني ذلك الحزن الذي يحاول أن يبعثره خلف ابتسامات ينثرها هنا وهناك. لماذا أهتم بأمره! لماذا لم أستطع النوم بعد أن أنهيت كلامي معه! لماذا أشعر بخوف وسعادة عند التّفكير بما حدث؟ لماذا أشعر أنّ «وائل» صديق جديد يقف على الطرف الآخر لطريقي؟ لماذا أستعجل التوقعات معه؟ لماذا استعجبت الطمأنينة بيننا؟

ولماذا أشعر أنّني أعرفه منذ الأزل.. كأني حلمت به من قبل.. كأني كنت أرقبه في زوايا أحد المقاهي.. كأنّه كان جاري الذي أخشى غموضه! كيف عرف تعلّقي بالصوفيّة؟ قال لي: «يبدو أنكِ قرأتِ للصوفيّة!» استوقفني كثيراً حينما سألني عن العتمة! وابتسمتُ حينما قال إنّه يخافني لأنّني أشبهه.. هل بالفعل أشبه هذا الرّجل؟ هل

يُشبهني هذا الصديق الجديد؟ هل كانت رسالته تلك موجهة إليّ..؟ لماذا بقي الحنّاء في يديّ حتّى اليوم..؟ ألأنّني أحنّ إليه، بيدي، وبلساني، وبقلبي؟!

قال لي إنّني أشبهه ليجاملني! لا أظنّ ذلك.. أظنّني بالفعل أشبهه.. قلبي وعقلي يقولان ذلك. هما لا يخطئان التوقعات أبداً.. خصوصاً في الصّداقة. أشعر أنّ ثمّة ما يخبّئه القدر مع هذا الصديق.. لماذا أسمّيه صديقاً بدلاً من وائل! ماذا يحمل لك القدر يا شوق؟

ها أنا أجلس في أحد المقاهي الممتدة على جنبات شارع الرينبو هنا في عمّان. ورغم برودة الطقس، فإنّني سألتُ النادل أن يضع الثلج في كأس العصير، فثمّة شوق في داخلي لا ينطفئ..

أبي.. أشتاق إليكَ.

قليل الشّوق يجبر كسري، وكثيره يكسرني مرّة أخرى. أعجب من أولئك الذي يتمتعون به.. كلّما اشتقتُ إليك اتضحت ملامحك أكثر. اليوم يا أبتي لم يحدث شيء يُذكر، سوى لقائي بفتاة تعمل في السفارة الألمانية، سألتني وهي تختم أوراقي: «يبدو أنك وحيدة هنا في عمّان.» لا أحبّ المتطفلين على قصص الحبّ والجنون.

أبي، سأخبرك أمراً.. لم تتغيّر تفاصيل حياتي الخاصّة كثيراً. ليس ثمّة إضافات تُذكر، سوى أننا تخلّصنا من الطّاغية، وجاء ابن أخيه ليحلّ محله. وحده الله يعلم كيف سيكون هذا الملك الجديد. ما

زال أصدقاؤنا كما هم.. أوفياء.. لكن يبدو أنّ ثمّة أمرٍ يُحاك لي في خبايا القدر!

منذ أيّام حدثتُك عن ذلك الذي يكتب بطريقة تحمل الطمأنينة إليّ. لا أعلم لماذا أُعير هذا الرّجل قدراً كبيراً من الإعجاب. أشعر أنّه ينتمي إليّ.. إلى عالم جنوني.

قلتَ لي مرّة إننا حينما نرتبك أمام بعض الأشخاص، فإن ذلك علامة على أن خلف هذا الارتباك شيئاً يستحقّ العناء، فخلف كلّ ارتباك حقيقة.. عندما يحدثني هذا الرّجل، لا أعلم لماذا أرتبك أمام حروفه.. لذا أرتبك خوفاً من عثراتي.. معه، أضحيت أكتب وأمحو خوفاً من أن يصيب الارتباك حروفي معه!

سأخبرك شيئاً..

أشعر أنّ ثمّة صداقة مجنونة يحملها القدر لي معه.. وائل رجل مختلف.. فيه من جنون عصرنا.. فيه من طيبة خالتي.. فيه منك الكثير، فهو مثلك، إذا غضب يحاول أن يملك نفسه. حدثني أنّه يعشق أدب المتصوفة وشِعرهم، ولكنّه يختلف معهم في كثير من ممارساتهم ومعتقداتهم. قال لي ممازحاً أن أكفّ عن الذكاء معه في ردودي.. كما كنتَ تردّدُ دائماً!

يؤمن بصدق الأطفال حينما يتلعثمون. دُهش عندما فاجأني بسؤاله إن كنتُ أحبه أم لا فاستشهدتُ بمقولة النفري: «كلّما اتسعت

الرؤية ضاقت العبارة» فأجابني: «هل عرفتِ لماذا خفتُ منكِ منذ الوهلة الأولى؟»

إنه يهوى الشّعر، ويعشق الكتابة.. ألم أقل لك يا أبي إنّه يشبهنا.

سألني عما أفعل فقلتُ له إني أقرأ «آنّا كارنينا».. ابتسمتُ كثيراً حين حاول استدراجي كي أعترف له بأمر، إلاّ أنّني تواريتُ خلف ذكائي.. أخبرته عن صراع الحبّ والسّلطة، فردّ بابتسامة: «لم نتفق على هذا النوع من الذكاء». وائل لا يحتمل قراءة ما يكتب.. صادق، لا يخجل من البوح عن الثلاثين التي قال عنها: «أنا رجل انتصفت ثلاثيناته بنزف جديد».. احترمتُ خصوصيّته، رغم شغفي في التبحر فيه.. كان عذباً في كلّ شيء. شعرتُ للحظة أني أحنّ إليه، رغم أن ليس ثمّة ماضٍ يجمعني به. أفضى إليّ بأنّه سينشر رسالة عاطفيّة كلّ خميس، ولستُ أدري إن كان يرسلها لي أم إلى جميع معجباته حتّى تظن كلّ واحدة منهن أنّها المعنية؟! ما أعذب نزفه، وما أرقّ حرْفه.

فيه من جنون جبران.. ما الذي يجعل رجلاً يفخر أمام امرأة لا يعرفها جيداً بأنّه يبكي عندما يكتب لامرأة تستوطنه؟

وائل.. أجمل هدايا القدر أن تملك أحداً يشبهك.. لا تخشَ تملّكي، فبعض الهدايا يفسد جمالها إذا لم تتملكها مباشرة. ألا ترى كيف يفرح الأطفال بهداياهم.. هم يكتشفونها مباشرة، ولا يُطيلون الوقوف أمامها.

اعلم أن ارتباكي معك يحمل حقيقة لا أخشى اكتشافها.. ولا أخفيك أني أُعوّلُ على صداقتنا كترجمان لهذه الحقيقة.

آه يا أبي، كم أفتقدُ وجودك الآن..!

سألتك أيّها المجيد، إن كان لي من صداقته نصيب، أن تنفي الحزن عنا إلى مكان بعيد.. وأن يكون لي معه أجمل الذكريات، وأحنّ اللقاءات.

أهلاً بك، يا صديقي وائل...»

***

انهالت الرّسائل والاتصالات على الصّحيفة تطالب بمزيد من الرّسائل. أما وائل، فقد كان مشغولاً ذلك الأسبوع في الحديث مع شوق من خلال «فيسبوك» كلّما سنحت لهما فرصة. ولشدة تحرّقه لرسائلها الهاتفية، وضع في هاتفه صوتاً خاصاً لينبهه حين تصل له رسالة جديدة. كان يقضي طوال اليوم في المكتب، حيث كان يدرّب كُتّاباً جُدداً، ويعيد هيكلة سياسة التّحرير لتكون الصّحيفة أكثر تحرّراً من القيود الملكيّة، وأكثر جرأة في الطرح. ثمّ سافر إلى الريف ليومين تحدث فيهما إلى طلبة الكليّات عن المرحلة القادمة، وما ستقبل عليه المملكة من تغيّر وتطوّر. وفي طريق العودة، جلس في كرسيّ مهترئ في القطار وكتب:

رسائل الخميس

«كلّما غِبتِ، غِبْتُ.. ورحلتُ إلى ذكرياتي المتناثرة على أوراقي القديمة. الذكرياتُ بيتٌ مِن ورق مُقوّى، أهرعُ إليه، لا كي أحتمي به، بل حتّى أتقوّى بِك. لا تسألي عني، فما عدتُ أطيق الحبّ دونك، وإن سألتِ، فستجدينني مُبَعثَراً في وجوه الناس، تلقفني نظراتهم، وتلفظني قلوبهم.

لا تسألي عنّي، حتّى لا يتذكرني العالم، فلقد ألِفتُ حياة النسيان، وأدمنتُ العيش في دهاليز الذاكرة المتهاوية.. هناك حيث نسيتُ كلّ شيء، حتّى نفسي..

بَعدَك، نسيتُ كيف أحبّ، ولكنّني ما نسيتُك.

عندما نتذكر من نحبّ، فإنّنا نتسلق جبل الأمنيات، وعندما نسأل عنه، نهبط سفح الحقيقة.

في غيابك، صرتُ أصلّي أكثر، فغياب من نحبّ يمنحنا الإيمان، لأنّه يدفعنا إلى الدّعاء والتضرّع. الحبّ جميل عندما نتقاسمه، والإيمان أجمل عندما نحتفظ به لأنفُسنا.. أنتِ لي الإيمان والحبّ،

أحتفظ بك لنفسي وأتقاسمك معها.

في غيابك، عودة لصوتك، تلك النغمة التي حلّت مكان جوارحي، حتّى غدوتُ بصوتك أسمع وأرى.. ليتني أستطيع عناق صوتكِ الآن.

في غيابكِ، صرتُ أقربَ إليكِ مِنّي، فقد لا نحبّ من نشبه، ولكننا نُشبه من نحبّ.

لا تسألي عني بعد كلّ هذا الغياب، فقد اعتدتُ الموت بعدك.. الموتُ ليس مُفارقة الرّوح، ولكنّه مفارقة من نحبّ.. أمّا أنا، فقد فارقتُ روحي ومَن أُحِبّ.

معك، تعلّمتُ معنى الحنان، وبعدك، تعلّمتُ الحنين.. بين الحنانِ والحنين بابٌ لا يعبره إلاّ المُفارقون.

في غيابك، تكالب الدّمع والانتظار، حتّى صار الشّوق إليكِ جريمةً لا تُغتفر.. لا أدري أيّ لحظة قد تكون آخر لحظة في حياتي، ولكن يكفيني أن أعلم أنّك آخر امرأة في حياتي..

حتّى أنا لا أحتاجني في غيابك.

لا تسألي عنّي، واسألي عنكِ، فما عدتُ أدري إن كنتُ أنا، أم صرتُ أنت.

***

كم أبدو منكسراً عندما أكتب إليك! وكم أبدو ساذجاً عندما أكتب عنك! السذاجة حقّاً أن أصدّق بأنّك تشتاقين إليّ الآن. ليس مهمّاً أن أكون واقعيّاً في وصفك، فلم أكن واقعيّاً في حبّك على كلّ حال.

كل الأشياء حولي تشبهك عندما أشتاق إليك.. وحدها الأشياء لا تعرف الرّحيل مثل البشر.

عندما نكتب رسالة لمن نحبّ، نصل إلى حدٍّ من الحماقة نظنّ عنده أنّ العالم كله يتألّم مثلنا.. الناس يا حبيبتي لا يأبهون بوجعي وتأوّهي، إنّهم فقط يستمتعون بما أكتب إليك.. الحبّ حفلة شماتة كُبرى، تختلط فيها قصائد الرثاء بالغزل.

كم تشبهني المدن المهزومة عندما أكتب إليك.. هنا جُدْران فؤادي قد دُكَّت بمدافع قسوتك، وهنا بوابته قد أحرقتها نار انتظار عودتك.. عودي كالفاتحين الذين تُزَيَّنُ لهم الطُرقاتُ صُبْحاً.

الكتابة إليك أكثر وجعاً مِن فقدك.. الكتابة إليك شكلٌ من أشكال عِناقك.

ما زلتُ أتساءل بعد كلّ الأوراق التي سوّدتها من أجلك: لماذا أحببتُك؟ أسأل، ولا أريد أن أحصل على إجابة حتّى أستمرّ في حبّك.

الحبّ يورث الكتابة، مثلما يورِث الألم الأمل.. لا شيء يشبه وجع الحبّ إلاّ وجع الكتابة.

الحبّ على الورق هو أقسى أنواع الحبّ، وأقلّه واقعيّة.. الأوراق يا حبيبتي لا تعرف القسوة، بل نحن الذين نعذّبها عندما نخطّ عليها آلامنا.

أجمل ذنوبي أنّني أحببتك، وأكبرها أنّني تركتك.. الفراق عقوبة الحُب، واللقاء كفّارته.

عندما لا نحبّ أحداً كما يستحقّ، فمن حقه أن يهجرنا كما نستحق..

كم أحبّ انكسار عيني أمامك، وكم أكره انكسار قلبي بعدك..

لكي نُحْسن الحبّ، علينا أن نُحْسن الانتظار، ولكي نحسن الانتظار، علينا أن نحسن الكتابة.. ولكنّ الكتابة لا تزيد الحبّ، بل تزيد الشقاء.

أُحبّ أن أتمهل في رحلة الكتابة إليك حتّى أستمتع بلذة الاشتياق.. كلّ الرّسائل تذكرني بك، وتحملني إليك..

عندما أكتب عنك أصير أقرب إليك مني..

الكتابة لك أقسى من التوسل إليك.

أعلم أن الكتابة لن تعيدك إليّ، ولكن عسى أن تردّني إليّ..

كلّما كتبتُ كثيراً، أحببتُكِ أكثر.. ما أكثر الجنون في الحب! وما

أشد التناقض في الكتابة..!

بيتي مليء بالرّسائل، وقلبي مليء بالحبّ، وكلاهما مليئان بك. رسائلي إليك لا تحملُ شيئاً منّي، بل تحملني.

كل رسالة أكتبها إليك تغرسك في أعماقي أكثر.. الكتابة لمن نحبّ شكلٌ مِن أشكال البطولة، والكتابة عنه شكلٌ من أشكال الخلود.

كل الاحتمالات كانت واردة إلاّ أنّ نكون معاً، كلها كانت قريبة منا ما عدانا.. كم أشعر بالعدم عندما لا تكونين معي..! غيابُكِ فراغ مثقوب تتسرّب منه روحي.

أُسْهِبُ فيك في زمن شحّ فيه الحبّ، واختُصِرَت فيه الكتابة..

كلّما أوشَك قلمي أن يجف، سكبتُ فيه دمعي وبعضاً من ذكرياتنا، فعندما يختلط الدّمع بالذكريات تصبح الكتابة أكثر صدقاً، وأشدّ وجعاً.

الكتابة إليك تزيدني حرقة عليك..

والكتابة عنك تزيدني لهفة إليك.

كلّما جلستُ لأكتب لك شيئاً.. صرتُ شيئاً.. ولا شيء يعيدني إلى الكتابة إلاّ النّظر إلى صورك القديمة، تلك التي نسختها في مخيّلتي، وحفظتها في ألبوم فؤادي.

أكتب إليك علّك تسمعينني، أو تسمعين عنّي..

أكتب إليك ما تمنّيته معك..

أكتبُ إليك، لا لأنّني أحببتُك، ولكن لأنّني تمنّيتُك.

***

قَبل أن أحبّك، كنتُ أسافر وأعود كما أنا، وبعد أن أحببتك، أصبحتُ أسافرُ كما أنا، وأعود كما أنتِ، وإذا كان حبّك يمُدّني بالقوّة، فإنّ اشتياقي إليك يمدّني بالغُربة. الغربة يا سيّدتي ليست مفارقة الأوطان، ولكنّها مفارقة مَن نحبّ، والوطن الحقيقيّ هو الذي نَجدُ فيه قلباً نأوي إليه كلّ مساء.

في غربتي هذه، افتقدتُ الحياة من حولي، لأنّ وجودك في حياتي قد صار حياتي، وكلّما حاولتُ أن أخترع طقوساً يوميّة حتّى أعتاد المكان الجديد، أجدُني أكرر طقوسكِ أنت، فما عدتُ أنا، ولا صرتُ أنتِ. إنّ تكرار الشيء ليس بالضرورة أن يُحققه، بل إن بعض الأشياء تفقد قيمتها عندما تتكرر، إلاّ أنت، كلّما زِدت قُرْباً، ازددتُ، وكلّما رحلتِ عنّي، اقتربتُ، فأنا لا أُفارِقُ إلاّ كَيْ أعود إليكِ، فكلّ الرّحيل نحوَكِ يا سيّدتي إياب. إن تكرار الجمال يمنحه ألقاً، وتكراركِ أنت يمنحكِ قُدسيّةً.

أُحبّني عندما تشتاقين إليّ، فاشتياقُكِ ذاك، أجملُ من هواك. الشّوق داءُ القلوب ودواؤها، به تستعر وتخمد نيرانها، إلاّ أنّها لا تموت،

فالحبّ يحتاج إلى جذوة حتّى يعاود الاشتعال مرّة أخرى.. أتعرفين ما جذوة الحبّ؟ إنّها «الشّوق» يا حبيبتي.

الحبّ لا يقتل، كما يقول بعضهم، بل نحن الذين نقرر الرّحيل. فأمّا من رحل إلى الحبّ، فقد وَجَدَ نفسه. وأمّا مَن رحل عنه، فَقَدَها، وقَدّها مِن دُبُر. الشّوق فقط ما يجعلنا نرحل إلى من نحبّ لأنّه يعرف طريقه جيّداً. الشّوق سُمٌّ في فَمِ زهرة، نتجرّعه، لا لأنّنا نحبّه، ولكن لأنّنا نحبّ تلك الزهرة. الفرق بين الحبّ والشّوق، أنّ الحبّ يمكن أن يبقى طيّ الكتمان، أمّا الشّوق فإنّه يفضح صاحبه، فتجده هائماً على وجهه في النهار، ساهِراً طرْفُه بالليل، لا يدري أنّه لا يدري، ويحبّ أنّه لا يدري.

الأقسى مِن أن نشتاق إلى أحدهم هو أن يشتاق إلينا أحدهم، والأصعب من أن نحبّ أحداً، هو أن نجد مَن يستحقّ ذلك الحبّ. قد يمكننا أن نعيش دون حبّ، ولكننا لن نستطيع أن نحيا دونه.

اشتقتُ أن أشتاقَ إليكِ.. ولهذا عُدتُ».

***

كان الإعلاميّون ورجال الأعمال وأعيان المملكة حاضرين في القاعة المزمع إعلان توسعة القناة فيها. وبعد أن اكتمل الحضور، دخل خالد ومعه سفير شرقستان. صفقّت القاعة إلاّ وائل؛ ظلّ مشدوهاً للمنظر. حاول أن يفهم ماذا يجري إلاّ أنّ الصدمة شلّت تفكيره. وقف

خالد وشكر السّفير ودولته على مساهمتهم في تطوير عربستان، كما أكد السّفير أن عربستان شريك استراتيجيّ لدولته..

لم يحتمل وائل منظر السّفير وهو يتحدث إلى جانب خالد الذي قدمّه عريف الحفل على أنّه مدير ديوان الملك. خرج من القاعة فور توقيع الاتفاقية، وقبل أن يركب سيارته، أوقفه أحد الفتيان المنظمين للحفل، وأخبره أن خالد يريد رؤيته. حاول الرفض، إلاّ أنّ الفتى أصرّ على أن يحضر معه. ذهبا إلى ركنٍ بعيدٍ في بهو الفندق، وجلسا إلى إحدى الطاولات. لاحظ الفتى توترٍ وائل، فطلب له كأساً من عصير الليمون، وعندما وصل العصير، وصل معه خالد، فاستأذن الفتى وتركهما وحدهما.

سأل خالد:

- لماذا خرجت من القاعة غاضباً؟

وائل:

- وهل كان هذا اتفاقنا!

- أيّ اتّفاق؟ نحن لم نتّفق على شيء؟

- يبدو أن المنصب قد أنساك أشياء كثيرة وبسرعة.

- ما المشكلة في التعامل مع شرقستان؟

- ما المشكلة؟! أنت القائد العسكري تقول ذلك! ألا تدرك طموحاتهم التوسعيّة في المنطقة وغرورهم وعنجهيّتهم؟

- ولكن الحياة تتغيّر.. والمصالح السياسيّة المشتركة بيننا أكبر بكثير من خلافاتنا التاريخيّة.

- «المصالح المشتركة» ما أسرع ما حفظت هذه المصطلحات الإعلاميّة!

- ألا يهمك أن تنمو البلد؟

- بلى، ولكن ليس بالتعاون مع أعدائها.

- أعداؤها! أنت تبالغ كثيراً. بل قلْ شركاؤها.. ثمّ من سيمول المشروع إن لم يفعلوا هُم؟

- الملك.. ألا يملك ثروة طائلة!

- بلى، ولكنّها ثروته الشّخصيّة، وليس من حقنا أن نطلب منه أن يصرفها على مشاريع حكوميّة.

أراد وائل أن ينقض على خالد بالكلام، وأدرك خالد أنّه لن يستطيع إقناعه مهما فعل. فقرر مفاوضته:

- دعك من هذا الكلام الآن. لك عندي هديّة.

- أيّ هديّة!

- خصّصتُ لك أرضاً تجاريّة على إحدى ضفتي القناة، إلى جانب أراضٍ أخرى لي ولبعض الأصدقاء المخلصين الذين دعموا الثّورة، وتحدثتُ إلى السّفير لتخصيص قروضٍ كي يبني كلّ منا عمارة تجاريّة دون أن يدفع أيّ فوائد، وسيسدّد للبنك قيمة القرض من خلال الدّخل السنويّ للعمارة.

حاول وائل أن يتحدث فقاطعه خالد:

- سيمكن لكلّ منا أن يبني ناطحة سحاب. ولا تنسَ أن أسعار الأراضي سترتفع بعد الانتهاء من توسعة القناة، وسترتفع إيجارات المكاتب والشقق.

ظلّ وائل مطرقاً، فالعرض كان أكبر بكثير من قدرته على الرفض. ناطحة سحاب! هذا يعني أنّه سيكفّ عن التّفكير في المستقبل، وسيركز على الكتابة والعمل الصّحفي، وهكذا سيكون أكثر قدرة على العطاء والمساهمة في تنمية المملكة... هذا ما جال في خاطره بسرعة.. وما أسرع ما تتغيّر قناعات الإنسان أمام المال والسّلطة.. بهذه الفكرة استطرد خياله. ظلّ يطرق بسبابته على الطّاولة المتوسطة بينه وبين خالد. شعر خالد أن وائل قد تقبل الفكرة، ولكن من الصّعب عليه أن يغيّر رأيه أمامه بهذه السّرعة. نهض ناوياً الرّحيل، قال بسرعة وهو يدير ظهره لخالد: «أراك لاحقاً». ابتسم خالد وهو يخرج خاتمه من إصبعه ويعيده إلى مكانه عدة مرات، ثمّ نادى الفتى وقال له: «تأكد أن

تنشر جميع الصّحف خبر الاتفاقيّة إلى جانب صورتي مع السّفير في الصّحفات الأولى غداً».

وفي اليوم التّالي، كان خبر الاتفاقيّة يملأ الصّحف والإذاعات بطريقة احتفاليّة، ولم ينسَ وائل أن يُجريَ مقابلات على مدى ثلاثة أيّام مع مجموعة من رجال الأعمال ورجال الدولة ليأخذ آراءهم حول المشروع، ومن ثمّ يقوم بنشر الصالح منها فقط، أي التي تُثني على المشروع، وعلى خالد شخصيّاً.

اتّصل به رئيس تحرير «الوقت» ليسأله عن هذه الدعايات غير المُبررة، فالمشروع ما يزال في طور الإعداد، فرد عليه بنبرة حادّة: «لماذا عندما يخطئ المسؤول نلهب ظهره بسياط النقد والتجريح، وعندما يقوم بعمل جيّد لا نقول له كلمة شكر واحدة! اسمع يا صديقي، ليس كلّ من انتقد صادقٌ، وليس كلّ من مدح منافق. علينا أن نكون صادقين وعادلين». أقفل السماعة وتساءل في نفسه: ماذا لو لم يكن له نصيب في ذلك المشروع، هل كان سيفعل ما فعل! «الله وحده يعلم النوايا» هذا ما كرره في نفسه، إلاّ أنّه سمع صوتاً نابعاً من أعماق روحه يقول له: «الله.. وأنتَ أيضاً».

***

كان وائل يشعر بأن المملكة تضيق عليه أكثر كلّ يوم، فكيف يقبل أن يُباع وطنه لأعدائه ويروج في صحيفته لتلك الصفقة، وهو الذي ناضل من أجل التّخلص من الطّاغية وفساده! هل أصبح جزءاً من

النظام الجديد؟ وهل هذا النظام فاسد كسابقه؟ لم يكن أمامه إلاّ السفر لبضعة أيّام علّه يستطيع أن يفكّر جيّداً.. وبينما كان يبحث عن وجهة ما، أتته فكرة..

اتّصل بشوق وقال لها إنّه أرسل لها طرداً بالبريد المستعجل، وسيصلها في اليوم التّالي. لم يكن يعرف أين تسكن، فطلب عنوانها، وقال لها أن تنتظر سائق شركة التوصيل في الثامنة مساءً. كانت فرحتها بالخبر لا توصف، وظلت تفكر طوال اليوم عن فحوى ذلك الطرد. هل أرسل لها شيئاً من أغراضه لتذكيرها به؟ أو ربّما باقة ورود؟ أو رسالة مكتوبة بخط يده..؟ كانت هذه الفكرة الأخيرة هي الأحبّ إلى قلبها، والأقرب إلى أمنياتها.

دقت الساعة الثامنة، ولم يصل السائق. أرسل لها وائل رسالة بالهاتف قال فيها إن السائق ضائع بين عمارات الحيّ، وطلب منها أن تنزل وتبحث عنه. خرجت مسرعة، ومن شدة البرد كان دخان أنفاسها يتصاعد كقطار بخاريّ يشقّ طريقه في طرقات مظلمة. لم يكن هناك أيّ أثر لسيارة أو دراجة. وبينما هي تجول بحثا في الأزقة، لمحت ظلّ رجل واقف تحت إنارة قديمة نسيها الظلام. كان الضّوء القادم من خلفه يُخفي ملامح وجهه. خافت وأرادت أن تركض إلاّ أنّ شيئاً أشعرها بالأمان فجأة. تحرّك الرّجل في اتجاهها، فانساب عطره كنسمات الرّبيع. وعندما اقترب منها كان وائل!

ركضت في اتجاهه وقفزت إلى صدره. التقطها ودار بها دورة كاملة، ثمّ استقرّ شعرها على وجهه. أخذت تجهش بالبكاء وهو

يضحك.. استمرّت تبكي فاستمرّ بالضحك، فأخذت تضربه بيدها برقة لكي يسكت، ما كان يزيده ضحكاً، وأخذت تردّد: «أيّها المجنون..! أيّها المجنون..!».

جلس على طاولتها الصّغيرة المُطلّة على الشارع وهو يفرك يديه. كانت شقتها في الطابق الثاني، وعلى الرّغم من أنّ إحدى الأشجار وصلت حتّى نافذة الشقة، فإنّها لم تحمل غير أغصان الشتّاء اليابسة، فكان قادراً على رؤية المارّة في الأسفل. أخذت تُحضّر له حساءً دافئاً وهو يخبرها بما حصل مع خالد، إلاّ أنّه فضّل ألاّ يخبرها بأمر الأرض، فمن يدري كيف ستنظر إليه بعدها.

غضبت مثله عندما سمعت القصّة كاملة، وقالت له:

- لقد حذرتك عندما كنا في المعسكر من العمل مع الأعرج!

- كلنّا كُنّا في حاجة إليه. ثمّ إنّه كان خيارنا الوحيد.

- وما خيارنا الآن؟

- تتحدثين وكأنّه يسعى لتدمير البلاد. إنّه يريد تنميتها.

- بمساعدة الشّرقستانيّين!

- فليذهبوا إلى الجحيم.

- مَن، الأعرج وخالد أم الشّرقستانيّون؟

- كلهم.

ضحك الاثنان، وأيقنا أنّ الحبّ الذي يملأ المكان أكبر من حديث السّياسة. بعد أن أعدت الطّاولة ووضعت العشاء قالت له:

- لماذا أتيتَ؟

فقال، وهو يرفع حاجبيه ويفتح ذراعيه ويبتسم:

- لماذا رحلتِ؟

فقالت وقد اعتلت الجِديّة وجهها:

- حتّى تأتيَ.

أمسك بيديها وهو ينظر في عينيها وقال:

- أتيتُ لأقول لك وأنا أنظر إليك «أحبّك».

- كان يمكنك أن تقولها عبر الهاتف.

- وأتيتُ لأقول لك إنّ رؤية وجهك تمنحني الإيمان والأمل. فعندما أراكِ أشعرُ أنّني أملك كلّ ما أتمنّى. أحبّ أن أشتَمّ رائحتك التي تشبه رائحة زهرة جبليّة، تنبت مرّة جديدة كلّ يوم. وأحب أن أغمُر يديك بكفي، وأغرقهما بقُبل حارقة كلّما دخلتُ المنزل. وأتيتُ لكي أكتب لك على ضباب مرآة الحمّام بعد أن أستحم كلّ صباح

«أحبّك». ولكي ألصق ورقة صفراء على باب خزانة الملابس، وأكتب عليها «كلّما خرجتِ تذكّري أنّ هناك شخصا مّا، في مكان مّا في هذا العالم، يفكّر فيكِ».

أسدل الليل ستاره، وكشفت القلوب غطاءها، وعاد الجزء إلى الكلّ، واتّفق الحُلم مع القدر، وأينعت الورود مرة أخرى.

بعد أيّام، عاد وائل إلى المملكة، ونشر الرّسالة التّالية:

رسائل الخميس

«كان واقفاً بعد منتصف الليل يستظلّ تحت نورٍ يتيم انبعث من عمود إنارة أحدَب. لم يستطع أن يفرك يديه ببعضهما ليحصل على قليل من الدفء، لأنّه كان يحمل بينهما باقة ورود، ويحمل بين جوانحه قلباً يكاد ينزلقُ من صدره على الرّصيف. ارتدى في تلك اللّيلة بنطالاً كحليّا وقميصاً أبيضاً، كساهُ بمعطف كحليّ أيضاً حتّى يتناسب مع سكون الليل ومَلَكيّته التي جمّلها بوشاحٍ أسودَ، امتدت على رُقعته خطوط حمراء لتتناسب مع لون الورود. بعث إليها رسالة قبل أيّام تقول: «الأيّام تدفعني عنك، والأشواق تدفعني إليكِ».

لم يُدرك أنّه قد أثار عاصفة من الشكوك والآمال في صدرها، ولم يدرك أيضاً أنّه فعل ذلك لكي يزيد من اشتياقه للقائها، فالاشتياق يُضاعف لذة اللقاء. الاشتياق موتٌ مؤقت.. هكذا فكّر، إلاّ أنّه آمن الآن أنّ الاشتياق أحد أنواع الحماقة، وأكثرها صِدْقاً.

كانت تمشي وتتلفّتُ حولها على غير عادتها، وكلّما مرّ بجانبها رجل، داعبت خصلات شعرها بيدها وخبّأتها خلف أذنها في حركة لاإراديّة. لم تدرِ ما بها، ولكن ليس بالضرورة أن يكون لكلّ شعور

معنى، بل إنّ أجمل المشاعر هي التي لا نجد لها تفسيراً.. هذا ما قالته في نفسها، واكتفت بالاستمتاع بذلك الشعور الذي يوهمها أنّه قد يكون أحد أولئك الرّجال. كانت تضمّ حقيبتها إلى صدرها وهي تمشي، وكلّما خابَ ظنّها في الأشخاص الذين يمرون بجانبها، ضغطت الحقيبة على صدرها أكثر.

لمحها مِن بعيد وهي تقترب منه، فآثر البقاء مكانه. لَمَحَتْ قامته، ولكنّها طأطأت رأسها مرّة أخرى، واستمرّت في سيرها..

«ليس هو.. إنّهم كلّ الرّجال إلاّ هو».

هذا ما قالته في نفسها، وسقطت منها دمعة دون أن تعلَم. اقتربت من عمود الإنارة الذي استند إليه وهو ينظر إليها.. بدأت ملامحها تبدو أكثر وضوحاً، وعندما مرّت بجانبه لمحت الورود الحمراء، ولمحت أيضاً إبهامه النحيف الذي رسمت عليه صورة قلب صغير.. كانت تقول له:

•

«سيُذكّرك هذا القلب بي عندما تعود إلى وطنك.. قلبي الآن صار بَصَمَتك».

أرادت أن تقف، إلاّ أنّ رِجلها أبت الوقوف. إنّها حالة مِن الأفعال اللاّ إرادية التي تُباغت الإنسان عندما يفقد السيطرة على إحساسه. مدّ يده وأمسك بذراعها، وعندما شعرت ببرودة يده عرفته، فقد كانت تُدفئها بيديها في ليالي الشتاء الباردة. ذكّرتها برودة يديه بكلامه

عندما كان يقول لها:

«لن أتركِكِ أبداً، فحاجتي إلى دفء الحبّ في يديكِ أكبر من حاجتي إلى الحبّ نفسه».

استدارت، وقد سقطت حقيبتها، وسقطت وروده.. ففي اللحظة الجميلة نفقد الحاجة إلى كلّ الأشياء.

بعد عام، مرّت في الزقاق نفسه، فلاحظت أنّ المكان الذي سقطت فيه الوُرود قد نبتت فيه حديقة صغيرة.. عندها، أيقنت أنّ الورود الصادقة تُعيد إلينا مَن نحبّ أو تحملنا إليهم.

ما زلتُ أذكر ذلك الزقاق حتى بعد الرّحيل، وما زالت الورودُ تنمو فيه مثلما تنمو ذكراكِ في فؤادي.. يا فؤادي.

***

جلستُ أتصفّح رسائلك القصيرة في قاعة المطار المكتظة بآمال المسافرين، والمليئة بعذاب المفارقين.. عندما تمتزج الآمال بالآلام، يولد حُبٌّ عظيم كالذي أحمله في قلبي إليك.. أشعر أحياناً أنّني لا أحمل قلباً، بل أحملك أنت.

العاشق والمسافر، كلاهما يبحثان عن مأوى.

إن الأيام التي حالت بيننا تبكي فراقنا.. ما أجمل أن أحفظك

عن ظهر قلب! وما أصعب أن أحبّك من بعيد..! قد تُسدُّ كلّ أبواب العالم بيننا، ولكن من يستطيع أن يسدّ قلوبنا؟

سأنسابُ إليك عبر الذكريات، وسأكتب اسمك في راحة يدي، ثمّ أضعها على قلبي كلّما افتقدتُ قربك.

يجتاحُني خريفٌ كلّما ذكرتُك، تتلوّنُ ذكرياتي في أوّله، ثمّ أنحني كجذعٍ عجز عن حمل نفسه..

قولي لي ماذا أفعل كي أحتفظ بك؟ فما عدتُ قادراً على الاحتفاظ بنفسي!

يا لبرودة الأماكن التي التقيتك فيها..!

الأماكن بعدك تشبه الشتّاء، أكثر قسوة من أن تُحتمل.

لماذا عليّ أن أتحطم لمجرّد أنّني أحبّك؟

لماذا يُفرّقنا الحبّ، ويجمعنا الشقاء؟

لماذا يملؤني كلّ هذا الحنين بعدك؟

هذا ليس حُبّاً، بل صراع للبقاء.

تُنسيني عيناكِ كلّ روايات البشر، فمِثلكِ أحقُّ أن تُروى..

كنتِ حبيبتي، وصرتِ اليوم روايتي.. كنتِ الصّفحة التي كتبتُ

عليها أمنياتي، وصرتِ الحبر الذي أخطُّ به عذاباتي.

في حياة كلّ منّا كتابٌ ينتظر أن يُقرأ، وقلبٌ ينتظر أن يُحَبّ..

العشقُ، يا عِشقي، لا يُغري، العاشقون هم الذين يُغرُون.

وجهُكِ تعويذةٌ نُقِشَت على جدار مَعبد...

وجهك لا يُنبِتُ الأزهار فقط، بل يُورِقُها.

سأنقُشكِ على عُنُقي حتّى أتباهى بكِ أمام العالم أجمع..

في الشتاء، أضعُ يدي على الزجاج المبللِ بالمطر، وأضع يدي الأخرى على صورتك، حتّى أستشعِر بركة السّماء وبركة الأرض..

يبدو المطر أجمل عندما يَبْتَلّ به وجهك..

أمّا المطر، فيُنعِشُ البَدَن، وأمّا حبّك، فيُنعش الفؤاد.

يُحطِّمـنـي حبّك وأنتِ لا تشعرين، فليتكِ تملكين هُدهداً، أو تفقهين لغة الاشتياق.

حبّك ينحتُني، ويعيد رسم ملامحي مرّة أخرى..

أنا لا أشبِهُني بعدك، بل أشبِهُ الغُبار المُكدّس في المكتبات

القديمة، لا أحد يهتم حتّى بمسحه.

في عينيك، أختلي بك، وفي صدرك، أنصتُ إليك.. لقد كان قلبكِ واحةً ألوذ بها في مساءات الحنين..

عندما نفقد من نحبّ، تصير الحياة صحراء كُبرى، وتصبح الفرحة أمنية كُبرى.

أجمل الكلمات هي التي لا يمكن تحقيقها، وأعذبها ما يأتي بعد انتظار..

الأصعب من انتظارك هو فقدان الأمل بعودتك..

لا يمكنني أن أقاوم رغبتي في البكاء كلّما قرأتُ شيئاً مكتوباً بخطّ يدك.. آهٍ من خطّك، وآهٍ مِن يدك..

يداكِ أدفأ حضنٍ ضمنّي في حياتي..

يداكِ الإحسان كلّه، وقلبُكِ الوفاء كلّه..

إن أجمل طريقٍ سلكته هو ذلك الممتد بين يديك وقلبك.

لقد أصبح الفرح بعدك عملاً لا يُحتمَل..

أنا لا أكتبُ لهم لكي يعرفوا كم أضناني فقدك، ولكن ليعلموا كم أسعدني حبّك.

ما أجمل أن أستطيع مناداتك «يا حبيبتي»..!

كم نازعني حبّك عن نفسي، حتّى نزعها فراقك.

ما عاد العمر، يا عمري، يتّسع لحبّ أكثر من هذا.. أحتاجُ إلى قلبٍ بحجم السّماء حتّى أحتمل اشتياقي إليك.. وأحتاجُ إلى قلب بصلابة الأرض لأحتمل غيابك.. وأحتاج إلى أملٍ بحجم المسافة بينهما لأحيا بعدك.

ملأتُ الليل بالصلوات، وملأتُ النهار بالأمنيات..

أعيدُ حبّك كلّ ليلة، وأفقدك مرّة أخرى كلّ صباح.

كل ليلة بعدك، أشعر كأنّها أطول ليلة.. كأنّها آخر ليلة.

أحبّك في كلّ ليلة.. مثلما أحببتك أوّل ليلة.

***

إنّه الليل يُباغتني مرّة أخرى.. يقف على عتبات قلبي، ويَطْرُقُ فؤادي طرْقاً هيّناً، علّه يَذكّرُ أو يَسْلى..

أنا لا أخشى بعدك، ولكنّني أخشى فراقك.

اللّيلة التي أكتُبُ فيها إليكِ تصير مرآة للسعادة، وظِلاّ للذكريات الجميلة..

حتّى ظلّك أحببته لأنّه يشبهك كثيراً، لا يكاد يظهر حتّى يغيب.

في مثل هذه اللّيلة، قبل عام، كنتِ الوحيدة التي احتفت بوجودي..

كنتِ الوحيدة التي أطفأت شموعي.. كان كلّ شيء حولنا يوحي بعيدِ ميلاد جديد. كانت العطور التي على ثيابنا تفوح برائحة الحبّ، وكانت الموسيقا من حولنا تملأ الأجواء بفرحتي بك..

ليتكِ كنتِ القلم الذي تعانقه أصابعي كلّ يوم، أو الورقة التي تحتضن تُرّهات عاشق ثائر مثلي لم تقتله كلّ رصاصات الحبّ، حتّى رصاصة رحيلك أبَت أن تجعله شهيداً.

أقف على حافة البكاء، أنتظر متى تأتين حتّى أَشْرَعَ في السقوط.

عندما أنتظرك، أصير هشّا كالرّماد، وتصيرين عذبة كالمطر..

يا لضيق صدري كلّما تنفست الهواء بعدك..!

لا أدري لماذا تدمع عينايَ وأبتسم كلّما ذكرتك.. يا امرأة جمعت تناقضاتي كلها، وضمّت كلّ شيء منّي في داخلها..

حبيبتي.. قَلْبك والحبّ وجهان لِرُوحٍ واحدة.

أَمُرُّ في الطرقات، فلا أرى غيرك، أَجُرُّ انكساراتي معي، وتفوح أنفاسي برائحة اشتياقي إليك..

في مثل هذه اللّيلة، كانت كلّ الدروب تؤدّي إليك.. كانت عيناك الطريقَ، وكُنْتِ الطريقة.

اعتنقتُكِ مَذْهباً.. يا اكتمال الدهشة على وجوه القادمين.. يا ابتسام ثَغْرِ مَنْ لاقى حبيبه..

حبّك كالدّعاء، إن لم يصعد إلى السّماء، فإنّه يبارك قلوب من في الأرض..

لمثلك يَشُدُّ قلبي الرِّحال ويُهاجِرْ.. وأشتاقُ إليكِ، كاشتياقِ إبراهيمَ لِهاجَرْ.

عندما قلتِ لي: «أحبّك» كتمتُ سماعة الهاتف بيدي، وصرختُ كأوّل صرخة لي عند الولادة.. لقد كان حبّك ولادة لكلّ الأشياء الجميلة في حياتي.

يسألوني يا حبيبتي: «أيُعْقَلُ أن يوجَد مثل هذا الحب؟» وأقولُ لهم: «يُعقَلُ.. إن وُجِدَتْ مثْلها».

ما أكثر الدّعاء والبكاء في غرف المفارقين! وما أكثر الابتسام والشكر في غرف العائدين! أما غرفتي، فإنّها مليئة بالدّعاء والشكر.. كم أحبّ أنْ أدعوَ لكِ! وكم أشكر الله أنْ جعلك يوماً في حياتي.. حتّى صرتِ حياتي..! قد لا تكونين لي، ولكن يكفيني أنك كنتِ كلّ أسباب الهناء.

في مثل هذه اللّيلة.. وقف الحبّ على أطراف المساء يزفّ قلبك إلى قلبي.

لا شيء يكسرني مثلك أنتِ وقلمي، ولا شيء يملأ روحي مثلكما..

علّميني كيف أتوقّف عن الكتابة.. علميني كيف أضع نقطة في آخر السطر..

أخبريني.. كيف ما زلتُ أرحلُ بعدك وأنتِ محطتي الأخيرة.

للأرض جاذبيّة تتوازن بها، وجاذبيّة قلبي أنتِ.

كلّما جلستُ أنتظرك أمام نافذتي، مَلأتُها ببخار أنفاسي، وعندما لا تأتين، أغسلها بدموعي.. يا لرقّة الزجاج عندما ينتظرك معي..! ويا لقسوته عندما يحول بينك وبيني..!

ذكراك عصاي التي أتوكأ عليها، وأهش بها على أحزاني بعدك.

* الفِراقُ ثقبٌ في الذاكرة، يتسرّبُ منه الفرح..

الفرح بَعدك عملٌ لا يليقُ برجل مِثلي..

ينكسِرُ الرّجل عندما يبوح بمشاعره، وتنكسر المرأة عندما تكتمها، أما أنا، فأنكسر كلّما بحتُ إليكِ، أو كَتمتُ عنكِ.

ثمّة أشخاص يملؤون الذاكرة، وثمّة أشخاص نستعيضُ بهم

عنها.

كنتُ كلّما رأيتُكِ تلثُمُ الدهشة وجْهي، فأصيرُ تمثالاً برّاقاً كالرّخام، وقابلاً للكسر كالفخّار..

وجهُكِ بحْرٌ بارِدٌ، عيناكِ فيه طَوْقا نجاة.

عندما أحبّك، يصير جسدي ورقة، ويصير دمي حبراً، ويصير حبّك قلماً.

عندما أحبّك، تصير روحكِ نَفَساً يسكن رئتَيّ ولا يُغادِرْ..

عندما أحبّك، يصير العمر يوماً..

يَرْنو فيه قلبي إليكِ ويُسافِرْ.

كان نداؤكِ لاسمي أحبّ إليَّ من اسمي نفسه.. آهٍ، كم يُشْبِهُ نداؤكِ الشروق كثيراً!

يا قلبي، وقِبْلة الأشياء الجميلة التي في داخلي.. يا قُبَلَ اللقاء الأوّل، وقُبْلة الوداع الأخير.

في مثل هذه اللّيلة، قُلْتِ لي: «كل عام وأنتَ وجودي».

***

لحظات انتظارك أطول لحظات عمري وأكثرها جمالاً.. عندما

أنتظرك، لا أعدّ الدقائق والساعات، بل أعدّ نبضات قلبي. إن انتظار المحبوب أكثر شقاءً من فقده، ولقاء من نحبّ يمنحنا سعادة أكثر ممّا نحتمل.

كل شيء في ينتظر وصولك، حتّى شعراتي البيضاء تنتظرك، ولكن بخجل، فلم يسبق لها أن نظرت إليك.. الشّعرات البيضاء هي بنات الفراق..

إذا كان الفراقُ ذنبك، فلتكن العودة توبتك.

في لحظات انتظارك أتوكّأ على ساعد الأمل برؤيتك، وأسند رأسي إلى جذع اشتياقي إليك، وأستظلّ بحزني، ثمّ أغمض عينيّ حتّى ألقاك فيهما..

فراقك كقِطَعِ الليل المُظْلم والظالم..

حتّى فراقك أحببته، لأنّه صار جزءاً منك.

الحكايات لا تُبدد الغياب، ولكنّها تجعله أخفّ وطئاً.. إن وجه المشتاق يحكي أكثر من لسانه.. وجه المشتاق يحكي سيرة قلبه.

عندما نلقى من نحبّ، يتوب الرّحيل..

اللقاء قيامة المشتاق، الفراق ناره، وأنتِ جنّته.

إن الفرحة بلقاء من نحبّ تُقَزّمُ كلّ فرحة قبله.

الشّوق نار الحبّ، والوفاء ضوؤها.

كل مكانٍ ألقاك فيه يصبح مسقط رأسي الجديد، وعناقكِ شهادة ميلادي.

لقاؤنا كالغروب، تنتشي فيه حمرة الخجل عند تلاحم السّماء والبحر.. السّماء أنتِ، والبحر دموعي.

كنت أنتظرك كجنين ينتظر روحه ليكون شيئاً.

إن لقاء من نحبّ يعيد العمر إلى مقتبله، أما لقاؤك فهو عمري ومثله معه.

لقاؤك يعيد إليّ عمري الذي سرقته الأعوام.. مَن يقطع يد الأعوام من أجلي؟ الحبّ هو السارق الوحيد الذي لا نوصد الباب في وجهه.

كل يوم لا أراك فيه أنزع أوراقه من مفكّرتي.. والشهر الذي لا أراك فيه، أستحي أن أعلّق أوراقه على جداري.

أحبّك وأريد أن أراك ليطمئنّ قلبي..

الفرحة يا عمري لا تُنْبِتُ الأزهار فقط، بل تورِقُها..

وجهُكِ ينبت الفرحة ويوقظ قوس المطر.

عندما تشرقين، تذوب ثلوج الانتظار في عروقي، ويتدفق العمر في أوردتي ويولَدُ الرّبيع.

عندما رأيتك، صارت نظراتنا غابة من أشواق، أشجارها الرضى، وأغصانها الفرح، وأوراقها كفوفنا المعطّرة برائحة الحبّ.. إن للحبّ رائحة تشبه رائحة الرّحيق.

الشمس تشرق من الشرق، وأنتِ كل جهاتك شرق.. الشروق تعريفٌ آخر لعودتك..

عندما رأيتها، أشرق كلّ ما بداخلي، وعندما يشرقُ مَن نحبّ تغرب الدّموع».

***

لم تقوَ شوق على فراق وائل، فقد صار المكان بعده جافّاً وقاتماً. شعرَت أنّ لقاءهما كان حلماً، أو لحظة فرح خاطفة في حياتها. «لماذا تبخل علينا الأيّام بالسعادة، وتسخو بالشقاء!» هذا ما قالته في نفسها، ثمّ جلست وكتبت في مذكراتها:

«ها أنا أجلس أمام بلور النافذة المطلة على المدينة. وها هي عمّان تعود إلى سكونها وإلى العتمة من جديد.. وها هي بعض الأضواء الخافتة المتباعدة خلف نوافذ تلك البيوت المتناثرة على المرتفعات تحاول تبديد السكون..

وحدها النوافذ الوفيّة تحاول قدر المستطاع أن تُخبّئ خلفها ألف حكاية وحكاية! وأوّلها حكايتي معك.. ما أعذب أوّل حديثنا..! ما أكثر تبعثري أمام منتصف حديثك..! وما أرقّ هذيانك أمامي في آخره!..

وائل، يا لحنين التبعثر أمام روحك العذبة...! لقد اكتملت نصف أحلامي بلقائك. علّمتني الحياة أنّه عند منتصف الأشياء تكثر التساؤلات.. فهل نصفيَ الثاني معك سيشبه الأوّل؟ تمايَلَ المساء عندما بعثتَ إليّ «كيف أنتِ يا أنا» فانسكبت روحي بين أحرفك.. كنتَ جاذبيتي ورُكن هذياني.. يا لعذوبة الوقت معك، ويا لقسوة اللحظات بعدك.

ضحكنا كثيراً ذاك المساء حتى ظننت أنني لم أعش مساء قبله. كم أحبّ فرحي معك.. كم أحبّ تلقائيّتي معك.

آه لو تعلم يا صديقي كم تمنيتُ أن أمسك بأناملك حتّى تغفوَ. ما أقسى العواصم حينما تعصم أحدنا عن الآخر. يا عاصمة الحب كوني لي المنفى.

كم تمنيتُ أن تكون بجانبي الآن.. أحياناً، كلّ ما أستطيع فعله هو أن أتمنّى.. فقط أتمنّى..

أتعلم، تمنيتُ أنّني أجلس بجوارك في شرفة بيتنا، فنُطِلّ على عربستان وهي غافية.. كم أعشقك عندما تستفزّك الأغنيات القديمة المنبعثة من داخل المنازل.. كم أحبّك عندما تبوح لي بما يؤلمك، وتتهاوى

الحروف بين شفتيك وتحاول التمسك بها.. فتعجز.. لتمسك بشفتي. عندها يُبحِرُ بنا الهذيان حتّى نرسو على أكتاف بعضنا.. وستخرسُ المدينة.. أنا واثقة من أنّني لن أسمع شيئاً سوى أنفاسك، وسأرقبها طوال الليل.

وائل.. حبيبي، سأواسي روحك.. أعلمُ أنك تبكي لأنّك تودع شيئاً ما في داخلك.. لماذا قدري معك أن أصل متأخرة!

أبي، أخبرني وائل أنّه يبكي أحياناً لأنّ ابنته فقدت أمّها.. لا أدري إن كان يفعل ذلك، ولكنّني سأحبّه أكثر إن فعل. أبي، الرّجال لا يشتاقون إلى النّساء إلاّ عندما يشتهونهنّ.. أمّا هذا الرّجل فإنّه يشتاق إلى امرأة راحلة.. هل تعرف نقاءً كهذا!؟!

سألتُه إن كان يفتقد زوجته، فتوارى خلف دمعته، تماماً كما كنت تفعل أنت.. أخبرني أنّها رحلت بعد عام من زواجهما.. يا لارتباكي حينها.

وائل.. لقد أربكتني عاطفتك، فإن كنت ما زلت تحبها، فيا لقسوة القدر معك.. ولكن تمهّل يا حبيبي، فقد يكون القدر قد أرسلني إليك في الوقت المناسب.. من منا يدري متى يأتي الوقت المناسب..؟ حقّا..؟ من يدري؟ المهمّ هو أنّني معك الآن.

ورَدَت إلى ذهني فكرة خجلتُ البوح بها لك.. عندما قلتَ إنك تكب الرّسائل إلى إحداهنّ جال في نفسي أنك تقول إنّ تلك الرّسائل

مكتوبة لزوجتك الراحلة.. لو تعلم كم من الاحترام شعرتُ به تجاه تلك المرأة.. هل أنا مُحقّة في تحليلي هذا؟ أقصدتَ زوجتك بالفعل أم كنتَ تتهرب من الإجابة؟ لقد ظللتُ أردّد بعد أن انتهت محادثتنا: «خبّصتي يا شوق تخبيص.»

آه يا صديقي لو تعلم كم خشيتُ أن تظنّ أنّني من اللاّئي يقتحمن حياة الرّجال عنوة ليبحثن عن مستقرٍّ بأيّ ثمن!

خشيتُ أن تظنّ أنّني من أولئك اللاّئي يقتحمن حياة الرّجال ليُحرّضْنَهُم على تشويه حياة النّساء اللاّئي عمّرن معهم.. خشيتُ أن أسألك إن كنتَ تقصد زوجتك فترد كأولئك الرّجال الذين يبحثون عن أوّل فرصة ليبرّروا للمرأة الأخرى سبب عزوفهم عن الأولى، رغم إيماني الراسخ أنك لست ممن يشوّه صورة أيّ امرأة، فكيف إن كانت زوجته وأمّ ابنته!

لا تلمنِي لأنّي خشيت من كلّ ذلك، واعذرني أيّها الصديق على عبث الطفل بداخلي.

ليتك تعلم يا صديقي كم أحترم احترامك لخصوصيّة حياتك. كم أتمنّى أن تبقى علاقتنا ضمن إطار فلسفي، فأكون صديقتك في العلن، وحبيبتك على الورق. فالنّساء لا يتوقفن عن مطاردة الرّجال عندما يعلمن بوجود حبيبة.

أبي، طال الحديث بيننا واستمرّ الهذيان. سألني عن عملي..

عن ترحالي، وعن كلّ الأشياء التي تشتني. وأنا كالطفلة معه! أسماها هو «ليلة التخبيص» ضحك من خيالي الواسع، كما سمّاه، عندما أخبرتُه أنّني صرت أنظر إلى المرآة وأنا أتناول العشاء لأشعر بوجود شخص معي يشاركني الطعام.. أبي، كم أخشى أن أفتقده أو أفقده.

سألته عن حاله فتهرّب بحجة أنّ السؤال واسع.. ثمّ عاد وقال إنّ الكل يعرفه.. قال إنّه لا يعرف عن نفسه سوى أنّه يفتّش عنها.. كتاباته أقرب إليه من أيّ شيء آخر.

اختلفنا بعذوبة حول المدن العربيّة، أيّهما أرقى.. عدتُ إلى سؤالي الأوّل حول «التخبيص» فتهرّب وأجّل الحديث إلى الغد. كنتُ أودّ أن أعيد الحديث في الموضوع لأعلم هل يكتب رسائل الخميس لي، أم لزوجته الرّاحلة، ولكنني خشيت من إجابته.

لم أتعلّق به من كتاباته فحسب.. لا.. لا أظنّ أنّها فقط السّبب. ولكنّني لا أعرف لماذا تعلّقتُ به، ولا أذكر متى نُفِثَت روحه بداخلي.. لكن نصوصه كانت سبباً لتقرّبي إليه.. لأتعمّق فيه أكثر، وعندما عدتُ إلى أرشيفه، وجدت نفسي أهوي فيه أكثر.

وصلنا إلى آخر الحديث بعد منتصف الليل.. أغرقتني يا وائل وابتعدتَ. في الوداع جاد الحديث وارتعش الفؤاد، لقد فهمنِي يا أبي.. عند الوداع، شعرتُ أنّه فهم.. شعرتُ أنّه يُحبّني.

قال لي: شكرا لأنّك صديقتي.. وقال: «بعض الأرواح تنساب

بين الأصابع كالماء. وبعضها تتساب بين الأضلع كالدّماء.. شكراً لأنّك تدفقتِ بين أصابعي وأضلعي».

وائل، تدفّقِي بين أصابعك كان بعد جهد منّي لترويض ثورة أمواجي أمامك.

يا من تكتمل معه كلّ الأحلام، يا نفث الحبّ في الأجساد الباحثة عن الأمان. يا صديق ليلي وصاحب روحي.. يا روح البوح، وهذيان الطفولة.. يا أوّل الخطوات الآمنة، ومنتصف الطريق الهادئة، وآخر الممرّات الحالمة.

يا كلّ الأيّام القادمة وإن بَعُدَت.. ويا قادم الأيّام المجنونة.

أحبّك رغم ما كان وما سيكون.. هذا عهدٌ قطعته هذا المساء ولن أتخلّى عنه.

عاهدتكَ يا صديقي أن تبقى حبيبي.. عاهدتك أن ألحق بركبكِ وإن وَلّيْتَ عنّي، عاهدتك أن أسرف معك في عادتي السّيئة، فأسوأ عاداتي أنّني لا أحبّ أن أخسر الأصدقاء وأكافح للحفاظ عليهم، فكيف إن كنت أغذب الأصدقاء!

عاهدتك يا حبيبي أن أبقى ميناء جنونك، حبّك، غضبك، عيوبك، حزنك وفرحك.. فمَارِسْ فيَّ كيفما تشاء ومتى تشاء.

ممتنّة لك يا صديقي أنك وهبت هذا المساء نفحاً من روحك..

ممتنّة لبوحك.. ممتنّة أنك بُحتَ بما كان بداخلي دون كلمة منّي.. ممتنّة لأنّك أعدت للمساء رونقه، فعاد القلب يخفق ..أحبّك».

***

دخل خالد مجلس الملك وقد غصّ بالحضور من كبار مسؤولي المملكة، ولم يكن الملك قد حضر بعد، والبروتوكول يقتضي بألاّ يدخل أحد من العامة بعد دخوله، إلاّ أبناؤه أو أحد أفراد الأسرة المالكة، وحتّى هؤلاء كان دخولهم متأخرين يثير انتباه الضّيوف، وامتعاض الملك.

أخذ يمشي بين الحضور وكأنّه صاحب المكان، فقد أثبت من خلال مشروع توسعة القناة المائية، الذي انتهى قبل عدّة أشهر، أنّه قادرٌ على تطوير المملكة. فحركة التجارة قد بدأت بالنشاط، وانهالت الشّركات العالميّة تزور عربستان، وبدا أنّ بعضها جاد في فتح أفرع تمثيليّة لها. كما وفّر المشروع آلاف الوظائف لأبناء الشعب وبناته، وفتح أمامهم فرصاً جديدة للاستثمار أو العمل في مكاتب الشّركات الأجنبية. واستطاع خالد، بمساعدة وائل وشبكة علاقاته القوية، أن يسخّر له وسائل الإعلام لدعم مشروعه، وإبرازه على صفحات الجرائد، وفي التلفاز الحكوميّ، والإذاعة، أن يصبح نموذجاً لرجل الدّولة الناجح. فقد أخذ بنصيحة وائل وعيّن حوله مجموعة من المستشارين الإداريّين، أو كما يصفونهم في المملكة بـ«الخبراء الأجانب» الذين قاموا أيضاً بالاستعانة بالشّركات الاستشاريّة الكبرى، وشكّلوا شبكة من الخبرات الدوليّة في مجالات الاستثمار، وصار ديوان الملك

هو العقل المدبّر للمملكة. ورغم أنّ خالد لم يحصل على خبرة في الإدارة والاستثمار، فإنّه استفاد من هذا الجهاز الجديد، وأخذ يتعلّم من الخبراء أشياء جديدة كلّ يوم، بل إنّه لم يعد يتّخذ أي قرار حتّى تدرسه مجموعة منهم إلى أن امتلأ بهم مكتبه الشخصيّ، وخصّص منهم مجموعة لا يفعلون شيئاً سوى مساعدته على التّفكير والتحليل.. هذا ما كان ظاهراً للناس، وفي الحقيقة، كان هؤلاء بمثابة معلمين، يُدرّسونه الإدارة والاستثمار. ولم تمضِ سنتان على افتتاح القناة الجديدة، وأرصفتها الحديثة، حتّى صار خالد أقوى رجل في عربستان.

وقف أكبر أبناء الملك (الأمير أحمد) يتجاذب أطراف الحديث مع الضّيوف، وما إن لمح خالداً وهو يدخل من باب المجلس حتّى بدأ يلملم أحاديثه معهم، استعداداً للانسحاب من المجموعة التي تحلّقت حوله. يعلم أحمد أنّ لخالد دور كبيراً في اتخاذ القرارات الكبرى داخل المملكة. فحتّى مع وجود الأمير فيصل، ذي الشّخصيّة القويّة، وبعض رجالات الدّولة الآخرين، يظلّ خالد أكثرهم قرباً من الملك. لم يكن الملك قد سمّى وليّاً للعهد بعد، وهو ما كان يشغل بال أحمد كثيراً لأنّه ما يزال يافعاً.

لم يستطع أن يشارك أحداً هذه الهموم، لأنّ مجرد خوضه في هذا الموضوع قد يثير عليه جلبة في داخل الأسرة، في وقت هو في أشد الحاجة فيه إلى ثقة الجميع. الأمر الآخر الذي كان يشغل بال أحمد، هو أخوه الثاني (الأمير سيف)، فقد كان شرساً ومحباً للسلطة، وقد تناهى إلى سمع أحمد، أنّ سيفا قد قال في أحد مجالسه الخاصّة إلى

بعض المقرّبين منه، إنّه عازم على التحدث مع أبيه في ولاية العهد، فهو يعتقد أنّه الأكثر قوّة وصلابة بين إخوته، ولذلك، فهو أولى بها من أيّ منهم.

كان أحمد يحبّ أخاه الثالث (الأمير سلمان) المُقرّب من أمّه، ويطمح إلى جانب تعيينه وليّاً للعهد، أن يقنع أباه بتعيين سلمان مساعداً لوليّ العهد، ليقطع الطريق على سيف ويخرجه من دائرة السُلطة. وبما أن سلمان لا يزال صغيراً، وضعيف الشّخصيّة، فإن أحمد سيكون الرّجل الثاني في المملكة دون منافس. لم يكن غير خالد قادراً على مساعدته لإقناع أبيه بهذه الأفكار، ولكنّه كان يعرف جيّداً أنّ مفاتحة أي أحد، بما فيهم خالد، في هذا الموضوع، يُعد مخاطرة كبيرة.

عندما رأى خالد أحمداً واقفاً، توجه إليه وحياه:

- مساء الخير يا سموّ الأمير، كيف الحال؟

- بخير يا خالد، متى أراك تحضر المجلس للغداء فقط ودون أوراق؟

ضحك المتحلّقون حول الأمير، وقال أحدهم:

- كيف لنا يا سموّ الأمير ألاّ نحمل أوراقاً وأبوك، أطال الله في عمره، يريد أن يصنع من المملكة دولة متقدمة؟! نحن نعمل ليلَ نهارَ وفق توجيهاته السّديدة، أطال الله في عمره.

لم يكن خالد يحبّ ذلك التزلف، ولم يُرى أو يُسمع يوماً وهو يُمجّد الملك بهذه الطريقة الفجّة، أو يحاول أن يصنع منه أسطورة كما يفعل كثير من المسؤولين. وربما لأنّ خالد يرى أنّه الأقرب إلى الملك لسببين: الأوّل أنّه كان قائد ميليشياته أثناء الثّورة، والثاني أنّه الأكفأ الآن، وخصوصاً بعد نجاح مشروع توسعة القناة دون أن تدفع المملكة ديناراً واحداً.

لم يشأ أن يخوض في هذا النفاق، فقال موجها كلامه إلى الأمير:

- تعوَّدنا سموّكم أن نحبّ ما نعمل، فالعمل بالنّسبة إلينا هواية نعشق ممارستها، ولو انقطعنا عنه لشعرنا بأن حياتنا خاوية، ولكن أتمنّى ألاّ نرهق الملك بكلّ تلك التسلية.

ضحك أحمد، وأمسكه بيده اليمنى بعفويّة في إشارة منه لكي يتقدم معه ويترك الحلقة. فَهِم خالد ما يريده الأمير، وتقدم معه إلى بهو المجلس حيث لا يوجد إلاّ عدد قليل من الضّيوف. كان خالد يحبّ تلك اللحظات التي يمشي فيها قريباً من الملك أو أحد أبنائه أمام الناس، فتلك إشارة كافية إلى أنّه الأقرب من الأسرة المالكة، ولكنّه يعرف أنّ تلك الحركة، على ميزاتها الكثيرة، فإنّها كانت تحمل في طياتها مخاطر جمّة، أقلها إثارة الحسد والكره في قلوب المتناحرين على السّلطة في المملكة، وما أكثرهم. وظهوره إلى جانب أحمد، يدلّ على أنّه من فريق الأمير وداعمٌ له، وحتّى إن لم يكن ذلك صحيحاً، فإن الأمير نفسه يريد أن يرسل هذه الرّسالة إلى الجميع، لأنّه هو في الحقيقة من يريد التقرّب إلى خالد، وكلّما تعامل المرءُ مع الكبار ، بدا

كبيراً.

عندما وصلا إلى بهو المجلس، التفت أحمد إلى خالد وقال:

- إن أبي طموح جدّاً، وأعلم بأن المرحلة القادمة ستكون مرهقة للجميع، ولك أنت بالتحديد.

- فعلاً، فما تحقق في المملكة لا يكفي، ولقد آن الأوان لكي ننفتح على العالم ونخرج من بوتقة إقليمنا الصغير هذا. انظر إلى سنغافورة وهونج كونج ودبي، لو كانت خطط التنمية في تلك المدن مبنية لتُنافِسَ جاراتها فحسب، لما حققت شيئاً. لقد اتخذت تلك المدن قرارات جريئة وقدّمت تضحيات عديدة، ولكنّها غدت اليوم من المناطق التي يشار إليها بالبنان في التقارير العالميّة.

- ولكنّ عملاً مثل ذلك يحتاج إلى فِرَق عمل وأشخاص قادرين على الإنجاز، ورجال ذوي همّة لا تفتُر، ودماء لا تبرد.. أعني الشّباب يا خالد، يجب أن يُفسح المجال للشباب.

- بالتأكيد، هذا ما كرّره الملك أكثر من مرة، فالشّباب، وإن أخطؤوا، فإنّهم لا يسأمون المحاولة، ولديهم دافع داخلي ليحققوا ذواتهم. نحن في حاجة إلى إشعال فتيل المنافسة بين المواطنين، لأنّ المنافسة تأتي بالأفكار الخلاّقة، والأفكار تصنع المشاريع، والمشاريع تصنع المدن، والمدن الناجحة تصنع حضارة.

- لا بدّ أنّ عين أبي لا تهجع طوال الليل، فمسؤولياته أصبحت

أكبر.. إنّه في حاجة إلى من يعينه.

قالها، وعيناه تتنقلان بين خالد، وبين حديقة القصر التي كانت واضحة من وراء الباب الزجاجيّ الكبير الذي يفصلها عن بهو المجلس. أحس خالد أنّه فهم ما يلمح له الأمير، فقرر أن يسايره:

- البَرَكَة بكم يا سيّدي، فوجودكم إلى جانب أبيكم سيعطي المملكة دفعة قويّة. انظر إلى كلّ هؤلاء المسؤولين الذين يحمل كلٌّ منهم أوراقاً، وينتظرون اعتمادها من الملك، كيف له أن ينجز أعمالهم كلها ويفكر في تطوير المملكة في الوقت نفسه؟ ولا تنسَ أنّ المرحلة القادمة ستكون مرحلة انفتاح على العالم أجمع، ما يعني أنّ الاهتمام بالسّياسة الخارجيّة سيشغل حيّزاً كبيراً من وقت الملك واهتمامه.. وعليكم أنتم، أبناء الملك، أن تتحملوا عبء الإدارة الداخليّة للبلاد.

لم يشأ أحمد أن يطيل الحديث مع خالد كثيراً حتّى لا يُشعِره بأنّه يتقرّب منه، ولقد فهم بأن خالد استوعب مُراده من الكلام، إلاّ أنّ خالد فاجأه بقوله:

- ما رأيك لو شرفتنا بزيارة إلى الديوان لأطلعك على الخطط الاستراتيجيّة التي نقوم بإعدادها؟

تفاجأ أحمد بجرأة خالد، ولكنّه علم أنّه رجل يحبّ المغامرة، وعلم أيضاً أنّه القناة المناسبة التي سيمرّ من خلالها إلى ولاية العهد. وافق على طلبه دون أن يعلّق كثيراً لأنّه رأى سيارة أبيه وهي تدخل من

بوابة القصر، فاستعد لاستقباله... مشى بضع خطوات إلى الأمام، أمّا خالد، فتراجع إلى الوراء.

نزل الملك من سيارته مبتهجاً، فانفرجت أسارير الحضور وتفاءلوا؛ فلعلّه يعتمد الأوراق التي أتى بها كلّ واحد منهم. سلّم على الجميع برفع يده وهو يمشي بينهم، حيث اصطفوا على يمين المجلس ويساره، وهم يرفعون أياديهم له لكي يردّوا تحيته بمثلها.

كان يمشي كسفينة تتمايلُ بها الأمواج يمنة ويسرة، ويتّكئ على عصا نُقِشَت قبضتها على شكل رأس جاموس إفريقيّ. من صفات الجواميس الإفريقيّة التي تسافر في قُطعان كبيرة أن يتميّز القائد بينها بضخامة قرنيه، وكان الجميع يُفسح له المجال عندما يتجوّل بين القطيع ويبقون على مسافة منه. كما أنها من أكثر الحيوانات التي تحترم التراتُبيّة الاجتماعيّة وسُلّم السّلطة. وعندما وقف في وسط المجلس، بدا وكأنّه صارية اشرأبّت في وسط سفينة عملاقة يفخر البحر بحملها بين أمواجه. التفت إلى أحد رجال الأعمال الكبار في السن، وأشار بيديه. تقدم الرجل وجلس على جانبه الأيسر، أمّا أحمد وإخوته وفيصل، فقد اصطفُّوا على يمينه.. تجاذب الملك أطراف الحديث مع رجل الأعمال لبضع دقائق، ثمّ نهض واتجه إلى قاعة الطعام، يتبعه أبناؤه وأخوه والضّيوف.

بعد الغداء، تقدم إلى مجموعة من الإعلاميّين الذين يكتبون في الصّحف المحلية، ألقى عليهم التحيّة، ثمّ وقف معهم في حلقة صغيرة وتجاذب معهم أحاديث متفرقة، سألهم فيها عن بعض القضايا

العامّة، ولكن وائل لم يُفسح المجال لأحد غيره للحديث. فقد عيّنه الملك قبل عدّة أشهر مسؤولاً عن جميع وسائل الإعلام الحكوميّة في المملكة، وصار أحد رجال الدّولة المتنفذين.

بعد أن أنهى الملك حديثه مع الضّيوف أشار بيديه إلى خالد، فاقترب منه وسلّم عليه. سأله عن أوضاع الديوان وآخر المستجدات، ولكن بصوت منخفض حتّى لا يسمع الحضور ماذا يقول. عَلِمَ خالد أنّ الملك أراد من تلك الحركة أن يخبر رجال دولته بالمكانة التي يحظى بها خالد عنده، وكان يحسن تمثيل تلك المسرحيّة بإتقان، فيستمرّ في الحديث حول أيّ شيء إلى أن يصل الملك إلى كرسيّه، ثمّ ينسحب، ليبدأ المسؤولون بالتوافد على الملك، ويعرضوا عليه موضوعات تخصّ المملكة، كلّ حسب مؤسّسته، فيحصل على اعتماد أو رفض.

في تلك الأثناء، كان فيصل يتحدث مع مجموعة من الضّيوف ولكنّه لا يسمع ما يقولون، وكانت عيناه مسمّرتين على خالد وهو يضحك مع الملك.

عندما انتهت لقاءات الملك بالمسؤولين، نهض من مكانه وتوجه إلى غرفة جانبيّة تسمّى «المُخْتَصَر» وهي عبارة عن مجلس صغير يلتقي فيه مع الخاصّة من أجل التحدث في شأن مهم وسريّ. لم تكن دعوة أحد المسؤولين إلى «المختصر» شيئاً بسيطاً، فالكل يعرف أنّ دخوله إلى تلك الغرفة الصّغيرة يشبه دخول مغارة علي بابا، حيث يمكنه أن يطلب ما يشاء من الملك بعد انتهاء الحديث الخاصّ بينهما دون أن يعرقله أحد. كما أنّ دخول «المختصر» يدلّ على أنّ الموضوع

الذي أتى من أجله ذلك الشَّخص مهم بالنّسبة إلى المملكة والملك. وكان الدخول منوطاً بدعوة شخصيّة من الملك نفسه، حتّى أبناؤه، لا يستطيعون الدخول دون دعوة.

أشار الملك بيده إلى خالد داعياً إيّاه إلى «المختصر» حينها شعر خالد أنّ جميع الأعين قد تركزت عليه، وأحسّ بأن نظرات الحضور قد تحوّلت إلى سهام تكاد تخترق جسده وتمزقه. لم يأبه بهم كثيراً، فهو يعرف أنّ أحد أثمان الصعود في سلّم السّلطة هو كره الناس له، ويعرف أيضاً أن الذي يصعد سلّم السّلطة، كمن يتسلّق جبلاً عظيماً، كلّما نظر إلى الأسفل شعر بالخوف، وقد يتراجع عن الصعود، ولذلك عليه أن يُبقيَ عينيْه مركّزة على القمّة، التي قد لا يعرف ما هي بالضبط ومتى سيصلها، ولكن تكفيه منها لذة الصعود.

جلس إلى جوار الملك واستلّ أوراقه من ملفه الذي كان يبدو مليئاً دائماً، فقد كان يحرص على ألاّ يلتقي بالملك وهو خالي الوفاض، وكانت تلك إحدى نصائح وائل التي أتقن تطبيقها جيداً. تنوعت الأوراق المكدّسة داخل الملف بين مشروع مهم أو فكرة جديدة. فخالد لا يحمل أخباراً سيّئة أبداً، ولم يكن يطلع الملك على المشكلات التي تواجهه في عمله، سواءً كانت سياسيّة أو مالية، بل كانت أموره «طيبة» كما يقول دائماً.

أخرج ملفّاً كبيراً كُتِبَ عليه «مشروع بورصة الأوراق الماليّة» وكان ممهوراً بختم إحدى الشّركات الاستشارية الشهيرة في العالم، وكان الملك يستمتع برؤية تلك الشعارات التي تطمئنه إلى أنّ تقارير

خالد ليست محاولات شبابية غضّة، وإنما دراسات عالميّة، أُجريت بأعلى درجات الحرفية.

بدأ بعرض المقدمة التي تتكون من عدّة صفحات، واضعاً الدّراسة كاملة أمامه على الطّاولة وهو يشرح حتّى يقتنع الملك بأنّه وفريقه، يعملون ليلَ نهارَ، وبأنّهم لم يكتبوا عدة أوراق فقط. ولا يفوته أبداً الاطلاع على تفاصيل تلك الدراسات، وفهمها جيداً لكي يكون جاهزاً للردّ على أيّ سؤال.

عندما انتهى الملك من قراءة تلك الحزم المختصرة، نظر إلى الطّاولة أمامه، فرأى حزماً أخرى من الأوراق. شعر بالارتياح وبسط جسده على كرسيه الوثير، وقال:

- هل تظنّ أنّنا سننجح في هذا يا خالد؟

- ستنجح، فأنت تريد رفعة بلدك وتحسين حياة الإنسان فيها، وأي شيء أكثر من هذا إخلاصاً. كان بإمكانك أن تعيش حياتك في أفضل منتجعات العالم، وتستمع بكلّ ملذات الدّنيا، دون أن يسألك شخص عمّا تفعل، تماماً مثلما يفعل بعض قادة العالم، ولكنك منذ توليت أمر المملكة وأنت تعمل ليلَ نهارَ.

اعتدل الملك في جلسته، ووضع نظارته على عينيه، وعاد ينظر إلى الأوراق مرّة أخرى، ثمّ سأل خالد:

- هل لديك الأشخاص المناسبون لهذه المهمّة؟

لم يكن خالد يضع أسماء الأشخاص المرشحين في الأوراق التي يرفعها إلى الملك، وإلاّ سيبدو وكأنّه يفرضهم عليه، بل يؤجّل الترشيحات حتّى يقتنع الملك بالمشروع ثمّ يقترحها عليه شفاهة، علّه يختار منها أحداً:

- نعم، لدي فريق عمل عاد للتو من سنغافورة ودبي وتعلموا من تجربتهما، إلى جانب أنّني سأكون رئيس ذلك الفريق.

لم ينتبه الملك كثيراً لترشيح خالد نفسه، أو هكذا بدا وهو يقلّب صفحات المشروع، فليس لديه غيره ليثق به، كما أنّه يعلم أنّه لا أحد غيره يستطيع القيام بهذا النوع من المهمات:

- جيد.. ما الخطوة القادمة؟

- أقترح أن يكون إطلاق البورصة بمنزلة حدث وطنيّ، نجمع إليه المسؤولين والموظفين الحكوميّين.. وما رأيك في أن ندعو بعض السفراء أيضاً؟

- تقصد سفير شرقستان؟

يعلم خالد أنّ الملك يفهمه أحياناً أكثر من نفسه، ولذلك فضّل ألاّ يراوغه:

- إنّهم شركاؤنا يا سيّدي!

-وهناك من يقول إنّهم أعداؤنا!

-لا يقول ذلك إلاّ أعداء التنمية. السّياسة لعبة المصالح، ومصالحنا أكبر من خلافاتنا معهم.

-ادعُ مَن شئت، ولا تُراجعني في هذه التفاصيل مرّة أخرى.

***

اجتمع خالد بمستشاريه الماليّين وسأل (سامي) الذي اقترح عليه إنشاء بورصة للأوراق الماليّة: «كيف لم يفكر أحد بهذا المشروع من قبل!» ولم ينتظر الإجابة، حيث بدا سؤاله وكأنّه يفكر بصوتٍ عالٍ. ثمّ سأله عن كيفية إنجاز مشروع مثل هذا فردّ عليه:

- نحن في حاجة إلى إصدار بعض القوانين التنظيميّة لعمل السّوق وكيفيّة إدراج الشّركات، ومن ثمّ نضع اللائحة الداخلية، وبقية التفاصيل يمكن أخذها من قوانين الأسواق العالميّة أو أحد أسواق الدول المجاورة.

- ومن في رأيك يمكنه أن يساعدنا في هذا الموضوع.

- جهة واحدة فقط، البنك المركزيّ.

لم يتردد خالد، كعادته، في إعطاء أحد مستشاريه مهمة شخصيّة:

- هذه إذاً مهمتك. لديك شهر واحد، أريدك أن تزور البنك المركزيّ وتخبرهم أن الملك يريد تأسيس بورصة سوق للأوراق الماليّة، ثمّ أريدك أن تدرس الموضوع من جيداً، وتعدّ لي تقريراً مفصلاً.

- ولكن يا سيد خالد، الموضوع ليس بهذه البساطة، فهو معقّد ويحتاج إلى عدّة أشهر ليكون جاهزاً.

قالها سامي، وقد بدا التردد والارتباك في صوته. قال خالد وهو يضرب بكوب قهوته على الطّاولة:

- إذا كنت لا تستطيع إنجاز المشروع، فقل لي من يستطيع؟ لا يمكننا الانتظار لعدّة أشهر.

تذكر سامي أن خالد قائد عسكريّ، لا يعرف المساومة، ويخوض كلّ مشروع كأنّه معركة، فقرّر أن يفعل ما يأمره به.

- ماذا قلت، هل تعرف من هو أهل لهذه المهمّة؟

قالها دون أن ينظر إليه، وتظاهر بأنّه مشغول في الاستمتاع بقهوته.. كان يعرف جيّدا أنّ سامي هو الوحيد القادر على إنجاز هذه المهمّة، إلاّ أنّه لم يشأ أن يشعره بأهمّيته. كما أنّه يعلم أنّ كلّ من في المملكة اليوم يتمنّى أن يعمل في الديوان، علّه يحظى يوماً بلقاء الملك.. هكذا كان يفكر.

- سأذهب إلى البنك المركزيّ، وسأبدأ بالدّراسة، ولكن قد

يستغرق الأمر أكثر من شهر.

قالها بسرعة، فردّ خالد وهو يرتشف آخر قطرات من قهوته دون أن ينظر إليه:

- أريد المسودة الأولى للمشروع على مكتبي خلال شهر، ثمّ خذ الوقت الذي تريد.

لا يهتمّ خالد بتفاصيل المشاريع، فبعد مشروع القناة بات يثق بحدسه كثيراً، ويعرف كيف يقتنص الفرص النادرة عندما تلوح في الأفق. كما أنّه لا يحتاج إلاّ إلى المسوّدة الأولى ليتيقّن من أنّه يسير في الطريق الصحيح، ومن ثمّ يحمل تلك المسودّة ويعرضها على الملك.

يعرف جيّدا أنّ تأسيس بورصة للأوراق الماليّة يعني قفزة نوعيّة لاقتصاد المملكة، كما أنّه سيشجع الشّركات الكبرى للاستثمار فيها. وكان أحد أهدافه تشجيع الملك وكبار رجال الأعمال ليستثمروا في المملكة مثلما يستثمرون خارجها، فالبنك الجديد في حاجة إلى سيولة، وخالد في حاجة إلى البنك لتمويل مشاريعه القادمة، التي لا يعلم ما هي، وما هو حجمها.. وكلّ ما يعلمه هو أنّ عجلة الحظ بدأت تدور لصالحه، وكلّما رمى أحجار النرد من يديه، استقرت على الرقم الذي اختاره في نفسه مسبقاً.

***

في غرفة الاجتماعات الرئيسيّة، كان وائل يجهّز العرض الذي

سيقدمه خالد إلى الأمير أحمد، فلقد لبّى أحمد دعوته لزيارة مكتب الملك، وإن جاءت تلك التلبية متأخرة، فلم يرغب أن يُشعر خالد بأنّه في حاجة إليه، وأنّه مستعدّ لفعل أيّ شيء مقابل أن يُرشّحه عند أبيه لولاية العهد.

كانت مهمة وائل في ذلك الاجتماع أن يعرض الخطة الإعلامية للمملكة. فلقد عيّنه خالد مستشاراً للشؤون الإعلاميّة بالديوان، بعد تعيينه مسؤولاً عن قطاع الإعلام في المملكة. واستطاع وائل أن يُلمّع صورة خالد في المجتمع من خلال المقابلات التي أجراها له في وسائل الإعلام، والتقارير التي تُصدرها صحيفته عن مشاريع المملكة الجديدة التي يقودها.

ولكنه يعرف أنّه لو تفوّه بانتقاد صغير تجاه أحد مشاريع خالد، فلن يعود له مكان في السّلطة. وعلى الرّغم من أنّ خالد كان يتظاهر له ولغيره من مستشاري الديوان بأنّه رجل حياديّ ويقبل النقد، فإن وائل، كان مدركاً لطبيعته العسكريّة.

كانت زيارة الأمير إلى ديوان الملك غير اعتياديّة، حيث إنّها أوّل زيارة لأحد أبناء الملك. استأذن خالد الملك في ما سيعرضه على ابنه، وقال له إنّ الأمير أحمد هو الذي طلب الزيارة. سمع خالد، بعد أن قال هذه الجملة، صوت نَفَس طويل انطلق من صدر الملك، فأردف قائلاً:

- لقد كبر أحمد يا سيّدي، وصار في مصافّ الرّجال.

ردّ الملك بهدوء:

- أعلم ذلك يا خالد.. وأدركتُ حين رأيته قبل أيّام، وهو يتحدث إلى بعض رجالات الدّولة في المجلس، أنّه قد كبر بسرعة.

كانت تلك إشارة كافية لكي يتوقف خالد عن الحديث، فيكفيه أن يُدخل الملك في مزاجٍ مّا، ويتركه يسبح في مياهه الراكدة، حتّى إذا ما انقضت بضعة أيّامٍ، تحوّل ذلك الماء الراكد إلى نهرٍ جارٍ، تتبعه قرارات حاسمة في شأن من شؤون المملكة.

حرص خالد أن يأخذ أحمد في جولة بين مكاتب موظفي الديوان، فذلك كفيل بإطلاق إشاعة في المملكة، مفادها أن أحمد سيصبح وليّا للعهد. كان يعرف كيف يصنع الإشاعات دون أن تكون له يد مباشرة فيها، ويُدرك أنّ إشاعة مثل تلك ستتناهى إلى مسامع الملك، وستشجّعه على اتخاذ القرار الصائب. كان خالد قلقاً إذا ما حدث مكروه للملك، أن يترتّب على ذلك دخول الأسرة المالكة في صراع على السّلطة، ما يعني توقف عجلة التنمية في البلاد، والأهم من ذلك، فقدانه لمكانته فجأة. بل إنّه يُدرك تماماً أنّ فيصل سينقضّ عليه، مثلما ينقض الضبع على فريسة وحيدة. فرغم صمت فيصل طوال تلك المدة، إلاّ أنّ خالد يعلم أنّه الأكثر كفاءة في الأسرة لولاية العهد، فهو أكبر سنّا من أبناء أخيه، وأكثر منهم علماً وخبرة.

حاول وائل لفت إنتباه أحمد من خلال إقحامه لبعض الجمل الإنجليزيّة ثمّ الفرنسيّة في حديثه، إلاّ أنّ أحمد لم يبدِ اهتماماً به،

فالأمراء قد اعتادوا تجاهل محاولات الناس للتقرب منهم.

خرج أحمد سعيداً بالزيارة، وكان مهتما جدّاً بما سمعه من خالد وفريق عمله، وفي المساء، تحدث مع أبيه عن الزيارة وأثنى على خالد والمشاريع التي يقودها الديوان. كان ذلك أحد الأهداف التي استطاع خالد أن يحققها من خلال الأمير الصّغير، فلا بدّ أن يحرص على ألاّ يُقال عنه أمام الملك إلاّ كلّ خير، بل لا بدّ أن يستمرّ المديح والإطراء على عمله، على الدوام، حتّى يوقن الملك ألا أحدَ أفضل منه لذلك المكان. يدرك خالد الآن أنّه لم يعد صديق الملك ورفيق كفاحه؛ بل مجرد مسؤول حكوميّ، وعليه إن أراد أن يستمرّ في منصبه ويحافظ على سلطته، أن يستمرّ في إبهاره وتلبية احتياجاته.

جلس أحمد يفكّر في تلك اللّيلة، عندما شعر أنّه على وشك أن يصبح وليّا للعهد، في كيفية إزاحة شقيقه سيف من طريقه. فمجريات الأحداث تشير إلى قرب صدور قرار التعيين، ولا بدّ أنّ الملك سيعيّن أبناءه تباعاً، وعلى مراحل غير متباعدة، في مناصب قياديّة. وإذا لم يتحرك الآن، فإن هناك احتمالاً لمنح سيف منصباً رفيعاً.

كان تابعه سلطان، الذي تربَّى معه منذ الصّغر، يشعر بما يقلق سيّده وصديقه، فقرّر أن يفاتحه في الأمر. وعندما دخل الأمير غرفته للنوم، قال له:

- تبدو قلقاً!

- جدّاً.

- ممَّ؟

- أشياءٌ كثيرة تفوق تصوّرك.

- أشياء مثل أخيك سيف؟

التفت ناحيته وقد طار حاجباه إلى الأعلى وكأنّهما طائران اختطفا عينيه:

- ماذا تقصد!

- أعطني الأمان أوّلاً.

- لك الأمان.. تحدث وإياك أن تقول غير ما يدور في خلدك بالضبط.

- أنت لا تريد أن يكون لسيف منصب حكوميّ، فهو إن تمكن من المنصب، سيعمل على وضع عراقيل أمامك لكي تفشل، فيحدث أباك بأخذ مكانك في المستقبل. أعرف سيف جيداً، إنّه متهور ومغامر إلى أبعد الحدود.. أليس هذا ما يشغلك؟

- إنّه أخي، ولكنّه يكرهني.. وأنت تعلم ذلك. أريده بعيداً عن طريقي فقط، ولكن لا أريد أن أؤذيَه.

- يمكنني أن أساعدك، ولكن بشرط واحد.

- وتفرض عليّ شروطاً أيضاً!

- كلا يا سيّدي، ولكن اعتبره طلباً ورجاءً، وليس شرطاً.

- قل ما هو؟

- لا تتدخل في عملي، ولا تسألني عمّا أفعل. امنحني فقط بعض الوقت، وسيحصل ما تريد.

صمت أحمد قليلاً ثمّ قال بنبرة المقتنع الذي لا يرغب في إبداء اقتناعه:

- إنّه أخي يا سلطان، وإياك أن تؤذيَه.

- إنّه بمنزلة أخي أيضاً، أم نسيت أنّني قد نشأت معكم في البيت نفسه؟

لا يعرف سلطان من والديه، فهو من اللقطاء الذين يؤتى بهم إلى قصور الأمراء بعد أن تركهم ذووهم أمام عتبات إحدى المستشفيات، وكان الأمراء يستعملونهم في أمورهم الخاصّة، وفي حاجاتهم السريّة، وكان هؤلاء يحسنون كتم الأسرار، فأمراؤهم بالنّسبة إليهم كلّ حياتهم، وغضبة واحدة منهم، كفيلة بأن ترميهم خارج القصر ليقضوا حياتهم مشرّدين في العراء.

يعرف سلطان أنّ سيفاً مهووس بالفتيات، ومستعدٌّ لدفع آلاف الدنانير لينام مع فتاة جميلة. اتّصل بإحدى النّساء اللاّئي يُطلق عليهن جَدَلاً لقب «خطّابة» وطلب مقابلتها على الفور. كانت خطته هي إرسال فتاة جميلة تثق بها الخطابة إلى الأمير سيف، فتاة لا تكون فائقة الجمال فقط، ولكن ذكيّة وجريئة. واشترط عليها أن تكون كولومبية. فكان له ما يريد.

وبعد أن تأكد من أن الأمير تعلق بالفتاة الجديدة، وصار لا يستطيع مفارقتها، طلب من الخطابة أن يجتمع بالفتاة. جلس معها، ووعدها بإعطائها مائة ألف دينار لتقوم بمهمة سرية لا يجب أن يعرف بها أحد، حتّى الخطابة نفسها.

كانت عينا سلطان البارزتان من وجهه واللتّان لا تكادان ترمشان، كفيلتين بإدخال الرعب في عيني الفتاة. سألته عن المهمّة، فقال لها:

- عندما تكونين برفقة سيف، وبعد أن تتأكدي من أنّه قد سَكِرَ تماماً، ضعي له قليلاً من هذا المحلول في الكأس دون أن يشعر.. القليل فقط كل يوم، وبعد أن يُدمن على الشراب أخبريني.

انطلقت الفتاة وهي تحمل المحلول في حقيبتها، والتعليمات في رأسها، واستمرّت تصب كما شرح لها سلطان، وفي كلّ مرّة يشرب فيها سيف من ذلك المحلول، يتحوّل إلى شخص آخر، عصبيّ جدّاً، ويريد أن يمارس جميع أنواع الجنس معها طوال الليل. كان المحلول

عبارة عن خلطة من الكوكايين وبعض المواد المُخدرة التي كان سلطان يتعاطاها في كولومبيا، عندما كان يسافر هناك. وعندما يختلط المحلول بالمشروبات الكحولية، فإنه يمنح السعادة والثقة بالنفس في بادئ الأمر، ويدفع الرجل لممارسة الجنس أكثر، ولكن الإفراط فيه يُفقده صوابه، ويؤدي إلى خلل في وظائف الدماغ، فيتخيل المدمن أشياء غير صحيحة، وتضعف ذاكرته، وقد يؤدي به الاستمرار في تعاطيه إلى موت مفاجئ.

بعد أشهر صار سيف مدمناً على خلطة الشراب والمحلول، فسمّاها باسم الفتاة تيمنّاً بها بعد أن أخبرته بأنه من اختراعها. أدرك بأنه مدمن على نوع من المخدرات، ولكن الأمر لم يكن ذا أهمية بالنسبة إليه، فهو قادر على شراءه، كما أنه يدفعه لممارسة الجنس والاستمتاع بحياته.

عادت الفتاة إلى سلطان وأخبرته بأمر الأمير، فأمرها أن تُغريه بالسفر معها إلى كولومبيا والتعرف على أصناف أفضل. اقتنع الأمير وسافر مع مجموعة صغيرة من أصدقائه إلى هناك وجلسوا أسبوعاً كاملاً، ذهبت بهم الفتاة خلاله إلى أكثر الحانات صخباً، وذاقوا فيها أجود أصناف المخدرات.

عندما عادوا من رحلتهم، كان سيف وأصدقاؤه قد بلغوا مراحل متقدمة في الإدمان، لا يكاد أحدهم يفيق حتى يأخذ جرعة أخرى لتعيده إلى غيابة النسيان وانفصام الشخصية. استمروا على تلك الحال لعدة أشهر، وبينما كانوا يتعاطون ذات ليلة، غفى أحدهم على

كتف سيف فجأة. دفعه الأمير غاضباً فسقط الفتى على الأرض. هرع الخدم، الذين كانوا يحيطون بالمجلس طوال الوقت، لإيقاظه ولكنه لم يستجب. اتصل أحد الحراس بالطبيب فجاء على الفور. وبعد أن فحصه أعلن لهم أنه قد مات. دخل سيف في نوبة ضحك وبكاء هستيري حتى أغشي عليه. أمر الطبيب الخدم بنقله إلى السيارة وحمله إلى المستشفى فوراً، إلا أن كبير الخدم منعهم وقال للطبيب إن عليه علاجه هنا. اتصل الطبيب بالعيادة وطلب مجموعة أدوية وأدوات لإنقاذ سيف من الجفاف الذي بدا على وجهه. نقله الخدم إلى غرفته، وعندما وصلت الأدوية، هرع الطبيب إلى غرس إبرة المحلول المغذي في ذراعه. ظل بجانبه بضع ساعات حتى اطمأن بأن جسده بدأ يرتوي. قال لكبير الخدم إنه يحتاج إلى عناية خاصة، وعليهم علاجه بسرعة إذا أرادوا أن يُجنّبوه مصير صديقه.

***

كلّما اقترب من الشجرة، ارتفع صوت زئير الأسد وحاصره من كلّ جهة. تلّفت حوله، ولكنّه لم يستطع أن يرى شيئاً من شدّة الظلام. نظر في كلّ اتجاه دون جدوى، إلاّ أنّ زئير الأسد كاد يخترق قلبه قبل أذنه. يشعر به وهو يقترب، يسمع ضربات خطواته الضخمة على الأرض. لا بدّ أنّه الأسد نَفسُه. حاول تسلّق الشجرة، ولكن رجليه لم تقَويا على حمله. تكاد أنفاس الأسد التي تحمل رائحة الموت تخنقه...

زأر الأسد زئير القتال. تسارعت خطواته فهزت الأرض من تحته كبركان يثور.. برزت عيناه وكأنّهما شهابان ينقضّان على الأرض

من أعلى السّماء. حانت الساعة.. ها هو يغرز أنيابه في عنقه، ولكن..

استيقظ من نومه على رنين الهاتف. قالت له زوجته مراراً إنّ نغمة الأسد التي يحتفظ بها في هاتفه النقّال، لتُنبئه باتصال القصر، ستقتله في يوم مّا.

هرع إلى هاتفه ورجلاه لا تقويان على حمله مخلّفاً وراءه آثاراً من العرق الذي اكتسى به جسده.

وضع سمّاعة الهاتف على أذنه وهو يتنفس بسرعة:

- نعم؟

ساد صمت رهيب في الغرفة المظلمة، تذكّر الأسد، فتلفّت حوله في حركة لا شعوريّة.. «تبّاً لذلك الأسد».. قال في نفسه..

بدّدت حشرجة صوت مسؤول القصر السكون الأبديّ الذي أطبق على المكان.

توسّعت حدقتا عينيه وهو ينصت برهبة لصوته الذي كان يبهت أكثر كلّما تكلم، وخُيّل إليه أنه شعر بحرارة أنفاسه وهي تنبعث عبر الهاتف.

أشعلت زوجته ضوءاً خافتاً في انتظار أن يخبرها بالخطب. أخذَت قسمات وجهه تنذر بشيء عظيم.

وضع الهاتف، وأطرق في سكون كئيب شتته سؤال زوجته:

- ماذا جرى؟

لم تكد تنهي سؤالها، حتّى انزلق خالد داخل ثوبه، مثلما ينزلق خيط رفيع في إبرة. فلقد تعوّد منذ مدّة أن يكون على أهبة الاستعداد، ليلاً أو نهاراً. ركب سيّارته وانطلق يسابق الريح.

كان الملك يقضي عدّة أيّام في مزرعته خارج العاصمة. رنّ هاتفه:

- آسف على إزعاجك في هذه الساعة المتأخرة يا سيّدي، ولكن هناك مصيبة.

- ما الأمر؟

- الأمير سيف، مات أحد رفاقه في بيته، ويبدو أنه ليس بخير. قال لي الخادم إنهم استدعوا له الطبيب.

- وأين هو الآن؟!

- في غرفته. منعت الدخول والخروج من بيته حتّى لا ينتشر الخبر.

كانت تلك أول مرّة يشعر فيها خالد أنّه أقوى من الملك، واستغرب من نفسه وهو يتحدث معه بلهجة المسيطر. ساد صمتٌ طويل، شعر

خلاله الرجلان أنهما قد عادا إلى معسكر الثوار، حيث كانت الأخبار السيئة تأتيهما ليلاً. بدّدت ذلك الصمت أنفاس الملك المتسارعة:

- لا تقلق يا سيّدي، ليس للفتى المتوفى أهل، ولن يعلم أحد بما جرى، سأحرص على ذلك بنفسي.

أقفل الملك الهاتف، واتّكأ بمؤخرة رأسه على ظهر السّرير، وأطرق في التّفكير. دخل خادمه كما تعوّد كلّما سمعه يتحدث في الهاتف ليلاً:

- خيراً يا سيّدي، أراك شاحباً؟

- عُدْ إلى غرفتك.

قالها بصوت هادئ وعيناه مركزتان على السقف.. تردد الخادم، ولكنّه لم يرد أن يثير غضب سيده.

بعد ساعتين، كانت الجثة قد دُفنت، ولحسن الحظ، فإنّه لم يكن في بيت سيف ذلك اليوم أيّ من الضيوف الذي يفدون عليه أحياناً، وكان الخدم وأصدقاؤه المقربون فقط من شهدوا الواقعة. جمعهم خالد وهدّدهم بنفسه بإدخالهم السّجن إلى الأبد إن تحدثوا في الأمر. وعندما رآهم يعرقون أمامه ويبلعون ريقهم، تأكد من أنّهم فهموا ما قال واستوعبوه جيداً. توجه إلى غرفة سيف للاطمئنان عليه، وعندما دخل وجده نائماً كحمل وديع. خرج من عنده وانطلق يسابق الريح ليطمئنّ على حال الملك.

آثر الملك ألاّ يخرج حتّى لا يشعر الخدم والحرس أنّ هناك حدثاً جللاً. وكان خالد حذراً كذلك، فتسلل إلى داخل المزرعة عبر البوابة الجانبيّة التي لا يقف عليها إلاّ حارس واحد، واستوثق منه ألاّ يخبر أحداً أنّه مرّ من هنا اللّيلة.

جلس الملك في شرفة غرفته يحتسي القهوة. استغرب خالد عندما رآه يرتدي ثياباً تدلّ على أنّه ينوي الخروج. شعر بدخول شخص مّا، إلاّ أنّه بقي مكانه يحتسي قهوته دون أن يبديَ أيّ علامة على اهتمامه بما يدور حوله.

- مساء الخير يا سيّدي.

- ماذا جرى؟

- دفنّا جثة الفتى، أما الأمير سيف، فإنّه نائم في غرفته. يقول الطبيب إن الفتى مات بجرعة مضاعفة من مخدر ما، ولكنه غير متأكد حتى الآن.. ويقول أيضاً..

تردد قليلاً ثم أكمل وهو مطأطأ الرأس:

-ويقول إن الأمير قد يكون مدمناً كذلك.

استمرّ الملك في احتساء قهوته ببطء وكأنّه يستمتع بآخر كوبٍ في حياته، ثمّ بدأ يتكلّم وهو ينظر إلى الحديقة التي امتدت أمامه:

- عندما كنت صغيراً، كان والدي يتمنّى أن يُرزق بأبناء غيري، وكان يقول لوالدتي إنّ البنات وجوه خير، ولكن الأبناء سيساندونه عندما يكبر، وسيساندون بعضهم في الحكم بعد رحيله. إلاّ أنّ الله لم يرزقه إلاّ أنا وفيصل. وعندما رُزقت بثلاثة أبناء حمدت الله كثيراً لأنّه منحني رجالاً سيساندون بعضهم في الحكم يوماً مّا.

- وهم كذلك.

تجاهل الملك تعليق خالد واستمرّ في حديثه:

- كنت أفكّر في ولاية العهد مؤخراً. أحمد هو الأكبر بين إخوته، وهو الأولى بها، ولكن.. ماذا عن الآخرين، بماذا سيرضون! رحم الله أبي، لم يعرف أنّ الله قد لطف به عندما لم يرزقه غير ولدين فقط.

أتعلم يا خالد؟ سيف كان الأصلح لولاية العهد. فأحمد طيّب جدّاً إلى درجة السّذاجة في بعض الأمور، كما أنّه لا يستطيع احتمال المصائب، أما سيف، فإن له قلب أسد.. وُلد قائداً.. لكنّه أصبح مجرماً الآن.

قالها وهو يضع فنجانه على الطّاولة بصعوبة حتّى كاد يسقط من يده.. أراد خالد أن يعلّق على كلامه ولكنّه تردّد، فقد أحس أن المقام لا يسمح له بالتدخل، وشعر أن الملك أراده أن يسمع فقط.

ظلّ الملك محدّقاً في الظلام قليلاً، ثمّ قال بهدوء:

- هيّا بنا قبل أن تطلع الشمس.

انطلق الاثنان في سيارة خالد، وعندما اقتربت السّيّارة من البوابة، أخفض الملك رأسه لكي لا يراه الحارس.

استفاق سيف قبل وصول الملك بقليل، وبدأ يتلفت حوله مستغرباً من حالته.

صرخ على الخادم فدخل عليه مع الطبيب. سأل الطبيب عن سبب إعطائه المحلول المغذي فقال له إنه لا يبدو على ما يُرام وعلامات جفاف حاد بدت واضحة على وجهه. صرخ فيه وأمره بنزع المحلول فوراً، ثم طرده مع الخادم خارج الغُرفة. نهض من على السّرير وملأ لنفسه كوباً من آلة القهوة الموجودة في الغرفة، وما إن شمّ رائحة البنّ حتّى باغتته الذاكرة. تذكر أنه كان يتعاطى مع أصدقائه، وتذكر طعم الخمر الذي كان يرتشفه معهم، وتبادر إلى ذهنه شكل أحدهم وهو يخلط المخدرات في الكؤوس. ثم قفزت إلى ذاكرته صورة صديقه وهو يسقط على الأرض.. «يا للهول» قال في نفسه.. سقط كوب القهوة على الأرض وانكسر. جلس على السّرير، ووضع يديه على رأسه.

فُتح الباب ودخل الملك يتبعه خالد. تجمّد الدم في عروقه، وانعقد لسانه عن الكلام.. أراد أن يمسك بيد أبيه ويقبلها، سحب الملك يده ورفعها عالياً ثمّ هوى بها على وجهه، فارتمى أرضاً بجانب أشلاء الفنجان المتناثرة. كانت تلك أول مرّة يضرب فيها بزاز أحداً من أبنائه.. ثم قال بصوت يَهْدِرُ كالبعير:

- قم وانظر إلى نفسك في المرآة وسترى أنك قد تحوّلت من أمير كريم إلى وحش ضارٍ ومجرم حقير. أعطيتك كلّ شيء، وحرصت على إرسالك وإخوتك إلى أفضل المدارس والجامعات، وهذه كانت المكافأة، عربيدٌ مُدمن!

هوت كلمة «مدمن» على مسامع سيف كصفعة أخرى من أبيه، ولكنّها أقسى من الأولى، فلم يتمالك دموعه التي أخذت تبلل المكان.. امتشق الملك المسدس الصّغير الذي يحمله في جيبه دائماً لدواعٍ أمنيّة، وألصق فوهته برأس سيف، وأطبق براحة يده الأخرى على رقبته، وكأنه استعاض عن عصاه بها، ثمّ ألصقه بالجدار:

- أتعرف ما جزاء القاتل؟ أتعرف ما جزاؤه؟ القتل أيها الحقير!

أغمض سيف عينيه وهو يصرخ «لم أقتله.. لم أقتله» واستعد لتلقي طلقة من أبيه. تدخل خالد، وأمسك بالملك:

- أرجوك يا سيّدي لا تفعلها أرجوك.. إنّه ابنك يا سيّدي، إنّه ابنك. لقد شهد الخدم بأنه لم يقتل الفتى، بل مات لوحده من المُخَدِّر!

لم يتمالك الملك نفسه عندما سمع كلمة «ابنك» فاغرورقت عيناه بالدّموع وسقط السلاح من يده.. أطلق سيف فسقط على الأرض يبكي.. ظلّ الملك ينظر إليه ودموعه محتبسة أمام دموع ابنه، ثمّ قال له وكأنه يصدر أمراً في ميدان معركة:

- ستسافر بعد يومين إلى فرنسا، ولن تغادر هذه الغرفة إلاّ إلى

المطار مباشرة.. منذ اليوم أنت لست ابني، فليس لي أبناء مجرمون.

ظل الملك لأيام نادماً، بينه وبين نفسه، لأنه قال لسيف «أنت لست ابني» ولكن عندما أبلغه خالد بأمر المخدرات وكولومبيا، أيقن بأنّه كان على حق.

انتقل سيف للعيش في مزرعة في جبال البرينانس في جنوب فرنسا بعد أن أنهى مدة العلاج. علم الناس بعد مدّة بأمره، ولكنّهم تغاضوا عن ذكر تلك الحادثة وكأنّها لم تكن، وكانوا عندما يتحدثون عن أبناء الملك، يُسقطون اسم الأمير سيف من بينهم بشكل عفويّ.

***

كان وائل قد انقطع عن كتابة الرّسائل لانشغاله بشؤون خالد والمملكة. ولقد تناهى إلى مسامع شوق أنّه صار جزءاً من السّلطة، وتأكد لها ذلك عندما علمت بموضوع الأرض التي منحه إيّاها خالد. لم تكن تشكّ في إخلاصه لبلده، ولكنّها لم ترتح إلى قُربه من السلطة كثيراً، فأرسلت له رسالة تعاتبه فيها على ترك «النضال في سبيل الحرّيّة» كما وصفته. غضب من رسالتها واتّصل بها واتهمها بأنّها مثاليّة جدّاً، وأن الحياة الحقيقة أكثر تعقيداً ممّا يكتبه الصّحفيّون والمثقّفون في الصّحف والمجلات. حاولت أن تشرح له أنّها تريده أن يبقى نقيّاً طاهراً، كما عرفته أوّل مرّة، وعندما رفض الاستماع لها، ابتعدت عنه مدّة ثمّ أرسلت له رسالة:

«ها هي عمّان ترقد والسهد في عينيّ لا يرقد.. ما برحتُ التّفكير فيك يا صديقي.. استوطَنْتَني في منفايَ، ويا لضعف القلوب بعيداً عن الأوطان.

أمضيتُ اليوم بطوله معك.. ما أجمل الأيّام لو تمضي كلها معك.

حركتَ أوتاري عندما تذكرتُ تعليقك القديم على ما كتبتُه لك عن النّساء وجنونهنّ.. قُلتَ لي: «يا مجنونة» فتراقص العالم المجنون من حولي منتشياً.. وما زلتُ قائلة لك: «الجنون ترفٌ لا نقدر عليه». كم

خشيتُ على حالي من جنوني حينها.. وكم خشيتُ عليك من حالي.. خشيتُ من غيرة الدّنيا، من جنونها، وما أقسى ثورة الدّنيا على جنون الأصدقاء!

لو تعلم كم من الارتباك استوطنني عندما سألتكَ عن بطلة رسالتك القادمة.. وائل.. لقد تواريتُ خلف أحرفي، وأنا أسألك عنها، ليست غيرة أو رغبة في التملك؛ فالأرواح المُحلقّة لا تُمتلَك. تواريتُ يا صديقي خوفاً من عُلوّ سقف رهاني على صداقتك.. أخشى من حالي كثيراً بعدك.. لو تعلم كم أتوق إلى اللحظة التي تلجأ فيها إليّ تشتكي.. تبكي.. ترتحل إليّ.. أصدق الصّداقة هي صداقة الارتحال.

كم أتمنّى أن أُسابق الزمن، فأصل معك إلى قمة نشوتي.. إلى لحظة الذروة التي يصل إليها أحدنا بين ذراعي الآخر.

كم أتمنّى أن تبكي بين ذراعيّ.. أن تهذي بشكواك إليّ..

كم أتمنّى أن تنظر إلى عينيّ، دون أن نتحدث لساعات، فأبصر شكواك دون عناء الحديث.. كم أتمنّى أن تغرق في موجة ضحك، وأنت تُواري بأطراف أناملك دمعة هاربة في زحمة حديثك. أتمنّى أن تثور وتتعهد وتتوعد، حتّى تنهار عند أحضاني.. آه.. كم تمنيتُ كلّ هذا، وأنت تتهرب من البوح عن غضبك.

وائل.. أتعلم لماذا هرب النوم من عينيّ الآن؟ لأنّني أخشى ألاّ تجيد قراءتي.. أخشى أن تُنهيني منكَ مُبكراً لأنّك تلعثمتَ في تهجئة

حروفي.. لا أريد أن أنتهي منك إلاّ إليك.

لي في علاقاتي بك فلسفة مختلفة، فليس في قاموسي أنّ الحبّ هو ما يربط الرّجل بالمرأة.. في قاموسي «الصّداقة حضنُ كلّ شيء».. ليست حقيقة أنّ المكاشفة تبلغ ذروتها بين المتحابين فقط.. بل بين الأصدقاء أيضاً. أنا لا أرتب الحديث، ولا أختار الكلمات، ولا أجمّل الانفعالات معك، كما يفعل المتحابون في لقاءاتهم الأولى.. بل أنا كما أنا معك، امرأة تقبل بك بكلّ عيوبك وأخطائك.. ورغم قسوة كلامي معك قبل أيّام، فإنّ قسوتي تلك هي شكل من أشكال حبي لك.

لا أريد أن أطيل الوقوف معك عند البدايات.. أريد أن أفتح عينيّ وأنا معك على جزيرة بعيدة في منتصف البحر.. أريد التعمّق فيك أكثر. صدّقني يا صديقي، إن حبّك جميل وراقٍ، وصداقتي معك جميلة وراقية.. أريد أن أحبّك كما أحبّ أصدقائي.. أريد أن أصادقك حتّى أحبّك، وأحبّك حتّى أصادقك.

عندما تتعلّق بشخص لا تعرفه جيّداً ستُنمّق كلّ تصرفاتك معه، وستترتب أمامه.. القيود يا صديقي تقتل الوجود.. ما أَحَنّ بعثرة الأصدقاء.

كنتُ أخشى أن أصارحك بفلسفتي، فتدير ظهرك عنّي، أو تُخطئ فهمي. فكونك صديقي، لا يعني أبداً أنك لستَ حبيبي..

أنتَ صديقي وحبيبي.. وحينما قلت لك أنْ ليس ثمّة شخص

عاقل يلهو بعينيه دون أن يكترث، قُلْتُهَا وأنا أعني كلّ حرف.. أنت أكثر من ذلك.

لا أعلم لماذا أشعر بأنك ستطرب لفلسفتي.. ألأنّني أشعر بأني أشبهك حقّاً..؟ ألأنّني أشعر بأنّ عالمي سيجذبك إليّ؟

وائل.. لو تعلم كم تبددتُ أمام غضبكَ.. وكم تبعثرتُ وأنا أسمع صمتك لأوّل مرّة! أعلمُ أنك تصادق الرّوح قبل الجسد، ولذلك صادَقَتْ روحي روحك.. أنت لا تعلم كم أقضي من الوقت بعدك وأنا أحاول أن أروّض شوقي أمامك.. فقد أخبرتُكَ بأنّني أعشق التلقائية معك.

حبيبي وائل.. أعتذر إن كنتُ أزعجتُك.. لا تغضب، وما أجمل أن تغضب..

أحبّك يا صديقي».

لم يرد على رسالتها، ولم يفتح صندوق رسائله لعدة أيام. وفي رحلة قامت بها إلى البتراء في جنوب الأردن مع مجموعة من زملاء العمل، قررت أن ترسل له رسالة أخيرة، وإن لم يردّ، فعليها أن تعلم بأن السّلطة صارت أكثر إغواءً له منها، فكتبت:

«إنّها الساعة الحادية عشرة هنا في البتراء، في وادي موسى تحديداً، ساعة نقاء.. يتّشِحُ كلّ ما حولي بالصفاء: السّماء، الرّمال، الأرض، مشاعر الأشخاص.. ومشاعري. شوقي إليكَ، حنيني ولهفتي. يا لصفاء ملامحك التي توقعني فيك من حين إلى آخر. كلّ ما حولي

مُدًّ أمام كياني الضعيف.. كلّ ما حولي مُدًّ أمامي وكأنّه بلا نهاية.. حتّى أنتَ.

هنا.. علمتُ أنّ ضعفي يزداد كلّما ابتعدتُ عن روحك.. أدركتُ عجز مقاومتي لشوقي إليك.. فجبروت النّساء بين يديكَ كالرّمال بين يديّ.. إنّ عجزي عن السيطرة على اشتياقي إليك كعجز المتعقل عن الإمساك بالهواء. تُحبطني هذه الرّمال، رغم كثرتها إلاّ أنّ الأيادي لا تملك القدرة على حمل أكثر من حفنة قليلة منها.

وائل، أملك الكثير من الحبّ، من اللهفة والشّوق لعينيك. فإذا وقفتُ بين يديك تبدّد كلّ شيء، ولم يبقَ إلاّ القليل، القليل من كلّ شيء.

أنتَ كالهواء، لا تتكلّف ولا تُبالغ في شيء.. أنت نسمة في كلّ شيء. فرحك، غضبك، وبوْحُكَ.. وأنا أضيع، ببساطة، أمام هواك. إن لُمْتَني، فسأبتسم وأتبدد. وأعدك، إن كانت هذه الرّمال قادرة على مقاومة بعثرة الهواء لها كيفما يشاء، فسأملك القدرة على ألاّ أتبدّد أمامك.

لقد اختبأت عنك هنا، فوجدتُكَ أكثر الأشياء هنا.

حبيبي.. أو حبيبتك أنا، لا يعنيني.. ما أقسى بُعدك عنّي، وما أعذبه رغم أني أعلم أنك غاضبٌ منّي، فإنّني أبتسم للملامح المرسومة من حولي عنوة. ضائعة أنا أمام غضبك كرملة منتشية في مهب الريح. يا لغرابة ما أشعر به.. تغضب منّي، فأشتاق إليك أكثر.

كنتُ أظنه حُمْقاً، فأدركتُ عندما عرفتك أنه حُبّ.

رغم أني لم أخطئ في حقّك، ولم أتعمد الإساءة إليك.. رغم أنّي لم أكذب وأخبرتك بحقيقة مشاعري الخاصّة بما تقوم به في المملكة.. ورغم أني حزنت لأنّك لم تسأل عنّي، فإنّني لا أغضب منك.. ولكن لك أغضب. لقد كسرتني حين قُلْتَ إنّي أشك في نيّتك، وإنّي أغضب منك دون أن أدرك ظروف عملك، إلاّ أنّ كسري أمام حُبّي لك عذبٌ وجميل.

أتعرف، حين تقول إني أغضب منك دون سبب، أبتسمُ على الطرف الآخر من الهاتف، وأتمنّى، أتمنّى فقط، أن ترى ارتباكي، وتلمس برودة أطرافي، وتشعر بحرارة أنفاسي المتصاعدة، وأنا أكتب إليك من الطرف الآخر.

مسكينة أنا والرّمال.. ومحظوظ أنت والهواء!

قد يكون غضبك هذا هو آخر الطريق الذي ظننتُ أنّه مُدّ لي أبد الآبدين.. قد لا تُعاود التحدّث معي من جديد.. هل يمكن أن يحدث ذلك!

رغم انكساري منذ أن امتنعتَ عن التحدث معي، فإنّني عاجزة عن الغضب منك أو الثّورة عليك. أقسى ما يمكنني فعله هو أن أمتنع عن النّظر إلى صورتك على هاتفي لثوانٍ، إلاّ أنّ ابتسامة اللهفة إليك تجْبُر كسري منك.

تقول الحكمة: «لا شيء يحدث للإنسان إلاّ وقد مُنح القدرة على

تحمله».. إن حدث فراق فأيّ قدرة ستطيقه؟

وائل، وليكن، سأختبر قوّتي الآن. ماذا لو أدرت ظهرك لي؟ ماذا سيحدث؟

أنا ككل النّساء، سأنهار.. سأتلاشى.. ولكنّني ككل الأصدقاء، سأبقى وفيّة لذكراك. ولحبّك سأبقى رهينة، ولشوقي إليك سأبقى سجينة. سأبقى أُعيد.. وائل صديقي.

ولن أضع «كان» قبل اسمك، فقد أخبرتك من قبل «إنني لا أتخلى عن أصدقائي» وأنت ذروة أصدقائي، وذروتي.. وربّما.. أقول ربّما، خاتمتي. قد تكون انتهيتَ منّي، لكنّني لا أملك كبرياء النّساء، ولا أحتمل إضاعة خريطة الصّداقة. سأعيد الكرّة، وسأحاول أن أرضيَك، وإن لم ترضَ فلن أغضب.

لماذا أكتب الآن وأنا لا أؤمن بأنّها النهاية؟ أنا امرأة عاديّة.. أكاد أكون تقليدية أحياناً.. فما الذي يمنعك أن تُدير ظهرك إليّ!

لن أكترث لهذه الحماقات.. لأنّي ببساطة رهنتُ حالي إليكَ.. أجمل ما في الصّداقة أنّها لا تنتهي حتّى وإن انتهت.. والحبّ الجميل كذلك.. صديقي: أحبّك.

أتعرف؟ أمور كثيرة من حولي بدأت صغيرة ثمّ كبرت، إلاّ أنتَ، فحبي لك يذكرني بالنخلة الكبيرة أمام بيت أبي. تلك الشجرة التي لم أذكر أني رأيتها إلاّ وهي على سيرتها الأولى، كبيرة عظيمة راسخة

وواثقة، رغم عتوّ رياح تشرين من حولها. هكذا أنت بداخلي، هكذا حبّك بداخلي.. كبير منذ اللحظة الأولى. بلغ ذروته منذ النسمة الأولى.. بلغ أَشُدّهُ منذ النفثة الأولى.

هكذا حبّك بداخلي، سيبقى راسخاً، ضارباً في أعماقي، وإن جُنّت رياح الغضب بيننا. حبّك بداخلي عظيم لا تُمسّ قدسيته.

فإن اقتلع تشرين بعض أوراق محبتك، وإن كست الثلوج بعض أغصان شوقك إليّ، فلن يواسيَني إلاّ قولهم: «إذا لم يكن لدينا شتاء فلن يكون الرّبيع ممتعاً، وإذا لم نتذوق طعم الشدائد، فلن نرحب بالرخاء».

يا أعذب الرخاء وأحنّ شدائدي، يا دفء شتائي وربيع صيفي.. يا لهيب شوقي وسعير لهفتي. أحِبّني بعضا ممّا أحبّك..

بين وطني وبينك، تسكن الأمنيات.. وأنا».

فجّرت رسائل شوق أشواقاً في صدر وائل للحبّ والكتابة. فأحياناً، يغرق الإنسان في أشياء يظن أنّها مهمة، ويعتقد أنّه من خلالها يؤدي مهمة جليلة، ثمّ يكتشف عندما يأوي إلى فراشه ليلاً أنّه غير راضٍ عن نفسه، على الرّغم من كلّ الجهد الذي بذله طوال يومه. حينها فقط، يُدرك أنّه لا يمشي في الطريق الصحيح، فالأعمال الخالصة، وإن كانت بسيطة، هي ما تمنح الإنسان راحة قبل النوم.

عندما قرأ رسالة شوق، أحس برغبة عارمة للكتابة، وقبل أن

ينشر رسالته أرسلها إليها أولاً.

رسائل الخميس

«كلّما جلستُ أرقُبُ الأفق لحظة الغروب، تذكّرت عندما كنت تجلسين إلى جانبي. كان الغروب معك أجمل، فكل شيءٍ معكِ مُشرِقٌ، حتّى الغروب نفسه. كانت الأشياء تنتظر معي قدومك وتشتاق إليه مثلي، ولا أدري لماذا كنت أشعر بالارتباك كلّما انتظرتك.. ربّما لأنّ انتظار الأشياء الجميلة يزيدها جمالاً، وكم يُربِكُني الجمال ويُخجلني.

لا أذكر الآن ماذا كنا نقول، فكلام العاشقين لبعضهم لا يبقى في الذاكرة، وما يبقى هو كلامهم عن بعضهم. كنتُ أقول عنك: «إنّها أميرةُ الغياب» لأنّني أعشق الأشياء التي تغيب، فأحياناً، نحبّ مَن نعلم أنّه سيرحل أكثر ممّن نعلم بأنّه سيبقى، وفي اللحظة الأخيرة يزداد تمجيدنا للراحلين، فاللقاء الأخير شكلٌ من أشكال الخلود.

أتذكركِ الآن وأنتِ تتسربين في اتجاهي كنهرٍ يُصارعُ الزمن ليرويَ وردة يتيمة لم تنل حظ قُربها من مجراه. يحدوك شوقٌ ملائكيّ لمعرفة الأسماء كلها، وقد انثَنَتْ بين وجنتيك ابتسامةٌ تُبرِئُ الأصفر واليابس، وتمنحُ الأرض خصوبة حمراءَ، تكادُ تُنبِتُ ما حولها وتحتها.

أتذكركِ الآن، وكأنك الذكرى الوحيدة في صدري، أو ربّما، لأنّك

الوحيدة في صدري.

كلّ شيء يُعيدني إليكِ.. كلّ الكلمات ترحل إليكِ، حتّى عندما أكون راحلاً عنكِ. أعلمُ أنّك قد رحلتِ عنّي، ولكن اعلمي أنّك لم ترحلي منّي.. حتّى فراقُكِ أحببْتُه، لأنّه صارَ جزءاً منكِ.

يُغويني اسمك القادم من عمق الزمن، ويحرّضني تاريخك الذي يخلو من كلّ المعارك، إلا منّي. كوني طروادتي وسأكون حصانها.. يا كلّ الأمنيات الباقية على أغصان الأشجار، يا أزقّة الطفولة، وخطواتها البريئة.. يا نصف حزنٍ مضى، ونصف فرح قادم، فيكِ أودعتُ ذكرياتي، ومنكِ اقتبستُ أُمنياتي.

يا انشطار القمر، وعذوبة الفجر الذي يأتي كلّ ألف عام، أحصيتك في صدري، ولَم أفرغ حتّى الآن، فمن ينثُرُنا رحيله لا يَجْمَعُنا تذكُّرُه.

كتبتُكِ قنديلاً ذهبيّاً، وعلّقتك على جدار بيتي كي لا تضلّ ذكراكِ طريقها إليّ، وجمعتُك في مكتبتي صفحات صفراء عتيقة ككفّي اليُمنى مازالت تنتظر كفًّا لتعينها على البوح والكتابة، ولكي تخطّ بها ثمّ تخطّ عليها.. عندما نكتُبُ شيئاً على كفّ من نحبّ، فإنّنا في الحقيقة نكتبُ على قلبه، فالحبّ ينفذ إلينا عبر العيون والأصابع.

هل تعرفين كيف أتذكرك؟ سمّيتُ كلّ شيء جميل حولي باسمك، لوحتي الوحيدة تحمل اسمك، روايتي، شجرة الياسمين في حديقتي..

حتّى وسادتي سمّيتها باسمك.

أتذكرك الآن لكي تُبعثريني مرّة أخرى، أو تبعثيني تارة أخرى من قلب براكين الأشواق الخامدة. عودي وأزيحي عنّي الرّمادَ حتّى أراك، أو أرى من رآكِ. وباركي طفولتي، أو أعيديها إليّ، وامنحيني وقتاً كي أحبّك على مهلٍ، ولا تعجلي حتّى أرضى. لا تمنحيني حبّاً، وامنحيني إيماناً لكي لا أحبّ أحداً غيرك. فقد لا نؤمن بمن نحبّ، ولكننا نحبّ من نؤمن بهم.

عندما أحببتك، لم أُرِد أن أمتلكك حتّى لا تكوني أحد أشيائي، لأنّك منحتني كلّ أشيائي.. بما فيها أنا. لم أرِد أن أتملك شيئاً إلاّ ذكرياتي معك، لأنّنا عندما نتذكر مَن نحبّ، فإنّنا نحبّه من جديد. قد لا تجمعنا الذكريات، ولكنّها حتماً لن تُفرّقنا مرّة أخرى.

أكتبُ لك الآن ما كتبته لكِ قبل عام، علّكِ تعودين، أو يعود ذلك العام.. ذكرياتي معك أعادتني إلى أوّل يوم في حياتي، يوم رأيتُكِ.. يومَ وُلِدْتُ.. ويومَ بُعِثْتُ حيّاً.

***

تدق ساعة الحائط معلنة انتصاف الليل، أمّا ساعة عُمْري فإنّها لا تنتصف حتّى تأتين.

يهبط صوتك.. تحمله رياح المساء التي تتضوع أنفاسك، وتمتلئ بنبرتك التي تُسيّرُ جبال الشّوق في داخلي.

صوتك يشبه المطر، يحمل بركة السّماء، ليروي بها اشتياق من في الأرض.. كلّ أمطار الدّنيا لا تروي عطش قلبي لرؤيتك.. كل أصوات النّساء لا تملأ مسامعي كما يفعل صوتك.

صوتك يا حبيبتي أرقّ من أن يُسمع، وأعذب من أن يُحْتَمَل..

الأصعب من تذكر الأحلام هو محاولة نسيانها.. والأقسى من نسيان من نحبّ هو محاولة تذكره.. ما أصعب نسيانك، وما أقسى تذكرك!

كل مرّة أراك فيها، أشعر كأنّها أجمل مرّة.. كأنّها أوّل مرّة.. يكفيني من الحبّ أنّي أحبّ صوت كلّ من يحكي عنك..

عندما نحبّ أحداً، يصير صوت أنفاسه معزوفة، ويصبح صمته غناء..

عندما نحبّ أحداً، نُقلّد لهجته، نستخدم ألفاظه، ونتمتم بكلماته..

عندما نحبّ أحداً نصير كلماته.

صوتك وحده من يجعلني أتدفق كأحد أنهار الجنّة..

كل أمنياتي تختبئ خلف صوتك يا حبيبتي.

يأتيني صوتك من الطرف المجهول في داخلي كأشعة الشمس

التي تبزغ رغماً عن الشتاء فتذيب الجليد ببطء حتّى لا تكسره.. صوتك لا يمنحني الدفء فحسب، ولكنّه يمدني بالقدرة على احتمال قسوة الشتاء.

صوتك هو النور القابع في آخر كلّ نفق مظلم..

صوتك قِبْلة الألحان، ومِعْراجُ كلّ دعاءٍ قديم.

سأحكي لأحفادي عن مصباحك السحريّ، وعن مغارتك المليئة بالكنوز.. وعن قلبك الذي تبرعتِ به لكي تورِق الأزهار الحمراء في فصل الشتاء.

سأحدثهم عن بجعاتك المغرورة، وعن جرّاتك المكسورة، وعن كلّ الأيتام الذين أصبحتِ لهم أمّا..

وسأحدثهم عني لما رأيتك في موقدي، وعلى وسادتي، ولما ذكرتك في تراتيل صلاتي..

سأقول لهم: لقد كانت منّي كهارون من موسى، ولم تأتِ على قميصي بدمٍ كذب..

وأقسم بأني سأجد ريحك في أنفاس أحفادي.. فدرب طويل وصبر جميل.

حين نحبّ أحداً بعمق، تصير كلّ الأصوات صوته، تمتزج كلّ

الوجوه لتعكس وجهه، وينفد مخزون الذكريات إلاّ تلك التي حوتنا معه.

عندما أحبّك، فإنني لا أقع في الحبّ، بل أرتفع فيك، لأنّك السّبب الوحيد لاستيقاظي كلّ صباح..

أصوم شكراً لله على الأيّام التي سمعتُ فيها صوتك.. وأصوم عن كلّ الأصوات عندما يُفْطِرُ صوتك.

أيّ سحر هذا الذي يحمله صوتك..؟ لماذا أسحقُ وسادتي ليلا كلّما تذكّرته..؟ لماذا أكسرُ هاتفي فجراً كلّما انتظرته..؟ ولماذا تدمع عيناي كلّما احتجته..؟

لماذا أحبّك، وأنتِ تسكنين عند أطراف الأشياء والأيّام..؟

حتّى بُكائي صار يُشبه بُكاءك.

صوتك يشبه صلاة الزُّهّاد في الليالي المباركة، لا تسمعها سوى الملائكة..

يا سببًا لكلّ شيء جميل، ويا أجمل الأسباب كلها.

حين أسمع صوتك، ألمس قاع روحي..

كل الأصوات أسمعها، إلاّ صوتك أراهُ.

***

وكان قلبي مثل القمر، حتّى عندما يكتنفه الظلام يبقى أبيضَاً في داخله. كان قلبي كالمشكاة التي لا تضيء الدّنيا، ولكنّها تضيء ما يكفي لكي أراك به.. كان قلبي بداخلك أكثر ممّا كان بداخلي.

أناجيك.. من خلف حُجُبِ الأيّام التي تَحول بيننا، ومِن على أسطُحِ الأرصفة القديمة التي لم تكنسها أقدامنا منذ أعوام. تلك التي كانت تجمعنا صدفة.. وما أجمل الصدف عندما تكون أقداراً!

إن أجمل الأقدار هي التي نتجمّلُ للقائها..

إن لم تكوني قَدَري فأيُّ قَدَر لي.

لا أعلم لماذا أكتبُ إليك، فإن لم يقربك الشّوق فلن تقربك الكلمات، ولكنّي أعلم بأنّك تقرئين، ولذلك أكتب.. أناجيك، لا لكي تسمعي ما أقول، بل كي تريه.

الكتابة تمنح الحبّ ألَقاً، والمناجاة تمنحه قدسيّة.. القداسة تمنعنا من ارتكاب الحماقات، والحبّ يدفعنا إليها.. أمّا أنتِ فلقد كنتِ حماقتي المقدّسة.

أناجيكِ في الثلث الأوّل من الليل وفي الثلث الأخير، وما بينهما أبكي، فعندما يختلط الدمع بالدّعاء تؤمّنُ الملائكة.

اليوم الذي أراكِ فيه بألف يومٍ من أيّام العاشقين..

كل النّساء أراهنَ ببصري إلاّ أنت.. أراكِ ببصيرتي.. وددتُ لو أنّني أنتِ حتّى لا أفارقك..

نصفُ إنسانٍ أنا في غيابك... وحده الحبّ من يعيد ولادتنا من جديد..

أناجيك، وأعلم أن قلبي ممددٌ في تابوت فقدك. الحبّ لا يموت، بل نحن الذين نهجره.. وبعض من نحبّهم يمنحون الرّحيل قدسيّة لا تُضاهى.

أناجيك، لا لكي أحتفظ بك، بل حتّى أحفظك.. خذيني معكِ، فقد سئمتُ نفسي.. خبّئيني في حقيبة يديكِ وادّعي أنّني أحد أشيائك المبعثرة بداخلها.

بعض الحبّ يعبُر إلينا، وبعضه يعبُر بنا، أما أجمله فيعبرُ من خلالنا.

البقاء معك أحد أسباب بقائي، والرّحيل عنك أحد أشكال فنائي، وما بينهما حمَمُ الشّوق والانتظار.

الحبّ يحفر وجه من نحبّ على أجفاننا حتّى نراهم كلّما أغمضناها.

أناجيك في شتات لا أريد أن يلملمنِي منه أحد.. ربما لأنّه لا أحد يعرف كيف يجمعني مثلما تفعلين. وعندما يجمعنا من نحبّ فإنّنا لا نتفرّق بعده. عندما تنظرين إليّ أشعر بكلّ حنان العالم يكتنفني، فتنزلق الفرحة على وجنتي حتّى تسقط في كفّي فتنبت الأزهار.. إن الأزهار التي تُسقى بالدّموع تصير حديقة..

ليتني أسكن في عينيك الآن.

في العالم مليارات النّساء، ولم أحبّ واحدة منهنّ سواك، ولم أفتقد منهن أحداً سواك.. الشتاتُ ليس فقداننا من نحبّ، ولكنّه أن نحبّه أكثر ممّا نستطيع.

كل الأغنيات التي أسمعها تزيدني شوقاً إليك.. وكل الصلوات التي أتلوها تزيدني لهفة عليك.

الغيابُ منفى الحبّ وصوتك بلاده..

أناجيك، لا لأنّني فقدتُك، ولكن لأنّني افتقدتُك».

***

جلس على الشّجرة ينتظر مرور الأسد ليطلق النار عليه ويستريح منه. بدا له الأفق وكأنّه حسناء جميلة تأبى البقاء، وتصرّ على الرّحيل لكي يشتاق إليها العاشقون. ظلّ يرقب الشمس وهي ترسل أشعتها على حشائش السافانا، وتغطّ في الأمد البعيد، مطمئنّة حتّى في رحيلها..

«ربّاه، ما أعطف الشمس وما أرقّها. ألهذا تدمع أعين الناس عندما يرون المغيب؟ هل يشعرون بحنان الشمس عليهم؟ هل يشعرون بدفء أشعتها التي تخشى عليهم من ظلمة الليل وبرده؟» هذا ما دار في نفسه.

أغلق عينيه واستقبل بجسده آخر شعاع من أشعة الشمس حتّى يملأ بنورها روحه.. سيحتاج هذا النور كثيراً بعد قليل. بعد أن أطبق الظلام، تحوّل شكل الحشائش الطويلة إلى بحرٍ من قلقٍ وترقّب، تعوم على صفحته أنوار صغيرة كالنجوم، فتخطف ناظريّ خالد وهو جالس يراقب وينتظر. يعرف أنّها عيون الحيوانات التي تخرج في الليل بحثاً عن طعام. هو مثلها، يبحث أيضاً، ولكن عن غريمه الأبديّ. يشعر به دون أن يراه، ويكفيه أن يشمّ رائحة الدّم التي تقطر من فمه حتّى يعرف أنّه في الجوار.

بعد أن انتصف الليل، انهالت العتمة على المكان. سمع صوت خطوات ضخمة تسحق كلّ ما تدوس عليه.. حدّق في الظلام، فلم يرَ شيئاً. أشاح ببصره بعيداً عن المكان الذي يريد أن يراه، فاكتشف أنّ كلّ الحيوانات قد اختفت. كرر هذا الفعل عدّة مرات حتّى يرى بوضوح أكثر، فبدت ملامح الوحش تظهر له شيئاً فشيئاً. بدا الشّعر الذي يحيط برأسه، كأنّه حقل آخر من السافانا، وكادت عيناه تضيئان ما أمامهما وكأنّهما أضواء سيارة. لم يكن الأسد ينظر إلى الأعلى، إلاّ أنّه يعرف بأن خالد موجود هنا. اقترب من الشجرة، وضع حوافره الأمامية على جذعها، تمدّد جسده عليها، ثمّ نظر إلى الأعلى.. كانت تلك أوّل مرّة تلتقي فيها عيناه بعيني غريمه. لم يستطع أن يشيح بنظره

عنه، كاد قلبه أن يخرج من صدره، وفكّر في الصعود من الغصن الذي كان جالساً عليه إلى أعلى الشجرة حتّى لا تدركه مخالبه.. إلاّ أنّ هدوء الأسد بعث في نفسه طمأنينة غريبة لا يجدها المرء إلاّ مع صديقه. ظلّ الأسد محدقاً فيه دون أن يزأر، وبعد أن تأكد من أن ضربات قلب خالد قد أبطأت، جلس على الأرض، وكأنّه ينتظر أحداً لكي يمسح على رأسه.

عندما رآه جالساً دون حراك، أحسّ بقرب شديد منه. نزل ببطء من على الغصن الذي كان يعتليه إلى غصن أسفل منه، ثمّ جلس ينتظر ردّة فعله. وعندما رآه ساكناً كحيوانٍ أليف، انتزع غصناً صغيراً ورماه على ظهره ناظراً ما سيفعل، فقد لا يكون هدوؤه هذا إلاّ خدعة ليطمئنه ثمّ ينقضّ عليه. أصاب الغصن ظهر الأسد وتدحرج بجانبه. نظر إليه وتناوله بفمه ونهض بسرعة. قفز على جذع الشجرة، فجزع خالد وحاول الصعود إلاّ أنّ مخالب الأسد قد انغرست في ثيابه وجرّته إلى تحت، فانزلق وسقط على الأرض. حاول أن يرفع رأسه وإذا بالأسد قد جثم عليه، وضع رأسه فوق رأسه، وحدق في عينيه.. ظلّ ينظر إليه والعَرَق قد شكّل بحيرة تحته، أيقن أنّه ميّت لا محالة، ولكنّه رفض أن يغلق عينيه في اللحظة الأخيرة وهو القائد العسكري العظيم.. هذا ما حدثته به نفسه. ولطالما آمن بأن آخر لحظات الرّجال العظام تلخص حياتهم. قرّب الأسد وجهه منه حتّى اختلطت أنفاسهما، وكانت تلك أول مرّة تخلو فيها أنفاس الأسد من رائحة الدم. أومأ برأسه على صدر خالد، أفلَتَ الغصن من فمه، ثمّ تراجع إلى الخلف، وجلس غير بعيد وأشاح بنظره إلى العتمة.

جلس خالد غير مصدق، نظر إلى الغصن، فلم يرَ علامات أسنان الأسد عليه. علم أنّه كان يحمله بين فكّيه مثلما تحمل اللبؤة أشبالها. كانت تلك إشارة مطمئنة. اعتدل في جلسته، أسند ظهره إلى جذع الشجرة، وظلّ محدقاً في الأسد حتّى سكنت روحه.. تشجّع، واقترب منه بهدوء، وجلس ملاصقاً له، فلم يتحرك الأسد، وكأنّ شيئاً لم يكن.

بعد دقائق من الصّمت، وضع يده على ظهره ومسحه.. كرّر ذلك العمل عدّة مرات، فوقف الأسد ونظر إليه. فهم خالد أنّه عليه الوقوف أيضاً، حرّك الأسد رأسه إلى الأعلى وإلى الأسفل كأنّه يريد منه أن يقوم بأمر مّا.. فكّر قليلاً ثم أنصتَ إلى قلبه فسمعه يقول: «اركب على ظهره». تردّد.. ثمّ وضع إحدى رجليه فوق ظهر الأسد فانحنى له، فعلم أنّه يفعل الصواب. امتطاه ببطء، وما إن علا ظهره، حتّى قفز الأسد في ذلك البحر السرمديّ، وانطلق يعدو.

كان القمر قد بزغ وأنار المكان، فتمكن خالد من رؤية حامله بوضوح. ظهره عريض وسيقانه طويلة فشعر وكأنّه يمتطي صهوة جواد فريد.. تمسّك بشعره جيّداً وانطلق بروحه معه. كان الأسد يعدو دون وجهة، كطير أفرد جناحيه للريح لتحمله كيفما تشاء. توسّعت عينا خالد، وانفرجت ابتسامة على وجهه وباغته نسيم عليل هو وصديقه الجديد. كان الاثنان يطيران في فضاء من المشاعر الكونيّة التي وحدتهما، ليس عن طريق الصدفة، ولكن عن طريق المصير. كان الأسد يقفز عالياً كلّما مرّ على جدول ماء صغير، فيرى خالد الحيوانات وهي تراقبهما

في ذلك التحليق الأبديّ حتى استحالا سرباً من الأحلام المتدفّقة.. صرخ خالد صرخة طويلة، فزأر الأسد مع صرخته حتى سمعتهما كلّ حيوانات الغابة.. ظلّ يصرخ، وظلّ صديقه يزأر، وكأنّهما يتحدثان لغة أخرى لا يعرفها إلاّ من ترك الخوف جانباً وآمن بقلبه.

اخترق الضّوء ذلك الظلام الدامس وكأن الشمس قد أشرقت فجأة.. «انهض يا خالد».. فتح عينيه وسمع زوجته تأمر الخادمة أن تُجهّز لسيّدها الإفطار.

***

جلس الملك في مكتبه واتكأ بكلتا يديه على عصاه التي تحمل رأس فيل. لم تفارقه تلك العصا منذ حادثة سيف. للفيلة طقوس خاصة في الحزن. فعندما يموت أحد أقربائها، تقوم بتحسس عظامه ورفاته بخراطيمها مصدرة أصواتاً تنمّ عن حزن عميق. ثمّ تقوم بحملها ودفنها في طقوس تشبه طقوس البشر، لدرجة أن بعضها ترفض أحياناً أن تأكل أو تشرب عند فقد عزيز مّا.

كان خالد أكثر من يفهم استخدام بزاز لتلك العصيّ، وعندما رآه لم يفارق عصاه تلك لعدة أيّام، أدرك أنّه حزينٌ جدّاً لمفارقة ابنه. جلس دون أن يقول شيئًا، وبعد صمت قصير، قال له الملك إنّهُ يفكّر في تعيين أحمد وسلمان في مناصب قياديّة في البلاد، حيث يشعر أنّه منهكٌ من مسؤوليّة الحكم، ويريد من ينوب عنه من أسرته في حملها.

تجاهل خالد عدم ذكر الملك لاسم سيف وقال:

- العُرف يا سيّدي أن يكون الأمير أحمد وليّ العهد لأنّه أكبر أبنائك.

- ولكنّه ليس أكفأهم.

ثم صمت الملك قليلاً وهو يخرج نفساً طويلاً، وكأنّه قد تذكر سيف، فقال خالد:

- ما زالوا صغاراً لكي نحكم على كفاءتهم، وما لمستُه من الأمير أحمد أكد لي أنّه يحمل صفات قائد في داخله. إنّ كلّ ما يحتاج إليه هو برنامج تدريبيّ طويل المدى، نُعلمه من خلاله المهارات القياديّة المطلوبة، وهو أمر سهل يا سيّدي وسأتولى تنفيذه من مكتبي مباشرة.

- فكرة جيّدة، ولكن ماذا عن سلمان؟

- لماذا لا يكون رئيساً للحرس الوطني؟

أراد خالد بهذا الترشيح أن يقلل من حظوظ فيصل لذلك المنصب الحساس الذي يتقلّده الملك نفسه. فهو يدرك طموحات فيصل، ويعلم تماماً أنّه يكرهه لأنّه أقرب إلى أخيه منه.

قال الملك:

- كلاّ، كنت أفكّر في أمر آخر. تعرف أنّ لفيصل طموحات

سياسيّة؟

- نعم.

- كنت أفكّر في تعيين سي..

ثم سكت قليلاً واستدرك:

- كنت أفكّر في تعيين سلمان نائباً للملك لأقطع على فيصل أيّ أمل في الحصول على هذا المنصب، كما أن أحمد لن يستطيع وحده تولي مهامّ الحكومة، وسيحتاج إلى أخيه في المستقبل ليساعده.

لم يكن ذلك الكلام يمثّل فرقا بالنّسبة إلى خالد، فهو يعلم أنّ سلمان يطيع أحمد في كلّ شيء، وأهم شيء بالنسبة إليه الآن هو أن يكون أحمد وليّاً للعهد.

- وماذا عن الأمير فيصل؟

- سأعينه قائداً للحرس الوطنيّ.

كان على خالد أن يفهم أنّ الملك ملزمٌ بمنح فيصل منصباً مّا، فلا يُعقل أن يبقى أخوه دون منصب. ولو بقيَ كذلك فسيكون مصدر قلقٍ للأسرة، وبما أنّه لا يملك أيّ منصب حتّى الآن، فإنّ منصب قائد الحرس الوطني سيشعره بالتقدير، ولو لفترة مؤقتة. فالحرس الوطني هو المسؤول عن حفظ الأمن والاستقرار داخل البلاد، وهو المشرف على

أمن المنشآت الحيويّة للدولة. ويأتي في المكانة والأهمّية في كثير من الدّول قبل الجيش والشرطة.

لم يدرِ خالد ماذا عليه أن يقول، فإن رفض فسيبدو وكأنّه يعارض رغبة سيده، وسيتأكد الملك حينها من أنّه يُريد أن يستفرد بالسّلطة من خلاله، كما كانت تقول الشائعات في البلد. فقرّر أن يبدو سعيداً وراضياً بقرارات الملك:

- هذه فكرة مباركة يا سيّدي، ستسعد المملكة والشعب بهذه القرارات، ولكن متى تفكرون في الإعلان عنها؟

- جهز لي الأوراق الرسمية بعد غدٍ، وأحضرها إليّ في المطار الأميريّ الساعة الخامسة عصراً، فأنا مسافر إلى باريس لبعض الوقت.

وبعد أن وقّع الملك قراري تعيين ابنيه، طلب من خالد أن يبلغهما الأمر بنفسه، وركب طيارته وحلّق عالياً باتجاه عاصمة الأنوار.

اتّصل خالد بالأمير أحمد، وقال له إنّ أباه أرسل رسالة إليه وإلى أخيه سلمان، وأراده أن يسلمهما إيّاها بنفسه. فهم أحمد قصده، فلم يستطع أن ينام في تلك اللّيلة.

في صباح اليوم التالي، جلس الأميران أمام خالد في مكتبه، فقال لهما:

- تعلمان أن مسؤوليات الملك أصبحت ثقيلة، كما أنّه يريد أن يركّز في المرحلة المقبلة على العلاقات الخارجيّة للمملكة، ويريد منكما أن تضطلعا بدور أكبر في الشأن الداخليّ. ولقد قرّر أن يعينك يا سموّ الأمير وليّاً للعهد.

ثم ناول أحمد قرار التنصيب، والتفت إلى سلمان وقال:

- وقرر تعيين سموّكم نائباً للملك.

تقطّب حاجبا أحمد ونظر إلى خالد وعلامات استفهام غير محدودة ارتسمت على وجهه. «نائباً للملك»؟! لم تكن هذه خطته! ماذا يقصد أبوه من هذا التصرّف؟ ومن أعلى من الآخر؟

أحس خالد أن أحمداً قد صدم من الخبر، بينما كان أخوه يقرأ قرار تنصيبه بسرور غامر. فقال بسرعة:

- وليّ العهد يأتي في المكانة بعد الملك مباشرة، وينوب عنه في إدارة شؤون المملكة في حال غيابه دون الحاجة إلى تفويض منه، أما نائب الحاكم، فإنّه يأتي بعد ولي العهد، وتوكل إليه مهام معيّنة يحددها له الملك.

أراحت هذه الجملة أحمد قليلاً، ثمّ طلب من خالد أن يرسل القرارات إلى القصر مُحاولاً ألا يُبدي فرحته الغامرة بالخبر. نهض الاثنان وانصرفا بعد حديث حول مواضيع أخرى تطرق إليها أحمد دون مناسبة، لكي لا يشعر خالد بأنّه صاحب الفضل في تعيينه. فهو

الآن وليّ العهد، ولا يجوز أن يكون لأحد فضلٌ عليه.. هذا ما دار في نفسه. ولم يكن خالد في حاجة إلى شرح ليفهم مشاعر الأمير، فجاراه في حديثه، وتطرق إلى قصص جانبيّةٍ طريفة لكي يشعره بأنّه غير مدين له بشيء.

ولكي يُوجّه خالد إهانة إلى فيصل، طلب من أحمد أن يجلس معه، ويعطيه قرار تعيينه قائداً للحرس الوطني. فرح أحمد بهذا الطلب حتّى يعلم عمّه أنّه أقل منه درجة.

***

اقترح سامي، الذي أصبح المدير العام لسوق الأوراق الماليّة، على خالد أن يؤسس محفظة ماليّة ضخمة لتكون الأكبر في السوق، واقترح أن تُسجل باسم شركة جديدة للاستثمار في الأسهم، تكون في الحقيقة تابعة للحكومة وتتاجر بأموالها. اقتنع خالد بالفكرة، فأسس الشركة دون أن يستشير الملك الذي صار يُطيل الغياب عن المملكة، وحدد رأس مالها بمائتي مليون دينار، أيّ ما يعادل أربعمائة مليون دولار أمريكيّ، وكانت تلك المحفظة تدار عن طريق سامي بطريقة غير مباشرة.

بدأ سامي بشراء أسهم الشّركات العقارية التي توافدت على المملكة من أوروبا وتركيا ودبي، وأسهم شركات التكنولوجيا التي وفدت من الولايات المتحدة وسنغافورة، ولم يفته أن يشتري كميات كبيرة من أسهم بنك شرقستان الجديد. استمرّ في ضخّ الأموال بكميات هائلة حتّى ارتفعت أسهم تلك الشّركات، ووصلت إلى أسعار قياسية في مدّة

قصيرة، حيث لم تكن قوانين السوق تحدّ من نسبة ارتفاع قيمة السهم في اليوم الواحد.

عندما رأى الناس والمستثمرون هذا الارتفاع المضطرد، أقبلوا على شراء الأسهم كمن وجد مغارة علي بابا مفتوحة، فأراد أن يحمل أكبر كميّة من الذهب.

استمرّت الأسهم في التحليق عالياً وتدافع الناس بجنون.. طلب سامي من خالد مائة مليون إضافيّة، وأقنعه بأنّها فرصة لن تتكرر ثانية، وبعد أن اشترى بها الأسهم نفسها، ارتفع سعر السهم الواحد من أسهم بنك شرقستان من عشرة دنانير إلى مائتين وعشرين ديناراً خلال عدّة أشهر، عندها، أيقن سامي أن ضربة الحظ قد حانت، فباع المحفظة الماليّة في أيّام ليدر أرباحاً قيمتها ملياراً ونصف مليار دينار، كلّ ذلك خلال سنة واحدة فقط!

فاق العرض الطلب، وبدأت أسهم الشّركات بالتخلخل، ثمّ بدأ هبوط حادّ لجميع أسهم السوق. فهم كبار المستثمرين اللعبة فباعوا أسهمهم، أما صغار المضاربين ففضلوا أن ينتظروا لعلّ مؤشر السوق يخرج من اللون الأحمر إلى الأخضر. إلاّ أنّ أسعار الأسهم أخذت في الهبوط وكأنّها انزلقت في هاوية سحيقة.

بعد أسابيع قليلة، انهار السوق وخسرت الأسهم 80 % من قيمتها. تسبب ذلك في فوضى عارمة في المملكة، فقد على إثرها كثير من الناس مدخراتهم ومنازلهم التي رهنوها للبنوك مقابل إقراضهم

للمبالغ التي وضعوها في البورصة. لم يكن الناس وحدهم من خسر، بل إن الشّركات المُدرجة في السوق تعرضت لضربة كبيرة أيضاً، وخصوصاً بنك شرقستان الجديد الذي أنقذته حكومة شرقستان بضخ مئة مليون دينار فيه حتّى لا ينهار. وعندما اتّصل خالد بالسّفير، وقال له إنّه يأسف لخسارة البنك، طمأنه السّفير وأكد له أنّ حكومته ملتزمة بدعم المملكة واقتصادها، ومن الطبيعيّ أن تتعرض أيّ بورصة جديدة لمثل هذه التقلّبات، واقترح على خالد أن يُرسل له مجموعة من الخبراء القانونيين والاقتصاديين من شرقستان ليساعدوه على تنظيم البورصة ويضعوا لها قوانين تُجنبها ما حصل.

حدثت تلك الواقعة في الأوّل من مايو/ أيار، فسماه الناس بـ«مايو الأسود» حيث شُرّدت أسر كثيرة، ودخل السّجن موظفون بسطاء كانوا يحلمون بالكسب السريع، وأفلست شركات محليّة كان أصحابها يوماً مّا من رجال الأعمال في المملكة.

كان الرابح الوحيد من مايو الأسود هو خالد الذي استطاع أن يحقق أرباحاً خياليّة للحكومة، قدّمته في سلم السّلطة على جميع رجال الدّولة دون استثناء.

لم يعلم أحد في الحكومة كيف جنى خالد وفريق عمله تلك الأموال، حتّى الملك نفسه. وحده فيصل أدرك أنّ البلاد بدأت تنحو منحىً خطيراً، وخصوصاً أنّ اقتصادها أصبح مدعوماً من حكومة شرقستان، أو ربما، معتمداً عليها.

***

كان مطلوباً من وائل أن تتغاضى صحيفته عمّا جرى في البورصة. وأمره خالد أن يوجّه رؤساء الأقسام بالصّحيفة ليتحدثوا عن أيّ أخبار تشغل الرأي العام. هذه كانت التعليمات التي استلمها وائل في رسالة رسمية تحمل شعار ديوان الملك. حاول الاتصال به، لكنه لم يرد. جلس وكتب رسالة ثم أرسلها إليه:

«كنتُ قد آمنتُ بك، وصدّقتُ بما جئتَ به. أما وقد أكلتَ أموال الناس، واستحللتَ أرزاقَهم، وكشفتَ عوارتهم، فلا يسعني إلاّ أنّ أستقيل من منصبي. وإني إذ عجزتُ عن فضح ما قُمتَ به، فلا أقلّ من أن أقول لك إنّك خُنتَ الأمانة، وسرقتَ الدّولة، ولوّثتَ اسمَ المَلِك. إنّ الصّدق حُريّة، والكذب عبودية. ولئن أكون في مؤخرة عالمٍ من الأحرار، خير ألف مرّة من أن أكون في مقدمة عالم من العبيد».

علِمَ فيصل باستقالة وائل من منصبه، فاتّصل به وطلب لقاءه. ولأن وائل يثق بفيصل، فإنّه حكى له كلّ شيء. شعر وائل بأنه كان طرفاً في تلك المؤامرة، وهذا أكثر ما أثّر في نفسه، فقد كان أحد مستشاري خالد، وأكثر من سوّق له في الإعلام، ومجّد صنائعه، وأقنَع الناس به.. سرد كلّ شيء لفيصل. أراد أن يلومه على دعمه لخالد ولكنه أحجم عن فعل ذلك عندما قال له وائل إن شوق حذّرته قبل ذلك ولكنه لم يستمع لها. «لقد خسرتُ احترامي لنفسي، ولكن ذلك لا

يُعادل شيئاً أمام خسارتي لشوق» قالها دون أن يستطيع النظر في عينه. طمأنه فيصل وأكد له بأن شوق تحبه، ولا يمكن أن يخسرها. نصحه بمراسلتها، عل ذلك يخفف عنه وطأة الانكسار التي بدت شديدة عليه.

بعد أن انصرف من عنده، اتصل برئيس جهاز الاستخبارات، وأمره بتقصّي الأمور عن كثب.. شعر فيصل أنّ الأمر أكبر من انهيار البورصة.

قرّر وائل أن يعود للكتابة في صحيفة «الوقت» ولكن هذه المرّة سيتفرّغ للكتابة الأدبيّة، والرّسائل بشكل خاصّ. رّحب رئيس التّحرير بالفكرة، خصوصاً وأنّ رسائل الخميس قد صارت حديث الناس، فالكلّ يريد أن يعرف نهايتها، ومن هي سعيدة الحظ.

رسائل الخميس

«في هذه اللّيلة، عجزتُ عن النوم وعن الكتابة، وعجزتُ عن التّفكير في أيّ شيء.. حتّى العجز نفسه عجزتُ عن إتيانه. أشعر بفراغٍ في داخلي، ولا أريدُ أن أملأه بأحد سِواك، فلا شيء يُماثل روحي مثلك. لا أرض تضمنّي الآن، ولا سماء تحملني، هكذا أنا، مُعلّقٌ بين السّماء والأرض، مثل الدّعاء الذي ما زال يتعارك مع القدر حتّى يغلب أحدهما الآخر.

إن كنتِ قدري، فاعلمي أنّ دعائي مهزوم لأنّه وَقَرَ في القلب ولم يصدّقه عمل. وإن كنتِ دعائي، فاعلمي بأن قدري محتوم، وسيصيبني حتّى ولو طال الأمل.

في الليالي الحالكة مثل هذه، يطيبُ لي أن أنصتَ لصوت المطر، لأنّه يُذكّرني بصوتك.. صوتُ البركة، وهمسُ النعمة التي لم أشهد مثلها.. لا أفهم الليالي التي أقضيها بعيداً عنكِ، فاللّيلة التي تخلو منكِ، تخلو مِنّي.

عندما نشقى بمن نحبّ، يُصبح الشقاءُ عملاً كريماً، ويُصبحُ الصبر أجمل الفضائل الإنسانيّة، فالصبر على النقمة، كالشكر على

النعمة.. وما زلتُ صابراً على نقمة فراقك بنعمة تَذكرك.. فوجهُك نعمةٌ لا أدري كيف أشكُرها، وليتَ الشكرُ يكفي، ولو كانَ، لكنتُ عبداً شكوراً.

ما أَعجزَني الآن.. كجذع نخلة خاوية، تعجزُ عن البُكاء، ولكنّها لم تعجز عن النحيب.. عندما نبكي على مَن نحبّ، فإن دموعنا تصير دعاءً. كلّ دُعاء يحمل اسمكِ يرتفع، لأنّه يكون دعاءَ حاجة.. ليتكِ تعلمين حاجتي، ولو علمتِ لكففتِ عن الرّحيل، ولما كففتُ عن الاحتياج، فحاجتنا لمن نحبّ، أجمل من حبنا لمن نحتاج.

الحاجةُ إلى لقاءِ مَن نحبّ همٌّ بالليل، وذُلٌّ بالنهار. أمّا غيابهُ فذلّ بالليل، وذلّ بالنهار. لا شيء يمسح ذلّ العشاق مثل دموعهم؛ فالدّموع صدقةُ العشق، يؤْثِرُ بها العاشق معشوقه على نفسه، حتّى ولو كانت به خصاصة.

أتعرفين ما الإيثار؟ إنّه تفضيل مَن نحبّ على أنفسنا..

ولكنّني عجزتُ عن إيثارك عليّ، فكيف أؤثِرُ نفسي على نفسي..

كل شيء يتغيّر بعد الفراق، كلّ الألوان تصير لوناً واحداً لا لونَ له، كلّ الألحان تُصابُ بالخرس وتنسى كيف تُغنّى مرّة أخرى. ما عُدتُ أميزُ الآن بين صوت الموسيقا وصوت دموعي، فكلاهما يُذكرني بصوتك.

عندما يرحل من نحبّ، تصيبنا لعنة الذهول، وتُشلّ أقدامنا،

وتفيض مآقينا بالظلام. الرّحيل مقبرة القلوب، إنّها المقبرة الوحيدة التي لا يُهال التراب على أمواتها حتّى لا يصيروا غُباراً، وحتّى يُعذَبوا أكثر. رحيلُكِ كُحلٌ في عيون الميتين.

أتعرفين ما الغُبار؟ إنّه الأحلام المُحطّمة على جدار الأقدار.. إنّه الأُمنيات التي وُئِدَت قبل أن تعرف طعم الحنان.. الغُبارُ آثارُ الراحلين.

لا يهمّني النوم، ولا الحبّ.. كلّ ما يهمّني الآن هو أن أكتب.. توقّفي عن الكتابة يعني توقفي عن كلّ شيء.. حتّى عنكِ. أشعر بشيء يسدّ أذني، ويحبس أنفاس المشاعر في صدري.. أشعر بثقل يجثو عليّ، ولكنّه لا يسحقني.. وليته يفعل. أشعر به يحول ما بيني وبين قلمي.. كنتُ أظنّ ذاك الشيء أنتِ، ثمّ تذكرتُ أنّك تَحُولين ما بيني وبيني.

كلّ شيء يغيب مع غيابك.. ولستُ وحدي من يختنق بعدك، فحتّى الهواء يختنقُ لحظة وداعك.

الرّحيل بحرٌ مِن ظلمات، يمتدّ بين الأرض والسماوات، لا يمخر أمواجه إلا من كان مركبه من حديد، مثل قلبه، لا يمتطي فُلْكَه إلاّ من استطاع أن يؤمنَ بأن خلف ذلك البحر تكمنُ حياة.. ولماذا يحتاج الحديد إلى حياة!

أُفضّلُ أن أبقى وأنساك، على أن أرحل وأتذكرك. فالحياة معك لا تحتاج إلى ذاكرة، وكل ما تحتاجه هو قلب ينبض، لأنّه يصير حينها

حياة مليئة بالأمنيات الدافئة.. الأمنيات التي لا تتحقق بسرعة تمنحنا وقتاً للدعاء والتأمل..

هل تعرفين ما التأمل؟ إنّه محاولة نسيان كلّ شيء لوهلة من الزمن.. أما أنا فأريدُ أن أنسى كلّ شيء وأتذكرك..

معكِ يصعبُ عليّ أن أتأمّل شيئاً غيرك. يا للعجب، كيف صرتِ الدّعاء والتأمل؟

أشعر بصمت عارم يجتاحُني الآن، ويغتالني خنجرٌ من حنين حتّى يُلامس طرفه قَعْرَ روحي.. إنّه الحزن يا حبيبتي. انظري إلى وجهي، شاحبٌ كالعاج، ولكن لا قيمة له مثله.. أحتاجُكِ أكثر من أيّ وقت مضى، وأكثر من أيّ وقت قادم.

كل شيء في كان يرتعش قبل قليل، أما الآن فلا شيء سواي هنا، بل حتّى أنا ما عدتُ أشعر بي. كلّ الأصواتِ حولي تئنّ، وكلّ ما حولي صار بداخلي.. تُرى كيف يئن العالم من أجلي؟

كلاّ يا أنا.. إنّه قلبي الذي يئنّ، ولشدّة أنينه، صار قلبي بحجم العالم.

***

في المعارك، تُكسّر السيوف والرماح، إلاّ معارك الحبّ، فلا شيء يُكْسَر فيها سوى القلوب. في كلّ معركة معكِ، كنتِ تكسرين لي قلباً،

وكنتُ أعود في كلّ مرّة بقلبٍ جديد علّني أنتَصِر، أو أنكسِر مرّة أخرى. كم نحبّ الذين يكسرون قلوبنا، لأنّ من كسرَ شيئاً صارَ أولى بجبْره. إن من حقّ كلّ إنسان أن يعيش حالة انكسار واحدة في حياته.. آهِ، كم أحبّ انكساراتي معك!

كان قلبي بألف قلب، ولكنّ ألف قلبٍ لم يتسعوا لحبي لك.. لم يعد الحبّ يكفيني الآن، أحتاجُ إلى أكثر من الحبّ لأحتملك. جئتُكِ رَجُلاً بألفِ من رجال الأرض، فوجدتُكِ بألفِ امرأة من نساء السّماء.

أجاهدُ فيكِ حتى أمحوَ خطايايَ، وحتى لا تُمحى خُطايَ، وما همّني إن تعفّرت قدمايَ في الترابِ، فسأغسلهما بدموعي عندما أراكِ. أجاهدُ، لا كي يُقال مقاتلٌ، بل كي يُقال عاشقٌ، فالمقاتل قد لا يموت شهيداً، أما عاشقكِ، فشهيدٌ مذ وقعت عيناه عليكِ.

أجاهدُ فيكِ بجيشٍ منّي ومنكِ، ففي الميمنة وضعتُ رسائلي، وفي الميسرة وضعتُ رسائلك، وفي مؤخرة الجيش وضعتُ ذكرياتنا حتّى تدفعني للمسير قُدُماً. أمّا في القلب فوضعتُكِ أنتِ.

كنت أسأل المنجمين قبل كلّ معركة إن كنتُ سأعود، وفي كلّ مرّة كانوا يقولون لي: «ستعود إليها».. كذب المنجمون وأنتِ لم تصدّقي. قبلكِ كنت أستحي من كلمة «أحبّك» فكيف لفارسٍ مثلي أنَ يكون ضعيفاً، أمّا الآن، فصرتُ أستحي مِن ألاّ أحبّك، فالفارس الحقيقيّ هو الذي يحمل في داخله قلب امرأة. صرتُ أذكُر اسمكِ بين الرّجال، لا ليعرفوا أنّك حبيبتي، ولكن ليعرفوا أنّي حبيبك.

في إحدى الليالي، جلستُ إلى نفسي ورسمتُ وجهكِ في كفّي حتّى أراكِ في كلّ حين، وكلّما أردتُ أن أنام بعدها، توسّدْتُ تلك الكفّ، وأغمضتُ عينيّ حتّى أراكِ فيهما.

أجاهدُ فيك، وأعلم أنّني لن أهزم، فقلبُكِ راية للسلام، وأعلم أيضاً أنّني لن أنتصر، فالنصر على من نحبّ هزيمة. كم أعشقُ انهزامي أمامك..

أجاهدُ فيكِ، وأعلم أنّني لست فارساً إلاّ في عينيكِ، ولهذا أجاهد.

في حياة كلّ منّا معركة تنتظره أن يخوضها، وامرأة تنتظره كي يحبها.. وها أنذا أخوض كلّ معارك العشق وليس في قلبي موضع شبر إلاّ وفيه طعنة بسيوف غيابك، وما زلت أبحث عن تلك المعركة الموعودة.. لا تنتظريني كي أحبّك، فقد أحببتُكِ وقضيَ الأمر. حبّك كالحياة، لا توهَبُ إلاّ مرّة واحدة، وفراقك كالموت، لا يتكرّر.

أجاهدُ فيكِ، وفي صدري جحافلُ الشّوق تدكُّ قلاع الفراق، وتفتحُ مدن الشّعر لتَسكُبَ على قلبكَ غنائمها.. مدنكِ يا سيّدتي لا ترتوي إلاّ بدمي، وأشجارها لا تورِقُ إلاّ بدمعي.. سأنتظركِ، ولو نبتت الأزهار بين أصابعي.. سأنتظرك، ولو نبتَ السنديان بين أضلعي.

أجاهدُ فيكِ، وأكتحلُ برُمحِ الشّوق إليكِ.. عيني، يا عيني، قد عجزت عن الإبصار بعدك.. فكيف ترى عين لا تُبصرك. أجاهدُ فيكِ

بقلبٍ ليس له حدّ السيف، ولكنْ له بياضه.

جئتُكِ مُهاجراً لِعناقكِ واعتناقكِ.. جئتُك راحلاً بين الحزن والفرح، بينَ قاعِ العالم وسقفه.. جئتُكِ لا أحمل إلاّ قلباً، وبعضاً مِنّي..

أجاهدُ فيكِ.. إلاّ أنّه لا نَصْرَ بكِ ولا شهادة.

***

لا أدري لماذا أشعر بشوقٍ عارمٍ إليك.. تجتاحُني تفاصيلك، وتغمرني حكاياتك، ويملؤني صدى صوتك الذي ما زال يتردد في أروقة صدري. أسمعُ صوتك يتدفق في أذني، فيجرف معه حزني. يغتالُني عِطْرُكِ الذي يحملُني إلى الوراء، ويُحمّلُني مالا أطيق.

أشعُرُ بصوتِكِ يسري بين حُجُراتِ قلبي المُتهالكة ليعيد ترميم ما تبقّى من جُدرانٍ ما عادت تُخفي تحتها أيّ كنوز. لا تتفضّلي عليّ، ولا تُقيمي جِداري، ودعيه يسقط، فليس لي ولدٌ، ولم أكن صالحاً. ولو كان لي ولدٌ منكِ، لكان ذاك كنزي وجداري.

لا أحبّ إلاّ الدروب التي تحملُ آثار قدميك، فلقد أدمنتُ المشي على آثارك وفي إثْرِك. إنّ أثَر من نحبّ تجسيدٌ لصورته. لا أدري كيف أصلُ إليكِ، فكلّما بحثتُ عنكِ، وصلتُ إليّ. لم تعد الصّحراء تكفي للبحث عنكِ، وكلّما حاولتُ أن أخوض بذكرياتي البحر، أتذكّر أنّني لا أملكُ عصا موسى، ولا قرابة لي به كهارون، وكلّ ما أملكه بضع كلماتٍ أُبارِك بها خبزي المهترئ كلّ صباح، علّه يمنحني القوة كي أُكمِل المسير.

كان دُعائي معك:

ربِّ أكرمنِـي وهَبْ لـي حُبّاً وشوقـاً كما ينبغي، ولا ينبغي لأحدٍ من بعدي.

وصار دعائي بعدك:

ربِّ أعنِّي، وهَبْ لي صبراً أكثر ممّا ينبغي، وحبّاً أقلَّ ممّا أستحق.

الصّبْرُ قُربان الحبّ، ولهذا أُقدّمه كلّ يومٍ علّه يُتقبّل مِنّي، فما عُدتُ أطيق الغربان في حَقلي أكثر من ذلك.

عندما كنتِ إلى جانبي، كان كلّ شيء يبدو ساكناً، كانت الساعات تبدو عملاً مُبْتَذَلاً، وكنتُ أخلعُ معكِ ساعتي حتّى لا تلدَغني عقاربها. عندما كنتِ هنا، كان كلّ شيء هنا أيضاً، حتّى الأمنيات، حطت رحالها معنا.. حتّى الأحلام، كانت تُقيم بيننا. لم أعرف السفر قبلك، فقد اعتدتُ البقاء معك، واليوم، اعتدتُ الرّحيل بعدك.

أكتبُ رسائلي إليكِ قبل صلاتي حتّى أُضمّنها في ابتهالاتي، وأُصلّي بعد كلّ رسالة لكي يعرف الحمام طريقه إليكِ. كلّ الحمام صار يرحل عني ولا يعود.. حتّى الحمام الذي يحمل رسائلي يُحبّك.

لماذا يرحل من نحبّ؟ ولماذا نحبّ من يرحل؟

بنيتُ معكِ مدينة أجمل من كلّ المدن، لأنّها المدينة الوحيدة في التاريخ التي لم يسكنها إلاّ اثنان. كانت أجمل من سمرقند، وأكثر فتنة منها.. كانت أجمل لأنّها كانت أنتِ. لن أنسى آخر يوم قضيناه معاً، دعوتُ يومها ألاّ تموت المدينة، ولم أعلم أنّ موت المدنَ يكون برحيل ساكنيها. وليتني حينها دعوت أن نموت كلينا ونُدفن معاً حتّى لا نُقاسي الرّحيل، وحتّى لا تموت المدينة، فموتُنا مع مَن نحبّ خيرٌ مِن حياتنا دونه. لم يعد البكاء يكفيني.. أحتاجُ إلى أكثر من البكاء لأحتمل فراقك.

أحبّك كلّ يوم مثلما أتَيْتِني أوّل مرة، حتّى إذا غيضَ الشوق، أعدتُ كتابتكِ تحتَ وابلِ الذكريات، فإن لم يكن وابلٌ، فَطَلٌّ منكِ يكفيني لتمتلئ كتب العاشقين بكلّماتي، وتفيض قلوبهم بتُرّهاتي.

ها قد امتلأت ذاكرتي بالغبار.. وحدها أصابعك تعرف كيف تزيحه عنها بسكون.. تحدّثي قليلاً علّني أتذكّر فأكتب، فكل حرف يلامس شفتيكِ يصير رواية.

سأرويكِ الآن قصّة شرقيّة، وسأصرخ باسمكِ على أسماعِ سمرقند..

وسأنثر على صفحاتكِ زعفران قصائد الخيّام..

وسأحيكك سجادة على رمال تبريز المباركة، وأُبَعْثِرُ على عتباتها ماء زهرٍ مِن مُقل العذارى..

وسأنثرك شعراً في سهول الجبال الهائجات..

وسأرسمُكِ لوحة على جدران المعابد القانتات..

وسأعزفك لحناً على أوتار القيان الفاتنات..

وسأحْمِلك شوقاً على ظهور الجياد الصافنات..

ثم سأقلب الصّفحة الأخيرة، وأكتب على ظهرها: كانت هنا مدينة..

أشتاقُ إليكِ شوقاً لا يُشْبِهُهُ شيئاً إلاّ أنتِ.

***

تعلم شوق أنّ المباشرة في الحبّ ليست من شِيَمِ العُشّاق، ثم إنها لا تدري ما مدى صدق حبه لها، وقد يكون يستدر به عواطف لتعينه على الكتابة.. هذا ما دار في نفسها. جلست وكتبت في مفكرتها:

«يا لعذوبة الطمأنينة حينما تكتب لي.. تلفتّي من كلّ الجهات.

تعرف، أقصى ما أتمناه الآن هو أن أضع رأسي على كتفك وأصمت. ما أطرب الصّمت في حضورك حينما تقول لي على الطرف الآخر: «اشتقتُ إليكِ» فأكذب عليك عندما ألوذ بالصّمت، وليتني كنت أستطيع أن أقول لك: «وأنا اشتقتُ إليك أكثر»

حبيبي، صمت العاشقين كَذِبٌ عَذْب.

لا أشتاق إليك أكثر منك، أنا أشتاق إليك ذروة الاشتياق. كان من الإنصاف أن أقول لك: «وأنا أشتاق إليك، وأحتاجك مثلما أحتاج الهواء».

الهواء فقط ما يشبهك يا حبيبي.. تسكن كلّ شيء بلا نهاية أو بداية. أنت بالفعل تسكنني.. تملأني.

أتمنّى أحياناً أن أغمض عينيّ وأنا أتحدث إليك، ثمّ أطلق العنان لكلّماتي لتسمعها منّي دون حجاب أو ستار. كم أحسد الشّعراء على جرأتهم في البوح، وكم أكره خجلي أمامك.

هل سيأتي يوم تقرأ ما أعترف به؟ ما يعتريني أمامك؟ لا تغضب منّي إن قرأت هذا، أعلم أنك تتمنّى أن أبوح لك بهذا الكلام أمامك وفي حضورك، ولكنّي أفشل.. حقّاً أفشل.

سأخبرك بشيء...

أحياناً، أقف أمام المرآة وأبدأ بالتحدث إليّ وكأني أتحدث إليك.. وبعد جملتين، أصمت.. أتعرف لماذا؟ لأنّني أراك ماثلاً أمامي.. فأغار من الزجاج. كيف للزجاج أن يحتضنك بينما أتبدد أمام حضنك كالهشيم؟

وائل، أيحقّ لي أن أغار؟ ولم لا؟ فأنا أغار على أصدقائي، لكنّني أعترف أني أغار عليك أكثر.. ماذا سيكون ردّك لو أخبرتك بجنوني عليك؟ وبجنوني إليك؟

حينما أكتب إليك ألمس عشقي لك.. أعترف الآن هنا أنك أكثر من صديق.. أحبّك، ولا شيء سوى أني أحبّك.

كم أشتاق إليك الآن. حبيبي، ليتك تعرف أنّني حينما أسمع صوتك أو أقرأ كلماتك تقصمُنِي نصفين.. نصف شوقٍ إليك، ونصف هرب منك.

أعترف بأنّني كثيراً ما أسأل نفسي عن حقيقة مشاعري تجاهك.. أتسرع كثيراً لأنقذ نفسي من نفسي أمام هذا السؤال. فأنعت علاقتنا بـ«الصّداقة». هل أقول إنك صديقي كي أحمي نفسي منك؟ أم أحميك من نفسي؟

لن أقف عند المسميات، ليس ضياعاً، ولكن إيماناً بأني صادقة عندما أقول إنك صديقي الذي أحبه أكثر من ذاتي.. وحبيبي الذي أصادق مشاعره وأحزانه وأفراحه أكثر منه.

ألا يكفي أنك جعلتني أفكّر بأن لهذه الغُربة التي عانيتُ فيها كثيراً، ذكرى جميلة أحملها في داخلي؟

أشتاق إلى أن أكون معك وأنا أضحك.. أشتاق إلى أن أجلس بجوارك، ونحتسي القهوة معاً، بينما ينهمر المطر غاسلاً كلّ آلامنا، ومطهّراً علاقتنا بمائه المقدّس.

أنا يا صديقي.. أو حبيبي.. نصف جنون، ونصف تعقّل أمامك.. نصفٌ متماسك معك، ونصفٌ مبعثر خلفك.

نصف أمان معك، ونصف خوف بعدك.. نصف أنثى تخفي حبّها، ونصف خليلة تحلم بأن تجاهر بك.. نصف حبيبية لك، ونصف صديقة معك.

نصف أرض تحملك، ونصف سماء تحرسك.

في حضورك، يكتمل كلّ شيء بداخلي، ولأنّ كلّ الأشياء تبلغ ذروتها معك، حبي، شوقي، جنوني، تعقلي، حنيني، خوفي، سكينتي، أنوثتي، وصداقتي، فإني أشعر بأني أستوطن القاع عندما تغيب.

أشعر دائماً أنّني لن أحزن إذا لم تنصف الدّنيا حبّنا. أشعر أنّنا، وإن لم تبلغ الدّنيا ذورتها معنا، فسنبلغ نحن ذروة الحبّ، حتّى وإن افترقنا.

حبيبي، يا أمنياتي المؤجّلة، سأكتب لك ما حييت، وسأكتب عنك ما بقيت. لا لشيء إلاّ أنّني أحبّك. يا بعض تعقّلي وكل جنوني.

كن صديقي أو أكثر إن شئت..

غداً في طريقي إلى المطار لن أكترث لحزني.. سأغادر عمّان لأرافق خالتي في مرضها الآثم إلى ألمانيا. أرحلُ أكثر دون أن أنعم بحضنك.

طريقي إلى المطار غداً سيمرّ عبرك.. سأقضي الوقت وأنا أقلّب رسائلك وكلماتك.. ستبقى روحك أجمل الأرواح المحلقة في سماء هذه

المدينة القاسية.

أحبّك يا صديقي.. أحبّ انكساراتي وأشواقي التي نبتت في ظُلُمات هذه الغُربة.. أحببتُ انكساراتي هنا، أحببتُها لأنّي أدمنتك.. أدمنتُ حنانك، وكم أخشى أن تعتاد انكساراتي الجَبْرَ بين يديك..

أحبّك يا صديقي.. وكفى بالحبّ أنّي أحبّك..»

***

لم يكن أحمد راضياً عن تصرفات سلمان، فقد صار نائباً للحاكم، ولا يليق بمثله أن يُحيط نفسه بأصدقاء كأصدقائه هؤلاء. توعدهم أكثر من مرّة - في حديث خاص مع المقرّبين من أصدقائه - بأن يربطهم إلى عمود ضخم، ويحرقهم، إن لم يغيّروا من تصرفاتهم وحركاتهم الناعمة وكأنهم فتيات.

كان فيصل يُمرّرُ معلومات استخباراتيّة إلى أحمد عن أنّ أصدقاء أخيه شاذين جنسياً، ولكن بعض أصدقائه أكّدوا له أنّهم ليسوا كذلك.. لا يهم، فتصرفاتهم تُقلل من رجولتهم، وتُبدّد هيبة أخيه.. هكذا كان يُفكّر.

وفي أحد الأيّام، أرسل فيصل تقريراً ماليّاً لأحمد عن مصروفات أخيه في إحدى زياراته للبرازيل. وكتب ملاحظة بخط يده: «لقد عاد نائب الملك، حفظه الله، لتوّه من مهرجان المثليين في أمريكا اللاتينية.. وبالمناسبة، إنّه أكبر مهرجان من نوعه في العالم».

سرت رعشة في جسد أحمد وهو يقرأ الملاحظة، فاتّصل بعمّه على الفور وبدأ يصرخ:

- هل أنت متأكد ممّا تقول؟

رد فيصل بهدوء ووقار كان قد خطط لهما منذ فترة:

- نعم يا سموّ الأمير. لدينا صورٌ تثبت ذلك.

- هل تعني أنّ أصدقاء سلمان شاذين!

- كلا يا سموّ الأمير.. أخوك هو الشّاذ، وليسوا هم فحسب.

صرخ أحمد حتّى كاد أن يخرق طبلة أذن عمه:

- أريدك أن تقبض على كلّ أصدقائه وترمي بهم في السّجن.. الآن يا فيصل.. أتفهم، الآن!

اتّصلت الملكة بابنها عندما وصلت الأخبار من خدم سلمان، بعد أن شهدو اعتقالات أصدقائه في قصره:

- ماذا جرى يا أحمد، لماذا اعتقلت أصدقاء أخيك وفرضت على منزله حراسة عسكريّة؟

- أرجوك يا أماه لا تتدخلي في هذا الموضوع، فخير لك ألاّ تعلمي السّبب.

- كيف لا تريدني أن أعلم! أنا أمّه وأمّك أنت أيضاً، حتّى وإن أصبحت وليّاً للعهد.

- أنا الملك في غياب أبي.. صدّقيني الأفضل لكِ ألاّ تعلمي.

- إن لم تُخبرني بسبب هذا التصرف فأذهب إلى منزل سلمان وأصرف الحراسة التي فرضتها عليه، وهذا سيحرجك.. خير لك أن تبلغني الآن.

ضاعت الكلمات من فم وليّ العهد.. لم يعرف ماذا يقول لأمّه. أراد أن يكذب إلاّ أنّ أنفاسه المتسارعة كانت تفضحه:

- آه يا أماه.. لقد اكتشفت أنّ سلمان قد عاد لتوّه من أكبر مهرجان للمثليّين في العالم.. سلمان شاذ جنسيّاً يا أمّاه.. وأصدقاؤه المثليّون هم الذين أقنعوه بالسفر.

صمت الطرفان لمدّة كانت كفيلة بإرجاع ذكريات الطفولة إلى ذاكرة أحمد.. ذكريات شاركتْهُ فيها أمّه دون أن يشعر.. سمعها تبكي، فنزلت دموعه، ولكنّه جاهد حتّى لا يُشعرها بأنّه يبكي معها:

- كفى يا أماه، لا تبكي.. لكلّ مشكلة حلّ.

- وهل حلولك كحلول أبيك. لقد حرمني من سيف.. أخوك سيف يا أحمد.. هل ما زلت تذكره؟ هل تعرف أين هو، وما هي حاله؟ ماذا ستفعل؟ هل ستنفي سلمان مثلما نفى أبوك سيفاً؟

- لا أدري، فهذا قرار يتخذه أبي ولست أنا.. سأبقي الحراسة حول منزله حتّى يعود أبي من السّفر.

- أبوك سيقتله لو علم بالأمر.. أرجوك يا أحمد، لا تخبره.

- أتمنّى أن يقتله، فأن يكون مقتولاً خير من أن يكون مثليّاً.

عندما عاد الملك من سفره، وعلم بالأمر، ضغط على قبضة عصاه ذات رأس الفيل. شعر حينها بضعف هائل يجري في عروقه. غادرته الطموحات والأحلام، وأحسّ بأنّه أبٌ فاشل. كان يريد أن يقتله لولا توسّلات أمّه بأنْ يرسله للدراسة في إحدى الجامعات الأمريكيّة. ولو قتله فإنّه سيفضح الأسرة كلها.. هذا فقط ما جعله يعدل عن رأيه. أمر فيصل بأن يرسل معه مجموعة من الرّجال الذين يثق بهم وأمرهم ألاّ يفارقوه حتّى أثناء نومه. قيل للجميع، إنّ نائب الملك تنازل عن منصبه لأنّه يريد أن يُكمِل دراسته العُليا، ولم يكن يسمح له بالعودة إلى المملكة إلاّ في الأعياد فقط، وكان على أمّه أن تسافر إلى باريس ويأتي هو إلى هناك كلّما أرادت أن تلتقيَ به.

***

فرك خالد جبهته بأصابع يديه ثمّ طلب من النادل أن يحضر له مسكناً للصّداع. انتبهت زوجته لكثرة تكرار نوبات الصداع التي تُباغته مؤخراً:

- أنت في حاجة إلى النوم يا عزيزي.. تبدو قلقاً ومتوتراً والنوم

الكافي سيساعدك على إراحة أعصابك.

- أعلم ذلك، ولكن الكابوس نفسه عاد لمراوغتي في الأسابيع الأخيرة.

- الأسد!

قالتها وقد توقفت عن الأكل فجأة.

- نعم إنّه الأسد نفسه.. ما زال يطاردني في أحلامي. أحياناً أتمكن من الفرار منه، وأحياناً أشعر بأنيابه وهي تمزق أحشائي. لا بدّ أن أسأل أحد مفسري الأحلام عنه.

قالت محذّرة بصوت عالٍ:

- كلا، أرجوك ألاّ تفعل. تجاهل الموضوع، واستعذ بالله.

- لماذا كلّما قلت لك إنّني أريد تفسيره، تقولين إنّ الكابوس إذا فُسّر فإنّه قد يحصل، هل تتوقعين أنّني إذا فسّرته فسيلتهمني أسد مثلاً؟

قالها وهو يضحك، أمّا هي فقد ردت عليه وقد طأطأت رأسها ونظرت إلى يديه:

- تفسير الأسد في الأحلام مرعب، ولا أريدك أن تسأل عنه أحداً أو تبحث عنه في كتب التفسير.

ثم أمسكت بيديه وضغطت عليهما وهي تنظر إليه وعيناها قد اغرورقتا بالدّموع، وقالت له:

- عدني يا حبيبي ألاّ تفعل ذلك.. أرجوك.

استغرب من تلك المشاعر التي كادت أن تفسد الأمسية، فقال لها بسرعة:

- بالتأكيد. أعدك ألاّ أفعل. لنتحدث في أمر آخر.

وفي طريق عودتهما من المطعم، جاءه اتّصال من الملك مباشرة. رفع السمّاعة وشعر من صوت سيّده بأنّه ليس على ما يرام. أمره بالقدوم فوراً. أوصل زوجته البيت، وانطلق إلى القصر. دخل مكتب الملك، فرآه جالساً وممسكاً في يده بعصا وحيد القرن. دبّ الذعر في أطرافه، فوحيد القرن حيوانٌ شرسٌ جدّاً، ويهاجم فجأة وبعنف ولديه القدرة على اقتلاع شجرة من جذورها إذا ما نطحها بقرنه الصلب. وغالباً ما يُهاجم وحيد القرن لضعف نظره، وعدم قدرته على رؤية الأشياء بوضوح.

أدرك خالد أنّ الملك أراد أن يُرسل له كلّ تلك الرّسائل وأكثر، من خلال إمساكه بتلك العصا. أمره بالجلوس وسأله:

- ما قصّة انهيار بورصة الأسهم؟

أراد أن يُخفي ارتباكه ولكنّه عجز. فلم يعد ذلك القائد الذي

خاض حرباً ضد النظام السابق، ويبدو أن السّلطة وحياة القصور قد أفسدت قوّة روحه ورباطة جأشه. تذكّر ما قاله السّفير الشّرقستانيّ ذلك اليوم:

- إنّه أمر طبيعي يا سيّدي أن تتعرض أيّ بورصة جديدة لصعود وهبوط.

- لم يكن هبوطاً يا خالد، كان انهياراً، وأنت تعرف ما أقصد جيّداً!

- ولكن المملكة استفادت يا سي..

قاطعه، وهو يضرب بعصاه الأرض بشدة:

- المملكة استفادت! تقصد أنت استفدت، وملأت حسابك البنكيّ بملايين الدنانير!

وقف الملك، وقال له وهو يميل على عصاه متّجهاً خارج المكتب:

- من الغد سيكون فيصل رئيساً للديوان، وسيكون مديرك المباشر.

ولم يتمهّل حتّى يسمع ردّه. شعر خالد فجأة أنّ الملك قد أطلق عليه النار وانصرف.. ركب سيارته وظلّ مُحدّقاً في الأفق. لم يشعر حينها بأيّ شيء.. كان يشعر بأنه قد مات، وأن كل شيء حوله قد صار

مُعتماً. صار المكان حوله أشبه بقبو لا يدخله النور أو الهواء.. أحس أن الأسد على وشك الظهور.. هكذا فكّر. كانت تلك المرّة الوحيدة التي تمنّى فيها أن يخرج الأسد ويلتهمه، إلاّ أنّه خيّب ظنّه!

***

غضب وائل من سفر شوق إلى كولن في ألمانيا، وقال في نفسه إنها تحاول التهرّب منه وربما هجْره، فقرّر التوقف عن مراسلتها. فعندما كانت في عمّان، كان يزورها مرة كلّ عدّة أشهر. وكانت هي أيضاً تزوره في عربستان. وفي إحدى المرات، دعاها إلى العشاء، وفاجأها عندما حضر ومعه أمّه وابنته مريم. أحبّت الأم شوق كثيراً، وتعلّقت بها مريم، ولم يتوقف الاتصال بينهما حتى بدأت تناديها «ماما شوق».

كان يأمل أن تنتهيَ مدّة إعارتها إلى عمّان بسرعة وتعود حتّى يتقدم لخطبتها، وكان معارضاً لمشروع سفرها مع خالتها التي تُعاني من مرض سرطان الدم. قال لها عدّة مرات إنّ لخالتها أبناء يمكنهم أن يُسافروا معها، إلاّ أنّها كانت تكرّر على مسمعه إنّ خالتها هي التي تولّتها بعد وفاة أمّها، ومن حقها عليها أن تكون معها في هذه الظروف الصّعبة.

عندما عجزت شوق عن الوصول إليه، قررت، بدلاً من أن تحتفظ لنفسها برسائلها في دفترها الصّغير، أن تُرسلها إليه. قال لها أكثر من مرّة إنّ من حقه أن يقرأ ما تكتب، ولكنها كانت ترى أنّ يوميّات المرء أكثر شيء خاصّ في حياته، وليس من حقّ أحد أن يطّلع عليها.. كتبت

إليه:

«يا لكآبة الأماكن التي لا تحتضن سوى تخبطات الشّوق وبعثرات الحنين إليك. يا لمرارة فنجان القهوة الذي لا يعكس صورة وجهك على سطحه.. يا لقسوة السّماء حينما تجود بالعطاء، بينما أنت هناك تحت سماء أخرى. يا لجبروت المطر هنا من دونك!

ظننت أنّ هروبي من المستشفى، حيث ترقد خالتي، إلى هذه الساحة المكتظّة بالناس سينقذني من شوقي إليك.

حين وصلت إلى هنا وجدتُكَ تسكن في وجوه المارّين. وجدتُ الحنين إليك يرحّب بي على كرسيّ بعيد متوارٍ في زاوية قريبة من الكاتدرائيّة الكبيرة.. لماذا تسكن الأماكن بوضوح كلّما زادت قسوتك عليّ!

وائل.. لماذا شحّ الوصال بيننا؟ لماذا جئتُكَ عاصمة فتركتني منفى؟ لماذا علمتني السير بين جنباتك ثمّ تركتني أتوه دون دليل؟ لماذا لا أقدر على البوح لك بقسوة صدودك عنّي؟ حتّى هنا في هذا المكان البعيد، ما زلتُ يا صديقي أبتسم كلّما زاد حنيني إليك.

كم أتمنّى أن أثور غضباً في وجهك كما تفعل النّساء عندما يُمعنُ الرّجال في الصدود. لكنّني أعلم كيف سينتهي الأمر، هذا إن بدأ أصلاً! أعلمُ أنّني لا أملك القدرة على فعل ذلك. أعرف أنّني سأبتسم إذا ما لمحتُ ظلّكَ، فكيف إذا ما نظرتَ إليّ!

لماذا أفرط في اختلاق الأعذار لك؟

حبيبي.. كم أشتاق إليك. وكم أتمنّى أن تكون الآن أقرب إليّ من فنجان قهوتي. كم أتمنّى أن يسكنني صيفك رغم حرارته، فنار قُرْبِك أحبّ إليّ من برد غيابك.

حبيبي.. المارّونَ هنا يُلبِسُ بعضهم بعضاً معاطفَ ووشاحات ليدفئوا بها من يحبّون. هناك شاب يضع معطفه على رأس حبيبته كي يحميَها من جنون المطر، ويقطعان السّاحة على عجل. وشابٌ آخر تخلّى عن معطفه لحبيبته لتنعم بالدفء بينما هو، على ما يبدو، يستجدي الدفء من ابتسامتها، رغم أنّها تبخل عليه بها، فهي غارقة في تقليب هاتفها!

لو كنتَ معي الآن لما قبلتُ بمعطفكَ بديلاً عن جنونك. لو كنتَ معي، لأمسكتُ بيدك وضممتها إلي وأطلقتُ العنان لقدمي لتحملني معك تحت المطر.. وسأتوسل للسماء أن تجود بالمزيد. كم أتمنّى أن أصرخ بصوتٍ عالٍ على كلّ المارين بعجلٍ وأقول لهم: «تمهّلوا، وانهلوا من هذا الجنون قليلاً».

كم تقسو الحياة على أولئك الذين تمنحهم كلّ طقوس الحبّ والعشق والجنون فيبعثرون طاقاتهم الحالمة في أمور تافهة.

ينهكني غضبك يا سيّدي. ما أقسى أن تتوارى هذه الأيّام عنّي، وأعلم أنك غاضب منّي. لا أعرف شيئاً سوى أنّني أحتاجك، وأحنّ

إليك أكثر من أيّ شخص آخر.. يا لكآبة الأماكن التي لا تجمعني بك.

حبيبي، لا أريد أن أَلبَسَكَ معطفًا؛ حتّى لا أخلعك عندما ينتهي الشتّاء.»

انتظرَت منه ردّاً إلاّ أنّه أبَى، ولكنّه نشر رسالة جديدة:

رسائل الخميس

«كنتُ أخبئُكِ فيَّ، ولا يهمّنِي أن أراك، فمن يعيش فينا نراه في المرآة كلّ يوم.. أنتِ في داخلي أكثر مِنّي.

أخبئك فتفضحني عيناي، ويبوح بك لساني.. كلّ بَوْحٍ يحملُ اسمكِ يصيرُ شِعْراً.

حبّك كالإيمان، وَقَرَ في قلبي وصدّقته كلّ أعمالي.. وعندما يعمل الإنسان بما يؤمن به، فإنّه يصير جزءاً منه.

كلما خبأتُكِ فيّ أتعلّقُ بكِ أكثر.. في أرضكِ أنت فقط أغمسُ جذوري لكي أحيا.. في أرضكِ أنتِ فقط طُهْرُ السّماء وبركاتها.

عامان قد مرّا مذ أن رأيتُكِ.. عامانِ لم أرَ فيهما أحداً غيرك يستحقّ التذكّر.

أنتظرك، وأعلم أنّك لن تأتي، ولكنّني أنتظر.. فانتظار من نحبّ يجعله أكثر قرباً..

أنتظرك، لا لأنّني اشتقت إليك فقط، ولكن لأنّني اشتقتُ إليّ

أيضاً.. خذيني ولا تردّيني، فما عدتُ أعرف كيف أملِكني.

أغمسُ ريشة انتظاري في محبرةَ فقدك، وأكتب رسائلي إليك بحبر الأمنيات التي لن تجفّ حتّى ألقاك.

سأنتظرك، لا لأنّني مضطرٌّ إلى الانتظار، ولكن لأنّني مضطرٌّ إليك.

عامان قد مرّا وأنا أنتظر أمام بوابة القادمين.. بعد عامين سميّتها بوابة اللهفة.. عامان حفظتُ فيهما مواعيد كلّ الطائرات.

عامان خسرَتْ فيهما الفرحة نصفها، واضمحلّ بارقُ الأمل على وجه السّنين..

في غيابك، انطفأت أهِلّة العيد.. الأعياد دونك، يا عُمري، مواعيد للحزن والتذكّر.

أسهر في كلّ ليلة علك تذكريني، أو علّني أنسى.. غيابك لا يفقدني طعم الحياة فحسب، بل يسلبني الرّغبة في استرجاعها.. قولي لي ماذا أفعل حتّى أستحق عودتك.. انتظرتُكِ أكثر ممّا أستطيع، وغبتِ أكثر ممّا أستحق.

خذيني ولا تردّيني، فما عدتُ أعرف كيف أملِكني.. عندما نتنازل عن حرّيتنا لمن نحبّ، فإنّنا لا نستحق الحياة دونهم.

للحبّ أوقاتٌ أنتِ أجملها..

للحبّ نزعاتٌ أنتِ أقساها.

إن للثواني صراخاً في أذن المشتاق..

الليل في عين المفارِق عتمة، والنور عنده نارٌ، تحرق كلّ قدرة له على الحنين والكتابة.

الانتظار لا يُقرّب الأحباب، ولكنّه يزيدهم جمالاً في عين من يحبّونهم.. في غيابك، تفقد الأغنيات ألحانها، وتفقد المعاني عذوبتها.. ويصير الماء سُمّاً.

الدّموع حمَمُ الاشتياق والنحيب رماده.. دموعي عليكِ لا تحرقني، إنّها ما يمنحني الدفء في بُعدِك.

عامان لم يُنسياني شيئاً من تفاصيلك.. فتفاصيلكِ يا حبيبتي، تملأ فراغات الذاكرة.

لم يبقَ لي منكِ سوى الذكريات.. آهٍ، كيف لذكراكِ أن تكون أحنّ منكِ؟

ذكرياتنا مع من نحبّ ليست أجمل منهم، إنّها فقط أكثرُ قُرباً..

قولي لي أين ينتهي الفراق حتّى أنتظرك هنا!

غيابك يكنِسُ أحلامي وينفِضُها في سلّة الاشتياق.. الفراق يشبه الضباب، أبيض إلاّ أنّه أشدّ عتمة من الظلام.

عامانِ من الشّوق إليك لا يكفيان.. عامانِ من البكاء عليك لا يكفيان..

لقاؤكِ إحسانٌ، وأيُّ إحسان.

عامانِ يا عمري، قد صارا كلّ عمري.

***

أحببتك زمنا لا يُقاس بعدد السّنين، بل بعدد المرات التي لقيتك فيها، فلقاء من نحبّ يختزل الزمن في عينيه.

أحببتك، وكنت أقول لهم إنك ستبقين معي.. فرحلتِ عنّي، وبقيتِ في داخلي.

لكل قلب روح، وروح قلبي أنتِ..

أحببتك زمناً دون أن يعلم أحدٌ بذلك، فعندما نكتم الحبّ، فإنّنا نمنحه فرصة لينمو فينا.. الشّوق تُرْبَةُ الحبّ، والفِراقُ غُبارُها.

أحببتك زمناً حتّى صار حبنا تقويما زمنيّاً للعاشقين، وأودعتكِ مواعيد الفرح القادم، فكنتِ كلّ الفرح القادم.

أحببتك زمناً حتّى صار الزمن حُبّاً.. أحببتك وكنت أعلم أنّني لن أنالك، ولكن كان يكفيني أن أحبّك.

أحببتك بيني وبين نفسي حيث أحتفظ بك.. لم يُنسني الغياب شيئاً منكِ، فتفاصيل مَن نحبّ أشدّ تعلّقاً في الذاكرة منه..

أحببتك في صمت لأنّك كنت حديثي..

أحببتك زمناً، حتّى صار الحبّ زمناً.

الأجمل من أن أحلم بك، هو أن أحلم معك.

لا أذكر شيئاً ممّا مضى سِوى أنّني أحببتك، فالذكريات الجميلة هي تاريخنا المُصحّح.

أحببتك زمنا، وها أنذا أجلس على قارعة الزمن، أسأل عنك الليالي، وكلّما وصفتك لها أشارت إليّ وقالت: انظر في المرآة علّك تراها.. عندما نحبّ أحداً فإنّنا نرى بعينيه..

أحبّك ولا أرى إلاّ عينيك.

أحببتك زمناً حتّى لم يعد للوقت ذكْرٌ في حياتي، فعندما أحبّك ينام الوقت على وسادة السعادة.

الوقت معك أَزَليٌّ الفرح، سرمديٌّ العُذوبة..

حضورك منفى الغياب.. وبيتُ الإياب.

أحببتك حتّى فقدتُك.. عندما نحبّ نولد مرّة، وعندما نَفْقِدُ نموت مرتين..

حتّى في فَقْدك أحبّك.

أنا لا أَكتُب بَعدَك، وإنما يَكتُبُني بُعدُك..

كلّما جمعني حبّك فرّقني غيابك..

أراكِ في مرآتي، وأرتشِفُكِ في قهوتي، وأكتبكِ في حروفي، وأشمّ أنفاسك على وسادتي..

ما أقسى أن نحبّ من لا يعود!

ما أشبه قلبك بالشتّاء؛ يتّشِحُ ببياض الثلج ويفوح بقسوته..

أجملُ ما فيّ أنتِ.. وأقسى ما فيكِ أنتِ.

أتمنّى أن أراكِ في كلّ ليلة.. وما أجمل الأمنياتِ التي تحمل ملامح وجهك.

للانتظار عطرٌ لا يشمّه إلاّ القادمون..

صمتُكِ مدينة حبّ شفتاكِ بواباتُها.

ما أصعب أن تظلّ مشتاقاً عندما لا تجد من يشتاق إليك..

إنّ من يدمن الاشتياق ينسى كيف ينسى..

الاشتياق هو ألمُ استجداءِ العطف ممن نحبّ.

مِثْلي أَحَقُّ أن يَبْكي، ومِثْلُكِ أحق أن يُبكى عليه..

معك يكون قلبي جمرة، ودونك يصير هَشّاً كالرماد..

معك أكون غصناً يانعاً، ودونك أصير جذعاً خاوياً.

علقيني قنديلاً على باب بيتك، وأنيريني بصوتِ ترانيم الشتاء..

عندما تُصلّين تخرّ النجوم على سجّادتك..

رُدّيني عليَّ، أو هاتيني إليَّ.

يا أعذب مَن عَشِقَ، وأجمل مَن نَطَقَ..

يا من تحضر، فتتزين الصحارى فرحاً.. وتغيب، فتمطر السّماء شوقاً،

يا من تَسكُنني رُغماً عنّي، ولا أريدها أن تغادرَ..

لِمثْلِكِ يَشُدُّ قلبي الرِّحال، ويُهاجِرَ..

قُرْبُكِ أبيضُ كالثلج، وبُعْدُكِ أسودُ كالغَسَق.

أحببتُكِ زمناً حتّى أصبحتِ زمني.

***

أنت وأنا كالساعة الرمليّة، يملأ أحدنا الآخر كلّما انقلب ضدّه.. وها هي الأشياء كلها ضدّي، وما زلتُ فارغاً كبئر جَفَّت منذ سنين.. ألم أقل لك يوماً لا شيء يملؤني سواك؟

لم أندم على شيء بقدر ندمي على كلّ الكلمات القاسية التي تلفظت بها أمامك.. اعذريني يا حبيبتي، فعندما نعشق بجنون فإنّنا نغضب بجنون.. عندما أغضب منك، فأنا لا أكرهك، ولكني أكره نفسي.

كلّما حاولت نسيانك، تذكرتك أكثر.. كلّما مزقت رسائلك، قرأتك أكثر.. وكلّما حاولت الحياة بعدك، أموت فيك أكثر.

أرقى أنواع الحبّ أن يبلغ أحدنا قمّة غضبه من الآخر، ثمّ يقول له: أحبّك.

كل الطرقات التي سلكتُها بعدك ملأتُها بالبكاء منك، والدّعاء لك.. كلّ الطرقات بعدك يا حبيبتي تقود إلى العتمة.

اعتدتُ أن أنتظر صوتك عندما تهجع الأصوات كلّ ليلة..

اعتدتُ أن أهمس في أذنك بالأشياء التي أخاف منها كلّ ليلة..

اعتدتُ أن أبتسم كلّما رأيتك، وما زلت أبتسم كلّما ذكرتك.. كلّ ليلة.

يا قاموس اللهفة وترجمان الأشواق.. غيابك أَبْلَغ من كلّ مرادفات الفقد والاشتياق..

الحنانُ مُضافٌ إلى قلبك، والحُسْنُ مضافٌ إليك..

أنتِ تشبيه بليغ للسماء، وأشبه شيء بالخلود.

اذكريني كما تذكر الأوطان أبطالها، وقَبّلي رسائلي كما تلثم أمٌّ رسائل ابنها الذي لا يعود.

يا ابنة الفرح، وسيدة الرّبيع، ما عادت بيوت الشّعر تؤويني.. ما عادت البلاغة تكفيني..

فقد بلغتُ من الشّوق أرذله، ومن الصبر أجمله..

ابحثي عني في وجوه الغرباء، واسمَعيني في حكايا المهاجرين.

اذكريني قبل الموت بساعة، علّيَ أجد عند الموت حياة.. واذكريني بعد الموت بساعة، حتّى يكون في موتي حياة.

أَحْبَبْتِني ساعة، وأُحبّك حتّى قيام الساعة.

تفرغتُ لحبّك معك، ثمّ فرغ فؤادي بعدك.. قربك يملؤني، وغيابك يُفْرِغُني مِنّي.

الذاكرة مثل زجاج النافذة، تُرينا من نحبّ ولكنها تعجز عن إيصالنا إليه.. أمّا ذاكرتي، فإنّها نافذة مشروخة، لا ينفذ منها إلاّ الشتّاء والظلام.

عندما كنتُ معك، لم أكن في حاجة إلى النسيان، فلم يكن في ذاكرتي مكان لأحد غيرك.. كنتِ ذاكرتي، وصرتِ اليوم ذكرياتي..

كنتِ محبوبتي، وصرتِ محبرتي.. كنتُ أجبر انكساراتي في الحياة برؤية وجهك، وأداوي أسقامي بسماع صوتك.

كنت لا أفرح إلاّ بك، ولا أحزن إلاّ عليك.

تُرى، كيف يمكننا أن نعتاد رحيل من مات، ولا نطيق رحيل من لا يزال على قيد الحياة؟

لماذا عليّ أن أعتاد رحيلك وأنا لم أعتد حضورك؟

لماذا كان عليّ أن أفارقك، وأنا أحبّك إلى هذه الدّرجة؟ وكيف يمتلئ قلب المرء بالحبّ، وتخلو حياته ممن يُحبّ؟

لماذا ألتقي بالناس كلّ يوم، ولا ألقاك يوماً؟

لماذا كلّ الأشياء من حولي تحنّ إليك، ولا تدلني عليك؟

نحتاج إلى الابتعاد عمن نحبّ حتّى نفتقده..

فقدُك هو الشيء الوحيد الذي يتكرر كلّ ليلة.

جفّت رسائلي إليك، وما جفّت دموعي عليك.. فالدّموع حِبْرُ الذاكرة.

لا شيء يقتلني مثل تفاصيلك.. إنّ تذكُّر تفاصيل من نحبّ إبادة جماعيّة لذكرياتنا الأخرى.

لستُ مديناً للحياة إلاّ بك، ولستُ مديناً لك إلاّ بقلبي.. لقد كُنتِ نفسي الأمّارة بالحبّ، وكنتِ الحبّ الذي استَعَضْتُ به عن نفسي.

لم أكن أعلم أنّ في الحياة هذا الكمّ الهائل من الحزن حتّى فارقتك.

عندما أكتب عنك، ينبتُ الشوك بين أصابعي، وتنطفئ مصابيح الطرقات التي تؤدي إلى بيتي.. عندما أكتب عنك، ينهار العالم على عتبات بابي، ولا يبقى أمامي إلاّ أنتِ.

عندما تحضرين، أنهارُ على الأوراق، وعندما تغيبين، يتمدّد قلمي بين دفاتري كميْتٍ ووُرِيَ مثواه الأخير.

اعتدتُ أن أراكِ كلّما نظرتُ إلى مرآتي..

ما أقسى أن ينظر أحدنا في المرآة فلا يرى شيئًا.

اعتدتُ أن أتذكرك على مهل، لأنّ تذكرك شكل من أشكال الدّعاء والتأمل».

أربكتها كلماته، ولم تدرِ إن كان يُريدها أن تتصل به، أم أنّه أراد أن يؤلمها فقط.. «ما أعذب لومه».. هذا ما قالته لنفسها «فحتّى في لومه يُحبّني». قرّرت أن تستمرّ في مراسلته رغم تجاهله لها:

«لماذا تغيب عن أسطري، رغم أنّ الأسطر لا تخلو منك! ها أنتَ تسكن بعيداً عني، رغم أنّ المساكن لا تخلو منك! ها أنت تتنفس بعيداً عني، رغم أني ما زلت أتنفس بك. ها أنت تدير ظهرك، رغم أني ما زلتُ أرى طيفك يحاصرني، وأرغب في التعثر فيك، والتبعثر أمامك.

أتعبني وقوفي المحتار أمام جنون مدّك وجزرك.. فيا ليتك تبوح بسرّ الصدود الذي تعتنقه معي منذ حين..

أخبرني، لماذا تعاكس أمواجك سُفُن مشاعري؟ لماذا كلّما استقرّت أمواج غضبك، جَثَتْ سفينة قلبي على سطحك؟ كيف لي أن أستثيرك من جديد كي تعيدني إلى أحضانك، أو تعيدني إلى البرّ، حيثُ كنتُ أقف؟ لماذا تكسّرت مجاديف حروفي في ظلمة هجرك؟

صديقي، أو حبيبي.. أو أيّهما أحببتَ أن أناديك، لا تقسُ عليّ أكثر، فحتّى البحارُ تعطفُ على مرتاديها وتمنحهم نهارات صافية بين عواصفها.

كم هو متعب أن تنظر إلى نهاية الأفق، وتظلّ مؤمناً بأن الموت في

أعماق البحر أجمل من الموت على أطرافه!

لم أعد أدري كيف أنجو منك، أو أغرق فيك!

أتعمد عدم التقرّب منك، كلّما أمعنتَ في صدودك عنّي، أتعلم لماذا؟ لأنّي أخشى أن أستثيرك بإلحاحي وتطفلي، فتغضب أكثر.. أخشى أن تثور أمواجك، فترمي بقلبي خلف الأفق، وخارج الحدود.

كانت الحياة سخيّة بالإيقاع بيننا. اختلفنا كثيراً، ضحكنا كثيراً، وعَشِقنا أكثر. أذكر أنك قلت لي ذات مرّة إنّني أغضب بسرعة، رغم أنّني حتّى الآن لا أملك الجرأة على فعل ذلك.

أنا مؤمنة أن الحياة تقسو عليّ وعليك لتمتحن محبّتنا. إيماني بك راسخ، ورهاني على قلبك باقٍ حتّى يوم موتي.

وائل، حتّى وإن لم تعد إليّ فلن أنزعج. يكفيني أن أبقى ذكرى جميلة.. ويكفيني أن أعرف أنك سعيدٌ الآن.. هل أنت كذلك؟

يا لتناقضاتي، فلو قلتَ إنّك سعيد فسأحزنُ لأنّ ذلك يعني أنّك تجاوزتني أبداً.. ولو قلتَ إنّك لست سعيداً، فأيّ حزن سيتملّكني يا حبيبي.. هل رأيتَ كيف يُضيع الحبّ بوصلة الرّوح!

يكفيني أن أتمنّى لك الخير أينما كنتَ، وأن أقرأ ما تكتب حتّى أقرأك. سأبحث عنك دوماً، وأعدك أن أجدك في داخلي يوماً.

لماذا أشعرَ بأنك واقفٌ هنا أمامي وأنا أكتب هذه الرسالة؟

أحبّك يا سماء روحي.. يا حدودي.

عُد إليّ وكُن ما تشاء.. عُد أنتَ فقط، حتّى أعود أنا».

ظلّ متجاهلاً حتّى جاء الخميس:

رسائل الخميس

«كثيفٌ هو حبّك، ككثافة الرّوح عند الولادة.. إن أسوأ طريقة لتقتُلَ مَن تحبّ هي أن تستمتع ببكائه..

بعض الدروب تلهو بنا، إنّها الدروب التي نعبرها على أوراق العشاق، وبعض الدروب تُرشدنا، إنّها التي تحمل آثارهم.. العاشق الحقيقيّ هو الذي يستحي من نفسه عندما يُفارق من يحبّ.

أصوم عن الحبّ بَعْدَك، وأغضّ طرفي عن قصائده.. فالقصيدة التي لا تُكتَبُ مِن أجلك تكون مكسورة الوزن والخاطر.. سمّيتُكِ بحراً من بُحور الشّعر، قَلْبُك وزنه، وصوتك قافيته.

أُحبّك في وأعرف أنك تُريدين البكاء الآن.. ابكِ بين يدي، وسأبكي معك، فالبكاءُ مع من نحبّ دعاء.. البكاء والفراق يقرباني منك..

أما الفراق، فإنّه يغرسُكِ في داخلي، وأمّا بكائي، فإنّه يسقيكِ.

مكانكِ ليس خالياً، بل مليء بالأوراق والرّسائل.. بنيتُ مِن

رسائلك بيتاً حتّى أسكن بين كلماتك.

أجملُ ما في غيابك اشتياقي إليك، وأصعب ما فيه لهفتي عليك... إن غياب من نحبّ يُراكم الرماد على قلوبنا.

أنا لا أعاني غيابك، بل أعاني فراغي منك.. صرتُ أحبّ النوم حتّى أراكِ فيه..

الفرحة دونك أضغاثُ أحلام، والحياة بعدك عملٌ غير صالح..

أعلمُ أنكِ لستِ أقربَ الطرق إلى الجنة، ولكنك أجملها.

يا غريبة غَرابة الصُّدَفِ.. الحبّ لحنٌ وأنتِ قيثارة.. لقاؤكِ يكسو فؤادي، وفراقك يَهْتِكُه.

لا يهمّني إن أَحْبَبْتِني يوماً أو شهْراً..

فاليومُ معكِ يُبْهِجُني عُمْراً..

بيني وبينك أعوامٌ من الفراق، وألفٌ من الاشتياق..

أحبَبْتِني مرّة، فأحببتُكِ دهْراً.

اللقاءُ أُمنيةٌ مُعلَقةٌ حولَ رِقابِ العاشقين.. إنّ للحبّ لذّة تشبه أوّل إفطارٍ في رمضان، وقُدسيةً تشبه صومَه.

الحبّ لا ينتهي، بل الفراق الذي يبدأ..

في غيابكِ، صار صوتي صدىً في داخلي، إنّه تَرْدادُ اسمكِ بين أضلعي.

للرحيل هيبةٌ كالظلام، وللقاءِ بهجةٌ كالضياء..

أحبّك فيَّ حتّى لا أَكْرَهُني.. ما أبشع قلبي عندما يخلو منك! وما أضعف سمعي عندما يخبو صوتك! وما أوهن بصري عندما لا أراك! أنت لِعَيني سوادها، ولروحي فؤادها... كم أشتاق إلى أن أغمض عينيّ وألقاك فيهما!

ما أجمل ألا أملك فيَّ شيئًا وتملكني امرأة مثلك.

أحبّك فيَّ حتّى يَبْتلّ قلبي..

أنتِ لستِ أحد أضْلُعي، بل أنتِ ما بينها.

***

أريد أن أراك مرّة أخرى حتّى أُكفّر عن كلّ الأيّام التي لم أقضِها معك.. لستُ وحيداً طالما أنّني أحملك في خبايا فؤادي. الوحدة ليست مفارقة من نحبّ، ولكنّها التوقف عن الاشتياق إليهم..

لقاؤكِ ميلادٌ جديد لكلّ شيء في داخلي.

حتّى الظلام يستحي أن يعتم المكان الذي تسكنين فيه.

لم يعد العمر يتسع لامرأة غيرك.. ما أكثر ما بدأتُ بك، وما أكثر ما انتهيتِ منّي!

أريدُ أن أراك وأغرس وجهي في كفّيك حتّى تنبت روحي بينهما.. الحبّ زهرة والشّوق أشواكها.

علّمَتني ابتسامتك لماذا تُعشَق النّساء.. إن من تملك ابتسامتك لا تسكن إلاّ في السّماء.. ليتني لم أركِ، فما عدتُ أرغب في النّظر إلى غيرك!

تغرق عيناي في عينيك كلّما التقيتك.. كم أحبّ انكسار عينيّ كلّما نظرتِ إليّ!

كلّما تذكرتك، تتوسد أحلامي ضفاف شفتيك..

شفتاكِ كالشفق، كلّما أطبقتا حلّ الظلام.

يُقال إنّ التراب يفوح برائحة ما ينبت فيه، وها هو فمي يتضوّع رائحة أنفاسك.. لا شيء أجمل من رائحة من نحبّ.. أُقسمُ أنّه لا شيء.

ما أرقّ قلبي عندما أتذكرك! ما أصعب فراقك! وما أعذب اشتياقي إليك!

ويْح دموعي إن لم تَسْقِ الدروب التي جمعتنا، وتمطر الأماكن

التي احتضنتنا..

ويْحي إن لم يغسلوني بدمعي عليكِ، ويكفنوني برسائلي إليكِ.. أوصيتهم أن يهيلوا على قبري تربة وطأتها قدماك حتّى تأنسَ عظامي بقربك..

ويْح البكاء إن لم يُقدَّم قُرباناً لِمثْلك.

حبّك كفارة حماقاتي.

رسائلي إليكِ دعاء، وكلماتي عنكِ نقشٌ في السّماء.

يا عابرة سبيل الأوراق..

يا لذكراكِ كم تبهجني وتُبكيني..

علّمتُكِ كيفَ ترحلينَ، وعلّمتني كيف أشتاقْ.

لا يهمّني إن وضعتُ خاتماً في يدك، ويكفيني أنّني وضعته في قلبك.

ما أطول المسافة بين قلبي ونبضاته! يا لضعفي يا حبيبتي! أنا لستُ جذع نخلة خاوية، بل أنا ما بداخلها.

يا لصمت البكاء عندما تفرغ العين من الدّموع! للصّمت سكونٌ وعتمة لا يدركهما إلاّ المنتظرون.. المنتظر مُسافِرٌ لا يَعْبُرُ إلاّ نفسه..

إن لذة اللقاء الأوّل تشبه لوعة اللقاء الأخير.

غيابك شاهدٌ عُرِسَ في قبر الحنين.

عندما يرحل من نحبّ، تتساقط الأيّام كأوراق الخريف الذابلة.

يا هذه، أيّ ريح طيبة حملتك إليَّ يوماً؟ وددتُ أن أجعل يوم لقائنا عيداً ثالثاً.

كلّما تذكرتك، ينسكب صوتك في ذاكرتي حتّى يملأها فلا أعود في حاجة إليها، فعندما أحتاجك أفقد القدرة على احتياج أيّ شيء آخر.

ما أسهل أن تتجاهل من يحبّك، وما أقسى أن تتذكر تلك الفعلة بعد زمن!

كلّما لاموني فيك كثيراً، أحببتك أكثر.

أعلم أنّه لا يجوز التوسّل بك، ولذلك أتوسّل إليك.

أيتها الراحلة نحو كلّ شيء إلاّيَ، حتّى الطريق يشتاق إليكِ مثلي.. لا شيء أقسى مِن الانتظار سوى اليأس..

اشتياقي إليكِ يَطردني مِنّي، ويملؤني بالضباب والصّمت.

أيتها الراحلة..

كلّما فتحتُ باب بيتي، تمنيتُ أن أجدكِ واقفة خلفه.

***

أكتب إليك الآن من غرفتي التي تقع في آخر ممرّ مظلم، يشبه ظُلْمَةَ غيابك وظُلّمِهِ.. يحرسني القلق، ويبتزّني الخوف من نسيانك.

أكتب إليك كلّما سافرتُ، ففي السّفر أشبِه قلبي كثيراً، معلّق بين السّماء والأرض. وأسافر كلّما كتبت إليك، لأنّك كالكتابة، أحبّكما رغم الجفاء الذي أجده منكما.

لم أتكلّف في حبّك يوماً، ولكنّ فراقك كلفني كثيراً.. عندما خسرتك، أدركتُ أنّي خسرت وطناً.

لقد استوطن حبّك في قلبي مكاناً قَصِيّاً.. وكان فراقك ذَنْباً، وإثماً، وشيئاً فَرِيّاً..

«كنتُ أعوذ بالرحمن من فقدك»

لم يكن فراقك عليَّ هَيِّنَّ، ولكنّه كان أمراً مَقْضِيّاً..

من علامات الحبّ أن نظلّ في اشتياق دائم لمن نحبّ.

أريد أن أحبّك على مهل، فمن يستعجل الحبّ يُحرقه، ومن يستعجل الفراق يُغرقه.

آه، كم أحبّ أن أنكسر معك شيئاً فشيئاً كعود ثقاب يحترق ببطء في يد صاحبه!

الانكسار بين يديك شكل من أشكال الحرّيّة.

معك أشبهك أكثر منك.. وأحبّك أكثر من كلّ شيء.. حتّى منك.

وبعدك لا أشبه شيئاً.. لا أحبّ شيئاً، فلا شيء بعدك يستحقّ الحبّ والشبه.

من شدة ما آلمني فقدك صار الحزن عَصاً، وأصبح الدمع عَصِيّاً.

الدّموع ابتهالٌ لمن نحبّ، وتَضَرُّعٌ مُبلَلٌ بالشّوق والشقاء.

كلّما ذُكِرتِ أمامي، يَخِرُّ قلبي على رُكبَةِ البكاء، ويضيق فؤادي.. يا فؤادي.

لا شيء يمزقني بعد فراقك مثل ذِكر اسمك أمامي..

السّبب الوحيد لبقائك في قلبي، أنّه لا شيء غيرك يستحقّ البقاء فيه.. كلّما عدتُ بذاكرتي إلى الوراء، لا أرى فيها سوى وجهك.

* ليس من العدل أن تُحِبَّ أحداً أكثر من نفسك ثمّ لا يمكنك أن تسمع صوته.. ليس من العدل أن أسمع أصواتهم كلهم ثمّ لا أسمع

صوتك.

رغم شقائي بعدك، فإنّني ممتنٌّ للحياة القصيرة التي قضيتها معك..

أنتِ الشيء الوحيد الذي كلّما تكرّر أحببتُه أكثر.

أمشي وحيداً في أزقة الذاكرة الضيقة، حافي الفؤاد، تؤلمِني حروف الفِراق التي أطأ عليها بشوقي إليك.. لا شيء أضيق من الفقد، ولا شيء أَرْحَبُ من البكاء.

عندما يأتي الشتّاء، أتذكرك أكثر، أحتاجك أكثر.. لقد كان قربك مدفأتي، وكانت عيناك النار التي تملؤني عِشْقاً وسلاماً.

متى يُعتقني الشّوق إليك من البكاء عليك؟

لو كان الفَقْد رجلاً لقتلتُه.. ولو كان اللقاء رجلاً لاتّبعتُه.

أحبّك رغماً عن كلّ الأشياء.. ورغم البرد والشتّاء..

أحبّك يا خطوط يدي، وخط الاستواء.

عندما أحببتُكِ، صرتُ أكثر قدرة على تعريف السعادة.

الليالي البيض في حياتي هي التي رأيتُكِ فيها..

لقاؤك ليلتي.. وقَدَري.. يا ليلة قَدَري.

الشيء الوحيد الذي يدفعني للنوم في كلّ ليلة هو أملي بحلمٍ جديد تتمثلين فيه أمامي.

سترعاكِ عيني في كلّ ليلة، وسيضمك قلبي إلى قلبي.

الشّوق إلى لقائك هو لقاءٌ في حَدِّ ذاته».

بعد أن قرأت شوق تلك الرّسالة، أحست باشتياقٍ يكاد يشقّ قلبها نصفين. تمنّت لو أنّه اتّصل بها. لقد تغيّرت كثيراً بعد أن عرفته. فقد كانت عصبيّة ومتعجّلة، إلاّ أنّ دفء كلماته علّمها أنّ أجمل الأشياء هي التي لا نستعجل الحصول عليها. «فالفاكهة التي تُقطف قبل أوانها، تفقد بريقها».. هكذا كان يقول لها عندما تُلحّ عليه باللقاء.

أما هو، فقد علّمه حُبّها ألا يؤجّل الأشياء الجميلة في حياته، فالسعادة أغلى من أن تؤجَّل إلى يوم آخر. تقرّب، بسببها، من طفلته. صار يزورها في المدرسة عدّة مرّات في الأسبوع، ويقوم بتدريسها في البيت بنفسه، بعد أن كان قد أوكل تلك المهمّة لجارتهم الطيّبة.

لقد علّمه الحُبّ أن التّضحيات العظيمة هي التي يبذلها الرّجل، لا لأنّه مضطر إليها، ولكن لأنّه محتاج إليها. فالعطاء الحقيقيّ يُشعر الإنسان بأنّه كلّما أعطى كثيراً كسب أكثر. كادت السّلطة أن تُفسده، وكاد ينسى أنّه كاتبٌ، مهمّته أن يبحث عن الحقيقة لا أن يصنعها.

بعد أن ترك وائل السّلطة نزل من بُرجه العاجي وعاد ليصبح قريباً من الناس مرة أخرى. من الذين يجلسون في المقاهي المنسيّة في

زوايا الأحياء القديمة. صار أكثر قدرة على التحدث مع البُسطاء، وأكثر استيعابا لحاجات وطنه. لقد استطاع حبّ شوق أن يُقرّبه من الأشياء الحقيقية في الحياة، مثل الطفولة، والصدق، والاشتياق، والبكاء، والمشي في الأزقة على قدميه.. صار أقرب إلى أمّه وطفلته وأصدقائه القدامى.. إلى جيران الحيّ الذي غادره إلى القصور.. والأهم من كلّ ذلك، دفعته شوق إلى التعرف على نفسه أكثر، والتصالح معها.

صار الحبّ يشعره بأنّه يملك كلّ شيء في الحياة، وبأنّه لم يعد في حاجة إلى شيء آخر. فقد كانت رؤيته لوجهها تنبتُ الأزهار في طريقه، وتنزل المطر عليها.. هكذا كان يشعر كلّما التقت عيناهما. أمّا ابتسامتها، فكانت كالموقد الذي يبعث الدفء والإيمان في فؤاده كلّما اشتّد برد الشتّاء.. لقد استطاع الحبّ أن يُحرّره من كلّ القيود، إلاّ من شوق، فكانت قيده الذي يسوقه إلى السعادة الحقيقيّة.. ورغم كلّ ذلك، لم يردّ على رسائلها ليدعها تسترسل أكثر، فمن النادر أن تُسرّ له بما تكتب في مفكّرتها الصّغيرة التي تحملها معها أينما ذهبت.

كتبت شوق رسالة وعزمت على أن تكون الأخيرة..

«عندما انسحبتَ من عالمي، لم تكن تعلم أنّك انسحبتَ من كلّ ما حولي لتستقر بداخلي. لقد أضحيتَ تسكنني أكثر مني.

كلّ أمواج البحار تبدأ من نسمة خجلى ومجنونة تداعب المحيط ثمّ تنتهي إليه. وكذلك أنت يا حبيبي.. ليتك تعلم كم أتوق إليك الآن! أنتَ مثل الأمواج التي تلفني، تجنّ فجأة ثمّ تهدأ، تدفع مركبي بعيداً

رغم أنّها ما زالت تحتضنه.

غريبٌ أمرك معي، لقد أضحيتَ حبيبي، أو كنتَ كذلك منذ زمن بعيد دون أن أشعر. لا أعلم لماذا يمتلئ دفتري بك! أريد أن أتوقف.. أقسم أنني أريد أن أتوقف عن الكتابة عنك، ولكن حتّى أكتب عنّا. أريد أن أكتب معك، وأسمع معك، وأرقص معك، وأضحك وأبكي معك.. أريد أن أفعل كلّ شيء معك.. هل هذا كثير؟

ما أصعب أن أتحدث عنك! يا لسخط أوراقي عليّ من دونك!

في صباح اليوم، تعرفتُ إلى شيخ سبعينيّ يقود المركب الذي أخذني مع مجرى النهر، حيث أجلس الآن. هذه هي المرّة الثانية التي يرافقني فيها هذا الرّجل منذ قدومي إلى هنا. كانت الرّحلة ممتعة مع رجل حكيم، لا يعرف عنك أو عن عالمك أيّ شيء. يقول لك رأيه عمّا تبوح له به في لحظة ضعفك دون أن يحكم عليك.. ما أجمل أن يرشدك أحدهم دون أن يبدأ عبارته: «أنا أعرفكِ جيداً، أنتِ لا تقبلين بكذا وكذا..». كم أكره الذين يتحدثون إليّ بحُكمٍ مُسْبَق!

لقد كان السبعينيّ حنوناً جدّاً.. يبدو يا حبيبي أنّ شوقي إليك جعل ملامحك تكسو ملامحه، فظننته أنتَ!.. أراهن على أنّ ملامحك عندما تصل إلى سنّه ستبقى جميلة كما هي الآن.

قال لي: «لماذا تترك فتاة مثلك المدينة وتأتي إلى مكان قصيّ كهذا؟» ولأول مرّة منذ زمن، تحدثتُ دون تردّد أو خوف من أن يُعلّق

أحد على ما سأقول. قلتُ له كلّ شيء حتّى شعرتُ بأنّني أحدث نفسي. تحدثتُ عن أصدقائي، وخالتي، وأبي، وعنك أيضاً.. لقد كان أوّل شخص أبوح له باسمك منذ أشهر. ما أجمل أن تتحدث مع من لا يعرفك، شعرتُ كأنّني ولدتُ من جديد. أخبرتُه عنك، عن حاجتي وشوقي إليك، وعن حنيني الذي هدّني. أخبرته أنّني أهرب منك، فتوقعني الأيّام فيك أكثر. أخبرته أنّني كنت أهرب من المكاشفة معك لأنّني كنت أخشى فقدك، وأنّني كنت أشعرك عنوة أن الصّداقة هي التي تجمعنا، بينما كانت الحقيقة شيئاً مختلفاً تماماً. فما يربطني بك مختلف جدّاً، وعميقٌ جدّاً.. حبّك خاتَمٌ وضعته حول روحي. لعلّه الإيمان أو القدر!

لقد اعترفتُ له بأنّني لم أصارحك بتراقص قلبي كلّما تحدثتُ إليك، وذلك لخوفي أن تدفعني بعيداً عنك. أخبرته أني أحترم حياتك الخاصّة، ولا أرغب أن يسيء أحدٌ فهم علاقتنا. ما زلتُ مؤمنة بأنّ الصّداقة أقوى من الحبّ، ولكن قلبي يقول عكس ذلك.

استغربتُ من ملامحه كيف كانت تنفرجُ مع حديثي، وكيف كانت ابتسامته تعلو وجهه كلّما تحدثتُ عن الصّداقة والحبّ. جلس إلى جواري وقال: «هل تحبين هذا الشاب؟» فأجبته: «ليس كحبّ الفتيات. أحبه دون أن أتوقع شيئاً، ودون أن أنتظر الغد. الغريب أنّني أحبّه في غيابه أكثر من حبّي له في حضوره. حبّه يشبه النبتة التي نسقيها ثمّ نذهب عنها، وعندما نعود إليها بعد مدّة نجد أنّها كبرت، وكأنّها فعلت ذلك خلسة.. هكذا هو، ينمو في داخلي خلسة، رغم أني لا أغيب عنه

أبداً».

قلتُ له إنني أريد أن أكبر معك، ولا أشيخ إلا معك. وأنّني أريدك طفلاً، وأريدني معك ناضجة حتّى أغمرك بحنان لا حدود له. قلتُ له: أريد أن نقع أنا وهو في أسْرٍ، ولا نخرج منه أبداً.

نظر إلى الأفق وقال لي بنبرة دافئة: «ابعثي له رسالة وقولي له كلّ هذا، فلا شيء في الحياة يستحقّ أن نُخفي مشاعرنا عمّن نحبّ».

وها أنذا أكتب الآن، بينما هو ينظر إليّ مبتسماً كأنّه يعرف عمّا أكتب. أكتب إليكَ لأخبرك عن حاجتي إليك.. آه كم كتبتُ هذه الجملة حتّى الآن! سأعيد الكرّة معك، وسأحاول من جديد. لن تستطيع أن تنفيني منك. سأقف أمام المرايا دون خوف من أن أراك أمامي، فقد أيقنتُ أني أرى نفسي فيك. أيقنتُ أنّك معي وفيَّ رغماً عنّي، وباختياري. لم أعد أخشى أن أكون معك كقشة تحت المطر.. لقد أقسمتُ بحبّك، وأقسمتُ عليه».

أيقن وائل أنّه غير قادرٍ على المقاومة أكثر، ولقد آن الأوان أن يضع نقطة في آخر سطر الفراق.. كتب رسالة وأرسلها لها مباشرة قبل أن تُنشر في الصّحيفة:

رسائل الخميس

«بعض الناس مليء بالكلمات، وبعضهم مليء بفراغها.. هناك من يسكن التاريخ ذاكرته، وهناك من تحتله كلّ الأماكن الجميلة التي رأى فيها من يحبّ.. كلّما تذكرتُني، وجدتُني مليئاً بفراغك، ومسكوناً بكلّ الأحلام التي تمنيتها معك.. لقد صار وجهك المكان الوحيد الذي أعرفه وأجهل الطريق التي تؤدي إليه.

«أحبّك».. كلّما نطقتِها يأتي صوتك عميقاً كالزمن، وعتيقاً كأشجار الأرز، ومقدساً كتراتيل عابدٍ في جوف الليل.

نسجتُ من صوتك رداءً للربيع لم ألبسه منذ سنين.. أنا لا أنتظر الرّبيع حتّى تأتين، ولكني أنتظرك حتّى تأتيَ الرّبيع.

الرّبيع دونك يشبه قلبي، لا لون له سوى العتمة..

يا قلب الفصول البهيجة..

يا ربيع القلوب الحائرة..

أحبّك حتّى لم أُبقِ للعاشقين حبّاً.

كلّما أمسكتُ بالقلم، وجلستُ أكتب إليك، يزداد خفقان قلبي وكأنّني جالسٌ معك.. ما زلت أتذكر كيف كنت تكتبين في راحة يدي، ثمّ تطلبين منّي ألاّ أقرأ ما كتبتِ إلاّ بعد أن ترحلي.. من يكتب في راحة حبيبه إنما ينقش على قلبه..

أحبّك يا أجمل النّساء لفظاً وأعذبهم عِبارةً.

إن من يحبّ يملك قلباً بحجم السّماء، وروحا بصفائها.

يا امرأة أمْطَرْتُها حُبّاً بقدر ما أمطَرَتِ السّماء..

يا شجرة ياسمين تنضحُ عطراً في فؤادي.

إن كلّ باقات ورود العاشقين، لا تُضاهي حبّك في قلبي، ولا بعضاً منه..

اخترتك من بين النّساء، مثلما يختار العاشقون أزهارهم.. ولم أدرِ أنّني اخترتُ زهرة حُبٍّ.. وعشق لا يَبلى.

كم تُشبهينَ الياسمين لو تعلمين..

كم يشبهك السنديان، والنخل، والتين..

وضعتُكِ إكليلاً على قلبي، وأضأتُ بأغصانكِ ردهاتِ صدري الفاني..

كم أشتاق إلى أن أقول لك: «تُصبحينَ في قلبي.. يا قلبي».

لا أحد يعرف قلبي أو يشبهه مثلما تفعلين.

لا أحبّ الواقع، لأنك لستِ فيه..

من الحبّ ما قتل، ومنه ما أحيا، وأغربه ما قتل ليُحييَ فينا جذوة الوجود.

الحبّ كالنار الإغريقية، كلّما سُكِب الشّوق عليه ازداد اشتعالاً.. إنّه ليس إحدى خرافات الإغريق، بل هو ما ألهمهم لكتابتها.

كيف لي أن أحبّك بِحِيادٍ، ووجهك سببٌ لكلّ تطرّفٍ وجنون..؟

الرّحيل عُري القلوب، واللقاء كساؤها.. أحبّك يا كِساء قلبي وكِسْوَته.

أيكون الضياع جزءاً من المحاولة؟ أيعقل أن يصير الفقدُ جزءاً من الحبّ؟ كلّ ما أعرفه هو أنّني أصبحت جزءاً من حياتك، تحملينه معك، ويحملك في داخله.

لم أفهم كيف يملك الحبّ هذه القوة الخارقة لسَحْقِ تاريخنا ومنْحِنا تاريخاً جديداً، وحياةً جديدةً، وقلباً جديداً، ثمّ يعجز أن يجمعنا بمن نحبّ!

لا أفهم لماذا عليّ أن أبحث عنك حتّى أكتب إليك.. لماذا عليّ

أن أنكسر كلّما تحدثتُ عنك؟ لا أفهم.. لماذا علي أن أشقى بك كي أحصُلَ عليك!

أبحث عنكِ في الحدائق والمكتبات، بين الأزهار والكتب.. أبحث عنك حتّى أرويَ ظمأ قلمي واشتياق فؤادي..

قصتي معك تبدأ حيث انتهت قصص العاشقين، وتكتمل حيث بدؤوا.

الألفُ: أنتِ

الحاءُ: حياتي

الباءُ: بَعضكِ

الكافُ: كُلّي

«أُحبّك» لا تُقرَأُ في حَقك.. بل تُرَتّل.

***

كلّما كتبتُ لك سطراً.. تركتُ سطراً خاليًا تحته حتّى أملأه لاحقاً بما عجزتُ عن قوله في ساعة انكسار. إنّ كلمات المنكسر أكثر ارتعاشاً من قلبه، وحروفه أكثر تعرّجاً مِن قَدَره.. لا شيء أغلى في دفاتري ممّا أكتبه إليك، وكلّما قرأتُ ما فيها، أدركتُ أنّه لا أحد يستحقّ عناء الكتابة سواك.

لم أفهم، حتّى الآن، كيف نحبّ ونكره في العام نفسه.. كيف نلتقي ونفترق في العام نفسه.. لا أستطيع أن أفهم، لماذا يوجد كلّ هذا الحبّ في الأرض ثمّ يَشقى أحدنا بمن يُحبّ!

في كلّ مساء، أقف أمام المرآة أبحث عن جزء فيَّ لم يحبّك.. أتذكرك بقلبٍ منسحق تحت وطأة اشتياق رجل لم يعترف بضعفه يوماً.. إنّ اعتراف الرّجل بشوقه يحطم المرآة التي في داخله، ثمّ يحطمه.

كل شيء حولي يحمل صورتك.. كلّ ملابسي تحمل رائحتك.. أقلّب المذياع، فلا أسمع سوى صوتك.. أفتحُ كتبي فلا أقرأ إلاّ كلماتك.. يا لحسرتي كيف تسكنين كلّ شيء إلاّ بيتي! اعتدتُ بعد رحيلك أن أناديك باسمك في أروقة الأماكن التي التقينا فيها حتّى لا ينسى العالم أننا كنّا معاً.. حتّى لا ينسى العالم أنّني أحبّك.

أغمسُ قلمي في فؤادي لأكتب عن حُسْنِكِ ما لا عينٌ رأت.. سوى عينيكِ..

عيناكِ لا تبعثانِ النور، بل تُبعثرانه..

عيناكِ، يا «شوق» عيني، سَرْجُ الشّعر وسِراجُ الكتابة.

إنّ مَن يحملنا في داخله لا بدّ أن يعود، ولكن كيف يعود من نحمله في داخلنا؟ وهل تُفيد الكتابة أو الصراخ؟

الكتابة عن ذكريات الحبّ صُراخٌ صامت..

يا ظلّ الشّوق والكتابة.. كيف أمحو ما كتبتُ.. يا أجمل ما كتبتُ.

كلّما بُحت إليك امتلأتُ بك.. لا توجد ورقة في دفاتري لا تحمل اسمك.. لا توجد لوحةٌ في مُخيّلتي لا تحمل رَسْمك.

يا لكآبة القلب الذي يخلو منك ويا لوحشة العيون التي لا تراك.

الحبّ مثل النور، لا نعلم كيف يبدأ وإلى أين ينتهي.. إنّهما الشيئان الوحيدان اللذان لا نعتاد وجودهما في حياتنا.. أما في حياتي، فهنالك شيء آخر.. إنّه أنتِ..

قلتِ لي مرّة: لماذا أنا؟

فقلتُ لكِ: لأنّك أنا.

إنّ قلم الكاتب على الورقة يشبه إبرة الطبيب في جسد المريض، نحتاج إلى الألم الذي يسبّبانه حتّى نشعر بالراحة.

لا أحتاج إلى مناسبة غير الاشتياق حتّى أكتب إليك، فالكتابة لمن نحبّ أجمل من كلّ مناسبات البشر.

قيل لي إنّك تبكين كلّما ذكِرتُ أمامك.. «يا ليتني متُّ قبل هذا وكنت نَسْياً مَنسِيّاً».

لانكسارُ أحد أضلعي أهْوَنُ عليَّ من انكسارك أمامي.. إنّ مَن يحبّ أكثر ممّا يحتمل، يفقد أكثر ممّا يملك..

«من منا لم يفقد حبيباً؟» هكذا يقولون لي، فأقول لهم: «أنا.. فلقد فقدتُ بها روحاً».

أخبّئ بعض رسائلك في معطفي كلّما اقترب الشتّاء حتّى أشعر بدفء روحك حولي.. كيف غادرتِني دون أن ترحلي مني..

غادرتِني ولم يُغادرني الشتّاء..

كم قلباً أحتاج حتّى أحتمل فراقك؟ وكم حياة أحتاج حتّى أنتظر عودتك؟

لا شيء يُكمِلُ الغياب سوى الحضور.. لا شيء يُعادل ألَمَ الرّحيل سوى لذة العودة.

المكان الوحيد الذي أختلي بك فيه هو قلبي.. وهو المكان الوحيد الذي لم تُفارقيه مذ رأيتك.

لقد كان حُبّنا كنَفَسٍ نُفِخَ في قلبِ ناي حزين، وعندما لم يحتمل رقّته، أطلقه من جميع فتحاته مثلما تفعل النايات قبل انتهاء الغناء.. كوني النَفَس وسأكتمكِ في داخلي..

الحبّ لا ينتظرنا حتّى نعود إليه.. الحبّ ليس المكان ولا الزمان،

إنّه ما يبقى بعدهما.

الكاتب يقول كلّ ما يعرف، والعاشق يقول ما لا يعرف، أمّا الكاتب العاشق فإنّه لا يعرف ما يقول.

عندما أكتب إليك، أجتازُ كلّ حواجز الحرمان، وعندما أكتب عنكِ، أجتازُ إليكِ.

كتبتُ على ورقة ووضعتها مكانك على السّرير إلى جانبي: «يا ربّ الأمنيات حقّق لي هذه».

عندما أموت.. ستفيض روحي إلى السّماء، وسيفيض جسدي إلى الأرض..

أمّا قلبي.. فإنّه سيفيض إليكِ.

***

لا شيء يحرقنا مثل الرّسائل التي نكتبها ثمّ لا نجد من يقرؤها.. ففي كلّ رسالة نكتبها نترك شيئًا من أرواحنا.. إنّ أكثر أفعال العاشقين حماقة أن يضعوا رسائلهم في زجاجات، ثمّ يرمونها في البحر، لتتحوّل بعد زمن إلى زجاجات حارقة في قلوبهم..

إن تَرُدّي على رسائلي تردّي إليّ روحي.

الحبّ الصادق يدفعنا للبكاء، والحبّ المقدّس يدفعنا للكتابة..

وحبّك أنت يدفعني للوجع والصبابة.

اعتدتُ أن أنام على صوتك كلّما احتجتك.. لم أعد الآن في حاجة إلى النوم، بل في حاجة إليك.

هل تسمعين آهات قلمي كلّما كتبت عنك، وأنينه كلّما كتبت إليك؟

عندما لا تأتين، يقطفني التشرد قبل نضوج الحزن في داخلي.. ليس للأحزان مواسم للقطاف، كذلك هو الحبّ، يمكنه أن ينبتَ في الشتّاء، ويملؤه دفئاً.

عندما لا تأتين، تصير الشوارع أنفاقاً، وتصير إناراتها شموعاً توشك على الانطفاء.. الرياح يا حبيبتي لا تطفئ الشموع، ولكن الانتظار من يفعل ذلك..

الشموع لا تُضيء العتمة، بل الأمل من يفعل ذلك..

إن انتظارك أكثر سواداً من الصخور، وأشد قسوة منها.

حبّك ليس محطة في حياتي، بل هو السكة التي أمشي عليها، ولهذا، أدمنتُ الرّحيل إليك.

انتظار من نحبّ، يشبه انتظار بركان ثائر حتّى يخمد. الدّموع حمَمٌ في عيون المشتاق.

عندما لا تأتين، تصير أعماقي ضحلة، ويصبح الحبّ عديم الوزن والمكان.. ما أعمق الحبّ عندما يكون من طرف واحد، ولذلك، فإنّه يُغرِقُ صاحبه.

أستطيع أن أواجه العالم حتّى أحصل عليك، ولا أستطيع أن أواجه نفسي إن فقدتك..

عندما تكونين معي، أفقد القدرة على التمني.

امنحيني وقتاً، لا لكي أفهمك أكثر، ولكن لأشعر بوجودك أكثر.. أنا لا أحتاج إلى وقت حتّى أحبّك، ولكنّني أحتاج إليك.

الحبّ الصادق أعذب من ابتسامة طفل، وأجمل من دهشة عجوز.

هناك من نحبّهم، ولكن قدرنا ألاّ نكون معهم.. ويكفينا من القدر أننا نحبّهم..

لا شيء يمكنه أن يخذلنا عندما نكون مع من نحبّ.

حضنك شاطئ أرسم عليه أمنياتي، ثمّ يأتي رحيلك كالموج ليمسح ما كتبتُ.

سأحبّك كما يحلو لك، وسأبكيك كما يحلو لي.. أحلامي تشبهك جدّاً، وأوجاعك تشبهني أكثر مني.

صوتك بهيجٌ كالنجوم، وعميق كالبحر، وناصع مثلهما.

عندما أسمع صوتك أجتاز إليك كطير يهاجر إلى آخر الأرض بحثاً عن الدفء.. الحبّ، يا قلبي، هو هجرةُ المرء إلى قلبه.

أطفأني غيابك، كقنديل بات يصارع قسوة الشتاء وظلمة المكان.. لم يكن قربك وقودي، بل النور الذي يضيء ما بداخلي..

لقد كان حبّك أكثر الأعمال جنوناً في حياتي.

هناك من يستحقّون أن نكتب إليهم، وهناك من يستحقّون أن نكتب عنهم.. وهناك من يستحقّون أن نكتب بهم.

يتكثف الحزن في عين المفارق، فتهطل روحه دموعاً حتّى يصير جسداً خاوياً تذروه الذكريات..

كل الأشياء الجميلة معك، صارت كئيبة بعدك.. كلّ الساعات معك، صارت سنين بعدك.. كلّ شيء معك، صار لا شيء بعدك.

بقدر ما فجعني فراقك، فإنّه أثبت لي أنّك أحبّ إلي ممّا كنت أتصور..

يسألونني: ماذا ستفعل بعدها؟ فأقول لهم: لا شيء.. فلا شيء بعدها.

انتظار من نحبّ تسوّلٌ على قارعة القلوب.

كأنّ الحبّ قد وُجِدَ لألقاك، وكأن الفراق قد وُجِدَ لأفقدك..

لا تسأليني لماذا أحبّك، فمن السذاجة أن أبحث عن أسباب لحبّ امرأة مثلك.

عندما يسود الصّمت بيننا، فاعرفي أنّني في حالة اشتياق إليك..

توجد في لقاءاتنا حياة أكثر ممّا يوجد في قلبي.. ما أجمل الحكايات التي تروينها بصوتك، حتّى الكوارث تبدو أقل دماراً، عندما تتحدثين عنها.

ارتديتُ حبّك قميصاً كقميص يوسف، حتّى لطخه فراقك، وقدَّ قلبي من دُبر.. فدربٌ طويل وصبرٌ جميل.

تعرفين أن سجن حبّك أحبّ إلي من حرّيّة فراقك، فالظلمة التي تجمعني بك خير من النور الذي لا أراك فيه..

لم تكوني أضغاث أحلامي، بل كنت أصدقها..

وما أُبَرِّئُ نفسي مِن حبّك، فحبّك الشيء الوحيد الذي لا أدري هل أتوب منه.. أم أتوب إليه».

بعد يومين، كان وائل غارقاً في قراءة أخبار المملكة في المقهى الذي يرتاده مُبكراً كلّ صباح.. لم يكن أحد سواه في المكان. جاء له النادل بكوب قهوته المعتاد، إلاّ أنّ خبر تعيين فيصل رئيساً لديوان

الملك قد شدّ انتباهه. أراد أن يقرأه بالتفصيل، خصوصاً أنّه وُضِعَ فوق خبر استقالة سامي من منصبه، فأدرك أنّ هناك لاعباً جديداً على الساحة السياسيّة. لقد رفض قبل مدّة دعوة من فيصل ليزوره ويتحدث معه، حيث شعر، على رغم صداقته الشّخصيّة بفيصل، أنّه ربما أراد استغلاله كما فعل خالد. لقد تعلّم الدّرس. وبينما هو غارقٌ في القراءة، مدّ يده ليرفع كوب الشّاي، وعندما أمسكه، شعر بيدٍ ناعمة أمسكت بيده. أزاح الصّحيفة من أمامه، فشُلّت ملامح وجهه.. لقد كانت يد شوق!

***

عندما تولى فيصل رئاسة الديوان، تَقَدم خالد بإجازة من الملك وجلس في البيت. كانت صحّته قد بدأت بالتدهور. استغلّ فيصل هذه الفرصة، وأمر جهاز الاستخبارات بالتحقق من كلّ ورقة في مكتب خالد. وبعد أيّام من تفتيش الكمبيوترات والملفات القديمة، اكتشف أنّ حكومة شرقستان قد رشت خالد قبل سنوات ليقنع الملك بفكرة البنك، الذي صار اليوم أكبر بنك في المملكة، والمُقْرِض الأكبر للحكومة، وهو البنك الوحيد، تقريباً، الذي تضع فيه حكومة عربستان مدخراتها. إلى جانب ذلك، قام خالد بمنح حكومة شرقستان، باسم سفيرها، أراضٍ تجاريّة وصناعية في عدّة أماكن في المملكة. والمصيبة الكبرى أن حكومة شرقستان صارت تملك أراضٍ في أماكن حيويّة بالقرب من محطات الطاقة، وغير بعيدة من مباني الحرس الوطني والأمن والشرطة. «باختصار، قدّم خالد أمن المملكة على طبق من ذهب

لحكومة شرقستان، مقابل دعمه ماليّاً وسياسيّاً».. هذا ما قاله فيصل للملك الذي لم يستطع أن يحتمل الخبر، فأصدر بعد أيّام قراراً بعزل خالد من منصبه، وأراد أن يرميه في السّجن، إلاّ أنّ فيصل نصحه بعدم فعل ذلك حتّى لا يفقد الناس ثقتهم بديوان الملك.

استيقظ خالد من نومه وهو يشعر بصداع شديد. بلع حبة مُسكّن قويّ وصفه له الطبيب قبل أيّام، بعد أن أخذ منه مجموعة تحاليل، حيث كان يشكّ بأن مرضاً عضالاً ألمّ به، إلاّ أنّه لم يخبره بذلك.

بحث عن الجريدة فلم يجدها.. سأل زوجته عنها فلم تستطع أن تخفي ملامح الحُزنِ على وجهها، فأيقن أن فيها مصيبة. أقسم إن لم تعطه إيّاها أن يخرج من البيت ولا يعود إليه مرّة أخرى، فأحضرتها له. دخل مكتبه، وضع نظارته، ورفع الصّحيفة أمامه، وعندما قرأ خبر إقالته من منصبه، وقد تصدّر الصّفحة الأولى، شعر برعشة في جسده أسقطت الجريدة من يديه. أراد أن يناديَ زوجته، ولكن الكلمات خرجت من فمه دون صوت. أخذت ضربات قلبه تزداد بسرعة، هجم عليه الصداع إلاّ أنّ الألم هذه المرّة كاد أن يفلق رأسه نصفين. حاول الوقوف لكي يصل إلى الهاتف ويتصل بزوجته ولكنّ رجلاه خانتاه.. جلس على الأرض فشعر ببرودة استشرت في جسده، وما إن بلغت أطرافه حتّى سقط مغشيّاً عليه.

كانت مهمّة فيصل الرئيسة هي تصفية فريق خالد. حيث أطلق الملك يديه لاقتلاع الفساد المستشري في المؤسسات الحكوميّة بدءاً

بالديوانِ. وبعد أن انتهى من ذلك، قام بطرد السّفير الشّرقستانيّ من البلاد. أُعجب الملك بتصرف أخيه، فأصدر مرسوماً بتعيينه نائباً له، فابنه أحمد ليس مؤهلاً لإدارة الدّولة، أما هو فقد ضعفت عزيمته، ولم يعد قادراً على خوض المعارك السياسيّة. وحده فيصل من كان متحمساً لقيادة المرحلة القادمة.

كان خالد يرقد في قسم العناية المركزة بأحد المستشفيات، وعندما زاره وائل ليطمئنّ عليه، قال له الطبيب المسؤول إنّه يعاني من سرطان في الدماغ. كان الورم قد بدأ ينمو في جزء من رأسه منذ أكثر من عام دون أن يعلم أحد بذلك، وكان هو السّبب في الصداع الحادّ الذي بدأ يباغته مؤخراً، ثمّ استشرى، فأصبح خارج نطاق السيطرة.

كان يصحو لبضع ساعات ثمّ يدخل في غيبوبة مرّة أخرى. لم يكن معه في المستشفى غير زوجته التي كانت تبكي طوال الوقت، وإخوته الذين تناوبوا في التوافد عليه، ووائل الذي كان يجلس بجانب غرفته ساعة كلّ يوم.

عندما أُخبِر الملك بحالة خالد، طلب من الجميع أن يخرجوا من عنده. توجه إلى مكتبه، وفتح صندوقاً منزوياً وأخرج منه صوراً قديمة جمعته معه. بعض الصور، كانت في أول أيام توليه المُلك، وبعضها وهما يحملان رأس أسد اصطادوه في إفريقيا.. أما الصورة التي أسقطت الدّموع من عينيه، فهي صورتهما بالزي العسكريّ في معسكر الثُّوار قبل سقوط الطّاغية. شعر بزاز بحنين غامر إلى تلك الأيّام، أيّام الصّداقة الحقّ التي لم تَشُبْها المصالح، ولم تلوّثها السّياسة. أدرك

حينها أنّه لا يستطيع إلاّ أنّ يكون وفيّاً لصديق نضاله، فأمر بنقله بطائرة خاصة إلى مستشفى جون هوبكنز في الولايات المتحدة ليتلّقى العلاج. أشارت نتائج الفحوصات إلى أن حالته متأخرة جدّاً، وكل ما يستطيعون فعله هو تخفيف الآلام التي كانت تدقّ في عظامه كالمطارق.

طلبت زوجته من الطبيب الذي كان يشرف على حالته أن يستخدم كلّ شيء لينقذ زوجها، فقال لها إنّهم يستطيعون استخدام الدّواء الكيمائيّ إلاّ أنّ هناك احتمالاً ضئيلاً بنجاحه. أصرت على استخدامه، وكانت مستعدّة لتقبل أيّ نتائج.

***

دخل وائل الغرفة، فوجد أمّه تصلّي. انتظر حتّى تفرغ، ثمّ قبّل رأسها ويديها وقال لها: «أريد أن أخطب شوق». ضمّته إلى صدرها بقوة، وقفزت مريم من مكانها وأخذت تنطّ فوق السّرير وتردّد: «ماما شوق.. ماما شوق». يعلم أن أمه تحب شوق كثيراً، أما مريم، فكانت تخرج معها مرّة أو مرتين في الأسبوع حتّى صارت تشعر بأنّها أمّها التي لم ترها يوماً. إلاّ أن وائل كان يريد تأجيل حفل الزواج حتّى تتحسّن أوضاع المملكة. فالملك سافر إلى فرنسا بعد أن أصابته جلطة في القلب. وخالد يعاني من السرطان، وحالته تزداد سوءاً. كان يتصل بزوجته كل يوم للاطمئنان عليه، وفي كل مرة كان الأسى يغلب على صوتها. حاولت أن تقنعه بعقد الزواج ولا شأن للأمر بحالة خالد، فقال لها إنّه كان يعمل معه في يوم من الأيّام، ومن الصّعب عليه أن يُقيم فرحاً وهو بين الحياة والموت.

اكتفى بالخطبة الآن، وسينتظر حتّى يرى كيف يؤول حالهما.

أصبح فيصل هو الملك غير المتوّج، أما أحمد والأسرة المالكة فسافروا مع الملك للنقاهة في باريس. اتّصل فيصل بوائل وطلب لقاءه في مكتبه، فأصر وائل على أن يكون اللقاء في بيته على العشاء. لم يكن لدى فيصل شيء محدد، وإنما أراد أن يخرج من دوّامة السّياسة، ويستذكر مع صديقه القديم أيّام الدّراسة في إنسياد.

- هل تذكر إنريكو يا وائل؟

- وكيف لا.. زير النّساء ذاك.

ضحكا، فقال فيصل:

- ليتنا بقينا طلبة يا صديقي.

- ولكن حتّى الطلبة يعانون مثلما نُعاني.. ولكن كلّ يعاني على قدر طموحه.

- كنتُ أقول في نفسي إن صرتُ الملك فسأكون أسعد إنسان في الدّنيا. ولكن الملوك ليسوا سعداء. فلا أصدقاء حقيقيّون لهم. ذاكرتهم قصيرة، ورغباتهم قليلة.

- رغباتهم قليلة!

قالها بنبرة استنكارية، فردّ فيصل:

- نعم قليلة جدّاً. هل تذكر عندما قُلتُ لك في محطة القطار إن الإنسان عندما يملك كلّ شيء، تصبح الأشياء تافهة بالنّسبة إليه؟ انظر إلى الملوك والأمراء وأصحاب السّلطة، أيّ السّيّارات يقودون؟ أيّ شيء.. أليس كذلك. أتعلم لماذا؟ لأنّه لا شيء يغريهم، فهم يستطيعون شراء كلّ شيء، وتحقيق أيّ شيء.. آه يا صديقي لو تعلم كم تصير الحياة ساذجة عندما يعجز أحدنا عن الأحلام.

استمرّ حديثهما طوال الليل.. أخبر وائل فيصل بخطبته لشوق، فبارك له، وتمنّى له حياة سعيدة، ووافقه بعدم الزواج الآن فالأوضاع غير مناسبة. ثمّ أخبره بأنّه مسافرٌ للاطمئنان على الملك، وسيعود بعد أيّام.

***

استيقظ الناس ليلاً على أصوات مدوّية في أرجاء العاصمة، فأيقنوا أنّ الشّرقستانيّين هجموا على بلادهم. كانت النيران تستعر في سماء المدينة مع انفجارات الصواريخ التي تُلقيها طائرات العدو. هرع غالبية الناس خارج بيوتهم بثيابهم التي عليهم، وركبوا سياراتهم هاربين إلى الحدود. بقي قليل منهم في بيوتهم، لا يدرون ماذا يفعلون. كانت أصوات الطائرات، التي حلّقت على ارتفاع منخفض جداً، مدويّة فتهشّم زجاج نوافذ البيوت التي تمر فوقها وكأنّها صواعق تسقط من السّماء. وما إن بدأت تلك الطائرات بإلقاء قنابلها على المنازل، حتّى

حوّلت المدينة إلى كتلة من اللهب.. وصف بعض الناجين ذلك المنظر بأنّه أشبه بيوم القيامة.

كانت مريم تصرخ راكضة إلى جدتها، فاحتضنتها، وأخذت تصرخ على وائل أن يعود من الشرفة. رأى أعمدة اللهب وكأنّها غول ناريّ عملاق أخذ يطوق المنازل، ويحرق كلّ شيء يمرّ عليه.

دخل وحمل طفلته، وركض يجرّ أمّه إلى الطابق الأرضي من المنزل. اختبأوا جميعهم تحت طاولة الطعام، وبعد محاولات مُضنية، استطاع أن يتصل بشوق، وقال لها إنّهم في طريقهم إليها. خرجوا من المنزل في اتجاه السيّارة، فارتدّت مريم إلى الداخل عندما مرت من فوقهم طائرة وكأنها عُقاب يصرخ في آذانهم. سحبها أبوها ودفع بها إلى حضن أمّه في السّيّارة. يعلم أنّها قد فقدت صوابها، وقد تفقد أمّه صوابها بعد قليل أيضاً. فصار يأخذ أنفاساً عميقة حتّى لا يفقد صوابه هو الآخر. انطلق يقود بجنون وفي خطوط متعرّجة حتّى لا يكون هدفاً لأحد الصواريخ.

وصلوا إلى منزل شوق، فوجدها تنتظر إلى جانب الباب.. هرعت إلى السّيّارة، وقفزت بداخلها، وانطلقوا يسابقون الرياح حتّى وصلوا إلى منطقة في أطراف العاصمة لم يصلها القصف بعد. طرق على باب أحد أقربائه، فتح له، ودخلوا جميعاً، واختبؤوا في الداخل. أمّا وائل، فذهب وعاد بعد أن أخفى السّيّارة في زقاق بعيد من البيت.

كان الجيش الشرقستاني يحاول التصدّي للطائرات التي ملأت

سماء العاصمة، إلا أن العدد والخبرة لا يفوقان الشجاعة فقط، ولكنّهما يفوقاً التكنولوجيا أيضاً. فعدد سكان مملكة شرقستان يبلغ أكثر من عدد سكان عربستان أربعين ضعفاً. ناهيك عن أنّهم خاضوا حروباً كثيرة مع عدّة دول مجاورة، أكسبتهم مهارات وخبرات حربيّة يفتقر إليها جيش عربستان الفتيّ، سيّما وأنه يخوض حربه الأولى وعلى أرضه. إلى جانب ذلك، فإنّ نسبة العمال الذين يشغلون وظائف دنيا في عربستان هم من شرقستان، واستطاعت الاستخبارات الشّرقستانيّة طوال فترة نفوذ سفيرها في المملكة أن تجنّد هؤلاء وتسلّحهم ليكونوا جاهزين للتصدي للمقاومة الداخلية التي توقعها الشّرقستانيّون. استطاعت طبقة التُجّار الصغار هذه أن تسيطر على البقالات المنتشرة في جميع الأحياء السكنيّة في العاصمة. وكان أصحاب تلك البقالات يخبّئون السلاح الذي تزوّدهم به المخابرات الشّرقستانيّة في المخازن التي تقع خلف محلاتها، ولم يكن يسمح لأحد بدخول تلك المخازن التي من المفترض أن تكون مملوءة بالمشروبات والموادّ الغذائيّة.

بدأت مدرعات الجنود والدبابات بالزحف البريّ على العاصمة مع إشراق شمس اليوم التالي، واستطاعت الطائرات الحربيّة أن تلحق أضراراً بالغة بآليّات الجيش العربستانيّ. كانت الدبابات ترمي القذائف على كلّ شيء يتحرك في الشوارع، وعندما رأى الناس السّيّارات وهي تُفجّر أمامهم، فضّلوا البقاء في بيوتهم حتّى يفكّروا في طريقة أخرى للهرب. كانت الوجهة الرئيسة لأول وحدة من الآليّات الشّرقستانيّة هي مبنى الإذاعة والتلفزيون، وبعد أن سيطروا عليه، توجهوا إلى مقرّات الصّحف.

بعد عدّة ساعات، تم ربط التلفزيون العربستاني بتلفزيون شرقستان. أخذ التلفزيون يبث أناشيد وطنية كُتبت خصيصاً لهذا اليوم، تدور كلماتها حول الحرّيّة والعودة إلى الوطن. ثمّ توالى بثّ كلمات مسجّلة للملك الشّرقستانيّ يتحدث فيها عن الارتباط التاريخيّ لأرض عربستان بالمملكة الشّرقستانيّة منذ آلاف السّنين، عندما كانت إمبراطوريّته تحكم العالم. وكان يعِدُ شعب عربستان بحياة كريمة، ومستقبل زاهر أفضل من حياتهم التي يعيشونها حاليّاً.

توجه الجنود، الذين بدؤوا ينتشرون في المدينة، إلى مقرّ المؤسسات الحكوميّة، فحطموا أبوابها، وكسروا نوافذها، وأخذوا ينهبون كلّ ما فيها. ثمّ هرعوا إلى مراكز الشرطة، واستولوا عليها بعد أن قتلوا كلّ من قاومهم، وزجّوا بمن تبقى من أفراد الحرس الوطنيّ والجيش والشرطة في السجون، وأطلقوا سراح جميع المجرمين الذين كانوا فيها.

لم يقتحم الجنود خلال الأيّام الثلاثة الأولى أيّ بيت، فالتعليمات التي كانت لديهم هي أن يسيطروا على مقارّ وسائل الإعلام، ثمّ المؤسسات الحكوميّة، ومراكز الشرطة. وكانت مهمّة القوّات الخاصّة من جنود الجيش الشّرقستانيّ هي اقتحام قصر الملك وقصور أفراد الأسرة المالكة، وإلقاء القبض على كلّ من يلقونه هناك، وخُصّص لمن يقبض على أحد أبناء الملك أو أقربائه، مكافأة كبيرة.

حاول فيصل أن يعود إلى المملكة إلاّ أنّه لم يستطع، فقام نائبه في الحرس الوطني في الساعات الأولى للقصف، بإرسال طائراته

العموديّة إلى قصور الأسرة المالكة، وحمل أفرادها إلى خارج البلاد. كانت تعليماته تقضي بإخراج كلّ فرد من أفراد الأسرة خلال ست ساعات على حدّ أقصى، ثمّ حملهم إلى مطار عسكريّ على حدود المملكة التي تقع في الجهة المعاكسة لحدودها مع شرقستان، ليتمّ نقلهم من هناك بطائرة عسكريّة إلى عاصمة مجاورة.

***

بدأ وائل يراقب الأوضاع عن كثب، وكان (عليّ) صاحب البقالة المجاورة لبيته، قد أوهم الاستخبارات الشّرقستانيّة بأنّه معهم. فلقد هددوا كلّ من يرفض التعاون معهم بالتّعذيب أو القتل، بعد أن يغزوا المدينة. كان عليّ يزوّد وائل بآخر الأخبار، ويخبره بأيّ معلومات يحصل عليها.

أصبح همّ وائل الأوّل أن يُخرج أسرته من المملكة حتّى لا يقعوا في الأسر. علم مِن عليّ أنّ دوريات الجيش المُحتلّ التي تنتشر في الشوارع الرئيسة للعاصمة، لم تنتبه إلى وجود طرق برية حولها، واقترح أن يخرج وائل بأسرته مع قريبه بسيارته ذات الدفع الرباعيّ، ويأخذوا طريق الصّحراء ليلاً، دون أن يشعلوا الأضواء. انطلق وائل إلى بيت قريبه مساء ذلك اليوم، وبدأ معه بالإعداد للخروج من البلاد.

كان قريبه يعرف صحراء بلده مثلما يعرف الطريق التي يسلكها كلّ يوم إلى بيته. فقد كان يقضي معظم إجازاته في فصل الشّتاء يجوب تلك الصّحراء الشاسعة مع أصدقائه. قرروا أن يسلكوا أحد

أكثر الطرق وعورة، حيث كان وائل قلقاً من مدى صحة المعلومات التي زوّده بها عليّ، فقد يكون قادة الجيش المحتل، قد فكّروا في الطرق الصحراوية، وبدؤوا بمراقبتها.

انطلقوا بعد منتصف الليل متجهين إلى أقرب نقطة يلتقي فيها الشارع بالصّحراء. أطفأوا أضواء السّيّارة، كما أشار عليهم عليّ، وكلّما لمحوا دوريّة عسكريّة من بعيد، أوقفوا السيارة في أحد الأزقة باستخدام كابح العجلات اليدوي الذي لا يُضيء إنارة المكابح الخلفيّة، ثمّ يطفئون السّيّارة حتّى لا ينتبه الجنود لصوت محركها. قامت شوق باحتضان مريم لكي لا تخاف وتبكي فيُسمع صوتها. أما أمّه، فكانت تقرأ القرآن، وتدعو طوال الدرب.

استمرّ قريب وائل يقود بهدوء، متجنّباً الطرق الرئيسة، حتّى وصلوا إلى أحد مداخل الصّحراء. وما إن لامست إطارات سيارته الرّمال، حتّى شعر بحرارة تجري في عروقه، وجرت في أوصاله رعشة ذكرته بجدّه الذي قال له يوماً وهو ينثر رمال الصّحراء في وجه الريح: «قد يُهزم العربي في أيّ مكان إلاّ في الصّحراء، فهي حصنه الحقيقيّ، وهي مملكته التي لم تسقط في يد الأعداء يوماً.. إذا خفت، فالجأ إليها يا بنيّ.. الصّحراء أمّك وستحميك.» ابتسم وانطلق يقود سيارته في عتمة الصّحراء وكأنّه يرى كلّ شيء حوله، وكان يُخيّل إليه أنّه يسمع صوت جدّه يدلّه على الطريق الصحيح. شعرت شوق بنسيم عليل يداعب وجهها، وعندما رأت وجه خطيبها يبتسم، علمت أنّهم قد أصبحوا بخير، فرجعت بكرسيّها إلى الوراء، ووضعت مريم إلى جانبها

وضمّتها بقوة.

بعد ثلاث ساعات، وصلوا إلى الحدود، فتفاجؤوا بنقطة تفتيش أقامها الجيش هناك. كانوا يستطيعون رؤية أضواء السّيّارات التي تزاحمت على الطرف الآخر في حدود الدّولة المجاورة، فالمسافة بين المركزين الحدوديين لا تتعدّى كيلو مترين. أوقف قريب وائل سيارته، وأراد أن يُنزل نافذتها عندما اقترب من المُفتشين. فتح الجنود أبواب السيارة وسحبا وائل وقريبه ورموهما على الأرض، ثمّ أخذوا يضربونهما بمؤخرة بنادقهم حتّى أغميَ عليهما.

عندما أفاقا، وجدا نفسيهما في زنزانة مع بقية الأسرة. كان الضابط ينظر إلى شوق منذ ساعات ويبستم لها، إلاّ أنّها ظلت ممسكة بمريم في يد، وبوائل في اليد الأخرى. سأل الضابط عن سبب احتجازه مع عائلته، فقال له إنّهم متهمون بقتل الجنود الذين كانوا في نقطة التفتيش السّابقة، حيث لم يعلمه أحد منهم بمرور سيارة بمواصفات سيارتهم. لم يستطع وائل أن يقول له إنّهم جاؤوا عن طريق الصّحراء، فيقوم الجيش بمراقبة جميع الطرق، ما قد يغلق جميع المنافذ على أيّ شخص يريد الهروب. ظلّ صامتاً، وبعد ليلة كاملة، أتى الضابط، وفتح باب الزنزانة، وأمرهم بالذهاب إلى الجحيم، بعد أن اكتشفوا بأن ضبّاط نقطة التفتيش السّابقة كانوا نائمين، ولذلك، فإنّهم لم يروا السّيّارة، وهي تمرّ من هناك. شكروا ربهم، وهرعوا إلى سيارتهم.

عندما تجاوزوا حدود الدّولة المجاورة، كان هناك رجل في انتظارهم، فقد اتّصل وائل، عن طريق عليّ، بأحد أصدقاء دراسته

من سكان تلك الدّولة، وطلب منه أن يلاقيَه عند الحدود، وعندما تأخر عليه، علم صديقه أنّ خطباً مّا أصابهم، ولكنّه ظلّ ينتظره مثل أصحاب السّيّارات الآخرين الذين منعتهم شهامتهم من الرّحيل عن أصدقائهم.

ركبت شوق وباقي الأسرة سيارة صديقه، أغلق وائل الباب ووقف خارجاً.

- ماذا تنتظر، تعال اركب بسرعة!

- اذهبوا أنتم، أنا سأعود.

حاولت أن تفتح باب السّيّارة ولكنّه منعها:

- ماذا تقصد بقولك إنّك ستعود! وائل تعالَ أرجوك.

- لديّ بعض الأعمال التي عليّ إنهاؤها قبل أن أترك المملكة.

- وائل، لا تكذب عليّ.. أرجوك تعال، أنا أحتاجك، طفلتك تحتاجك.. أمك تحتاجك.

نظرت إلى أمّه وقالت لها وهي تبكي:

- قولي له شيئاً يا خالتي.. أرجوك!

نظرت أمّه في عينيه، وقد امتلأت عيناها بالدّموع. أخرجت

يدها من نافذة السّيّارة، فاقترب وائل وقبّلهما بحرارة.. فقالت له:

- اذهب يا بنيّ.. وطنك يحتاجك أكثر منّا.

كان بكاء شوق قد أبكى الجميع، وأبكى صديق وائل، ولكنه جلس ساكناً في مكانه، ممسكاً بالمقود، ومحدقاً في الأفق. فكّر في أن يتدخل، لكنّه تراجع لأنّه يعرف أنّ صديقه قد اتخذ قراره ولن يتراجع.

- وائل، عِدني بأنّك ستأتي يا حبيبي، عدني بأنّك ستأتي.

- سأكتب لك يا حبيبتي.. اعتني بمريم وبأمي.. أحبّكم.

انطلقت السّيّارة وهنّ ينظرن من زجاجها الخلفيّ ويبكين، وقبل أن يغيب وائل عن نظر شوق، قبّلت راحة يدها، وطبعت القبلة على زجاج السّيّارة، ثمّ حال الغبار بينهما.

بعد أيّام، وصلت إلى بريد صديقه رسالة من وائل إلى شوق.. وكانت آخر اتّصال بينهما.

رسائل الخميس

اللقاء الأوّل يشبه السفر، نعدّ له أمتعة كثيرة، وعندما نصل، لا نستخدم إلاّ بعضاً منها، فعندما نلقى من نحبّ، تنتفي الحاجة إلى بقيّة الأشياء..

لا أشعر بحاجة إلى الأشياء إلاّ معك، لأنك تمنحين الأشياء معانيها.. أو ربما، لأنك تمنحينني الأشياء كلها.

عندما نشتاق، تملؤنا تفاصيل من نحبّ، ويستطيع صوته أن يجعل من أرواحنا منديلاً مُثقَلاً بالدّموع، وقابلاً للذوبان كالثلج.

لقد أَنبتَ فراقك في فؤادي جناحين، جناح ذلٍّ أَخفِضُهُ لكِ مِن الحبّ، وجناح شوق أُحلّقُ به إليك.

سَوّلَتْ لي نفسي أن أنساك يوماً، فما زلتُ أتسوّل، منذ ذلك اليوم، على قارعة الانتظار.

يا عطر الأزهار الخجلى في أوّل الرّبيع..

يا شذا الرحمة التي تفوح بعد سقوط المطر، وقوس الفرحة الذي

يشرق بعد أن تجفّ الدّموع..

غيابك عاصفة من غبار وطين.

ناشدتك الله والرِّحِم..

والشّوق والألم

قد طال بي سجودي..

والوجدُ والسّقَم.

قلتُ لكِ مرة: أحبّ أن أراك سعيدة..

فقلتِ لي: أحبّ أن أراك كما أنتَ..

يا لعذوبة النّساء عندما يملكن الأقلام، ويا لقسوتهنّ، عندما يملكن القلوب..

ما أعذب قسوتك وأنتِ تملكين قلبي والقلم.

استطعتُ أن أفهمك الآن..

أن أبكيَك الآن..

عشقتك رغم ضيق الوقت، وكتبتُ إليك بعد فوات الأوان.

ذِكْرُكِ يُكَفْكِفُ دموعي، ولقاؤك يَكُفّها..

الدّموع لا تعيد الراحلين، ولكنّها تعيد رسمهم.

فراقك عدّة قلبي، ذكراك فيها عزاؤه..

حتّى الموت لا يريح قلب المفارق المشتاق..

حتّى في الموت مساحة للاشتياق.

يتدفق النور إلى قلب العاشق عندما يرى من يحبّ.

حبّك مقدس كالموت، وعذب كالحياة.

كلّما ابتسم المفارق انكسر، وكلّما بكى تكَسّر..

اشتياقي إليك يشبه صراخ المكلوم، يضجّ في صدره دون أن يُصْدر صوتاً..

إن لقاءً واحداً يكفيني لكي أحيا، وفراقاً واحداً يكفيني لكي أموت.

أناشدك.. بحقي عليك، ولهفتي إليك..

كم أشتاق إلى أن أبكي منك، ولكن بين يديك.

عندما أذكرك في حديثي، يضعف صوتي وتتقطع الكلمات حتّى

تتَقَطِع..

عندما أحدّث الناس عنك، يصير صوتي لحناً قديماً، ويصير وجهي صورة صفراء عتيقة..

عندما أتحدث عنك، يصير وجهي مسرحاً، ويصبح قلبي متحفاً، ويكون فؤادي مقبرة أثريّة للتفاؤل والحنين..

عندما أتحدث عنك، أكون أنت، فعندما نحبّ أحداً، فإنّنا نحملُ ملامح وجهه..

ويح قلبي كيف ينبض بعدك.. عندما أذكرك تتداعى روحي بالسّهر والحمى.

ترحل الأنفاس من صدري، يا حبيبتي، ولا ترحلين.

في اللقاء الأول، كان كلّ شيء حولي يبدو مشتاقاً.. عندما نُكْثِرُ مِن انتظار من نحبّ، فإنّنا نُعدي الآخرين..

كيف يجرؤ أحدنا أن يفتح باباً، وهو يعلم أنّ خلفه يقبع كلّ ما تمنّى في هذا العالم؟

إنّها مغامرة لا تكفيها روح واحدة.

لم يبقَ شيء في داخلي لم يبك على فراقك.. لم يبقَ شيء في داخلي بعد فراقك.

كم أحبّ خطك المائل كميلان روحي عندما أسمع صوتك..

لقاؤك أبلغ وصف للسعادة..

لم يكن لقاءً أوّلَ، بل عيداً أوّلَ.. يا أوّل الأشياء الجميلة وأعذبها..

عندما نلقى من نحبّ لأوّل مرة، نحمل براءة الأطفال وحماقاتهم، وعندما نلقاهم آخر مرّة، نشيخ ألف مرة.

إن كلّ الفرحة في اللقاء الأوّل، لا تعادل انكساراً واحداً في اللقاء الأخير..

اللقاء الأوّل يشبه اللقاء الأخير، كلاهما يُسِيلان الدّموع.

***

قبل مائة عام:

الأجمل من البكاء لأجلك هو البكاء معك. لا يهمّنِي لماذا تبكين، طالما أنتي ألملم دموعك، وأسكبها في عيني.

سأبكي معك، فالبكاء مع من نحبّ ينزل المطر، أو يحلّ مكانه..

سأبكي على يديك، وأمسح دمعي بأصابعك، ثمّ سأقبّلها واحداً تلو الآخر حتى تألفني..

سأبكي معك حتى لا أَبكيك.. البكاء مطر الحبّ، والعيون

غمامه..

الأصعب من أن نتعلّم كيف نبكي، هو أن نتعلّم كيف نتوقف عن البكاء.. للبكاء رائحة تشبه رائحة من نحبّ، وصوتٌ مثل صوته.. لا شيء يُكفْكِفُ دموعي مثل صوتك..

البكاء لا يملؤنا بالحزن بل يُطهّرنا منه.. قد أتوقف عن البكاء، ولكن كيف لي أن أتوقف عنك.. ليتك كنت دمعي حتّى لا تُفارقيني، ليتكِ كنتِ دمعي حتّى تُطهّريني مِنّي.

بكيتُ حتّى صارت تحت قدمي واحة تنتظر مرور قافلتك.. لا قيمة للواحات دون قوافل الصّحراء مثلما أنّه لا قيمة للعيون دون دموع.. أمّا أنا فلا قيمة لي دونك.

بكائي يُحرّرني مني، وبكاؤك يخنقني بك.. العيون مسامات الرّوح ورئة القلب التي يتنفس بها أنفاس من يحبّ..

ليتني أستطيع جمع أنفاسك في زجاجة حتّى أتطيّب بها كلّ مساء.

دموعك تغتال كلّ ما تبقى من أيّامي، وتعرّيني من رداء الصبر الذي يكسو قلبي.

ها قد ابيضّت عيناي من الدمع، ولا شيء غير قميص لقائك يرُدّني بصيراً..

لا شيء أجمل من البكاء معك، إلاّ البكاء بك.. سأبكيك، لا لأنّني أحبّ البكاء، ولكن لأنّني أحبّك.

البكاء سطح الألم والنحيب قاعه، وما بينهما ظُلمة الانتظار والتذكر.. كلّ العيون تبكي إلاّ عيني تنزف..

انظري إليّ حتّى أراني في عينيك.

سأبكي معك لتتوضّئي بدمعي، ولتصلّي في محراب قلبي، حتّى أطمئن بصوت دعائك، فدعاؤك وحده من يستطيع أن يرفع بلاء فراقك.

سأتّكئ على دمعي في الطريق إليك، علّ الدّموع التي لا تقرّبك إليّ تحملُني إليك.. أستطيع أن أحمل آلامك، ولكنّني لا أستطيع أن أحتمل تألّمك.. الطريق معك يمرّ عبر كلّ قصائد الحبّ، والطريق إليك يمرّ على كلّ قصائد الرثاء.

عندما تبكين تخرّ الجبال على وجنتيكِ، ويخرّ قلبي على راحتيكِ.

سأضع أمنياتي مع دمعي في قِدْرِ قلبي، وسأشعل نار شوقي تحته حتّى يغليَ، ثمّ سأشرب منه حتّى أفنى ببطء، باسم الحبّ وليس من أجله.. حتّى أموت بعد مائة عام مِن ذكرى الرّحيل.

بعد مائة عام:

بعد مائة عامٍ من ذكرى الرّحيل، صار السّرد تاريخاً مليئاً بالبطولات الكاذبة، وبقصص الصّبر والجَلَد اللذَين يصيبان كلّ عاشقٍ رغمًا عنه.. التاريخ يكتبه الأقوياء، وأنا لستُ منهم.. أمّا الحبّ فيقترفه العاشقون، وإنّني منهم.

بعد مائة عام من ذكرى الرّحيل، صارت رسائلنا مخطوطات تزيّن جدران المتاحف، وصار قلبي متحفاً يضم كلّ آثارك، ويمتلئ بكلّ ذكرياتنا التي صارت تلهم السائحين عندما يهيمون على قلوبهم، مثلما كنتُ أفعل قبل مائة عام.

بعد مائة عام من ذكرى الرّحيل، جفّ كلّ شيء إلاّ دمعي ما زال رَطْباً كما تركته أوّل مرّة..

سيقول الرواة: بكى مائة عام، ولم يمُت.

وسيقول العاشقون: مات مائة مرّة في كلّ عام، ولم يبكِ.

ولو سألوني لقلتُ لهم: في كلّ دمعة ذرفتُها مائة عامٍ من حبّي لها.

ذكراكِ سترةُ نجاة في بحر غيابك..

سأخون دمعي حتّى لا أخونك، فالوفاء للحزن مِن شيم

اليائسين.. بعد مائة عام، صار اليأس تمثالاً يحمل وجهي، وأحمل صلابته.

اليأس لن يؤجّل الرّحيل، ولن يمحو الغياب، اليأس أكثر وهماً من اللقاء.. لم يمزّقني اليأس بقدر ما مزّقني الأمل.. اليأس ليس آخر الدّواء، بل أوّل الداء..

سأبكيك بعد مائة عام، مثلما بكيتك في أوّل عام.

***

في ساعة متأخرة من الليل، أشعر بوخز في صدري، فأضيء الشمعة الوحيدة الباقية في غرفتي حتّى لا أضلّ الطريق المؤدية إلى قلبي.. إلى مكان الوجع..

إنّ من يشعل نصف شمعة لا يرى إلاّ نفسه.. فلا هو تركها تحترق وعاد إلى ظُلْمته، ولا أضاء بنورها الظلام.. بعض النور يبدّد العتمة، وبعضه ينثر الضّوء..

أمّا وجهك، فيبدد العتمة، ويُبعثِرُ الضّياء والتذكّر..

وجعي ليس منك.. وجعي إليك.

ما أعذب وجع الحبّ، وما أرقّ وجع الكتابة لمن نحبّ.. إنّ ألم الكتابة أقسى من الكتابة عن الألم، والأقسى من كلّ ذلك أن نقرأ ما

كتبه لنا مَن نحبّ وهو في حالة انكسار.

لقد كان فراقك قدري الذي عجزتُ عن الفرار منه، وكان لقاؤك قدري الذي عجزت عن الحصول عليه.. إن وجع البحث عمّن نحبّ أشد مِن وجع فقده..

أشعر بأنّني صرتُ أحمل أوجاعي في قلمي، وأحمل قلمي في فؤادي.. ليس من حقّ العاشق أن يختار حبيبه، ولذلك، فإنّه لا يختار أوجاعه، وبقدر حبّنا تكون أوجاعنا.

أنا لستُ غاضباً عليكِ، بل على كلّ الأشياء التي لا تؤدي إليكِ..

لقائي بك كان القدر الأجمل في حياتي.. لقائي بكِ كان حياتي.

إنّ أكثر الأقدار إيلاماً هي التي تمر بنا على من نحبّ دون أن نتوقف عنده، كقطار يتجه إلى آخر الأرض، متغاضياً عن أجمل من سكن فيها.

يا لأوجاعنا عندما نحبّ من نعجز عن الاحتفاظ بهم!

يا لوجعي منك عندما لا تستوعبين حاجتي إليك..

خيبات الحبّ بساتين الكتابة.. إن من يكتب لمن يحبّ، لا يخاطر بحياته، ولكن بكرامته.

كنت أريد أن أذرف معك كلّ الدّموع المتبقية في عينيّ حتّى لا

أبكي بعدك.. وجعي منك لا يبكيني، ولكن بكائي عليك يوجعني..

لولا بُكائي عليك لِمتُّ مِن شوقي إليك.

أَصْدَقُ لحظات الحبّ هي التي تُباغتنا بعد رحيل من نحبّ.. ثمّة أشياء نفتقدها عندما تكون لدينا، ونفهمها بعد أن ترحل عنا.. أمّا أنت، فأفتقدك عندما تكونين معي، وأفتقدك بعدما ترحلين.. وحدكِ من تجعليني أكتب.. ووحدك من تمسحين.

سأحبّك الآن وسأبكيك غداً.. ويكفي من الآن أنّي أُحبّك.

إن وجع الرّحيل يشبه وجع السقوط، فكلاهما يبدأ بالدهشة، وينتهي بالتحطم.

يا لابتذال الكلمات التي كُتِبَت قبلك..

يا لبذاختها معك..

ويا لانتحابها بعدك..

البكاءُ عزْفٌ، الدّموع لَحْنه، وفراقك أوتاره.

أَكتبُ اسمكِ في ورقة وأدسّها تحت وسادتي علّكِ تَرِدين في بعض أحلامي.. الأصعب من إخفاء لذة الحبّ هو إخفاء الشقاء بعده.

تزداد رقّة قلوبنا كلّما توغلنا في حبّ من نحبّ، وتزداد هشاشتها

كلّما ابتعدنا عنهم..

من الصّعب أن تكتب بحياديّة عمّن تحب، فإن أنصفته، لم تُنصِف قلبك.

كم يلزمني من الأوجاع حتّى أعتاد فراقك.. إن من نتألم لرحيلهم، نفقد القدرة على تجاوزهم.

يا انفلات جنوني.. يا انكسار المشتاق، وشوق المنكسر.. آهٍ لو تعلمين كم آلمَتني الكتابة بعدك..

ما عدت قادراً على الاشتياق إليك، فكل أشواق الدّنيا لا تملأ مكانك في قلبي الآن.

إن بوحنا بمشاعرنا لمن نحبّ، يشبه تسلق جبلٍ مكسوٍّ بالجليد، كلّما ارتفعنا فيه، ازددنا ارتجافا، وكلّما ابتعدنا عنه، ازددنا شوقاً لمغامرات الثلج والتكسّر.

لا أستطيع أن أقاوم رغبتي في الكتابة كلّما تذكرتك.. ولا أستطيع أنا أقاوم رغبتي في الغناء كلّما رسمتك.

لا تكمن مشكلة العاشقين في التعبير عن أنفسهم، بل في العبور إليها.. أما مشكلتي فهي في التعبير عنك وفي العبور إليك.

درستُ الخط حتّى أزيّن جدران غرفتي باسمك، وتعلّمت الغناء

حتّى أردد كلماتك كلّما احتجت إلى حضورك.. كوني كلماتي حتّى أغني، وكوني أغنياتي حتّى أكتب..

ما أصعب أن نكتب لمن لا يقرأ، وما أقسى أن نغني لمن لا ينصت..

بين الكتابة والغناء ينبت الحبّ والألم.

لا يمكنني مقاومة الشّوق، لأنّه ولد عندما تلاقت أعيننا في اللقاء الأول. ولا يمكنني مقاومة الوجع، لأنّه ولد عندما افترَقنا في اللقاء الأخير.

إنّ وجع فراقك أهون من وجع عودتك بعد فوات الأوان، فمن يأتِي بعد أوانه لا يجد إلاّ أوراقاً ممزّقة، وقلباً لم يكتمل نموّه بعد.. كم هو موجع أن نعتاد غياب من نحبّ.. ثمّة أوجاع لا نتخلّص منها إلاّ عندما نحبّها.

لو كان مِن حقّي أن أختار وجعي، لاخترتك أنت مرّة أخرى..

لِفَرط ما توجّعت بعدك، صرتِ أنتِ والوجع وجهين لحبيبة واحدة.

***

الطريق إليك يذكرني بالطريق إلى مكة، مليء بالدّعاء والرجاء والأمل.. لبستُ حبّك إحراماً أبيضَاً، ونزعتُ ما فيه من غِلٍّ على الأيّام،

ولكن كيف أنزع ما به من وَجْدٍ وحنين..

أمارس شعائر الاشتياق إليك، وأسعى بين حُبّك وتذكرك، ثمّ أنزوي في حِجْرِ أوراقي لأدعوك، وأدعو لك.

أهديتك كلّ كتبي، فلم أشعر بأنّني أهديتك شيئاً. ثمّ أهديتك عمري، فلم يبقَ لي غيرك شيئاً.

عندما يرحل من نحبّ، يَنْعاه الفرح، وتُؤَبّنه السعادة، وتأخذ عزاءه الذكريات.

ما زالت أحلامي بك تُسَلمِني للنوم كلّ ليلة، وما زال أملي برؤيتك يوقظني كلّ صباح.

كانت أيّامنا معاً مُرْتَقى للعشق والخلود، ورَتَقاً للفقْدِ والسَّقم.

أعلم أنّني سأفتقدك دائماً.. وأعلم أيضاً أنّني سأحبّك دائماً.

احتياجي إليك طوفانٌ عظيم، قلبي فيه سفينتي، وحضنك الجبل الذي ترسو عليه.. فلا غَاضَ الماء، ولا أقلَعَتِ السّماء..

حَمَلْتُ معي من كلّ قصيدة حُبّ بيتين اثنين.. وأعلنتُ لكِ حُبي، وأسْرَرْتُ للأوراقِ إسراراً..

فما زادني الحبّ فيك إلاّ شقاءً، وجوىً، وتباراً.

لم يتسنّ لي أن أودّعك كما ينبغي، ولكنّني بكيتك كما ينبغي.. البكاء لا يخفف الاشتياق، ولكنّه يجعله أكثر احتمالاً.

لا أعلم ما عليّ فعله عندما أكون معك.. قربك مثير للدفء والحياء، وباعثٌ للصمت والابتسام.. قربك تأملٌ وأمل.

عندما أكتب إليك، لا أستخدم حروف الهجاء، بل حروف الشّوق والغزل.

عندما يهطل المطر، لا أنتظر الشمس حتّى أرى الألوان، بل أنتظرك.

عشتُ طويلاً لأحكي عنك، ليتني عشتُ لأحكي لك.. ما بين حبّك وفقدك تَبَعْثَرُ أيّامي، وتكَسَّرُ أقلامي.

أنظري إليّ، لقد صارت عروق جسدي أزقة قديمة تشتاقُ إلى ترميم..

ما بيني وبينك عمرٌ، أيّامه آلامي.. وقبرٌ، شاهده قلبي..

الفراقُ شهادةُ وفاة القلوب، ممهورة بختم القَدَر.

ما أصعب أن تطلب ممن تُحبّ ألاّ يُسافر..

كلّ القلوب ترحل، أمّا قلبك فيُهاجر.

رسائلي إليك صكّ ملْكيّة قلبي بين يديك.

عندما نحبّ أحداً، فإنّ قهوتنا وكتبنا وأمنياتنا معه، تصبح مشتركة.. حتّى أمراضنا، تصير مشتركة.

كتبتُ في كفّكِ كلّ أمنياتي حتّى يقرأها لك العرّافون.. صدّقيهم الآن، فإنّها المرّة الوحيدة التي لن يكذبوا فيها.

سأجمع كلّ الدروبِ التي مشيتُها معكِ، وسأبني منها مدينة نسكنها معاً: أنا وآثارُ قدميك.

كلّما جَنّ الليل بعدك، جُنّ جنوني.

يا لسعادتي عندما أتذكر أنّك مررت في حياتي يوماً.. كانت قناعتي بك كنزاً، وكان قلبيَ المكان الذي استخرجتك منه، ثمّ أعدتك إليه.. يا كنزي، وكِنْزَة فؤادي.. الأيّام دونك فقر مُدْقِع، وشتاءٌ مُوجِع.

ثمّة ضوء يشتعل في فؤادي كلّما تحدثتُ عنك..

ما أعذب صمتنا، فهو أصدق شيء قيل بيننا.

معك، كنت أعدّ الكواكب، وبعدك، لم أعد أؤمن بوجودها..

يا للأسى، كيف لا أؤمن بالكواكب وأراها، وكيف أؤمن بك.. وأحبّك.. ثمّ لا أراك!

كلّ الأشياء تأتي في وقتها، إلاّ الفراق، فإنّه يأتي قبل أوانه.. إنّ أقسى أنواع الفراق هو الذي نخطط له. كم عجبتُ من أولئك الذين يخططون لجنازاتهم! ألا يعلمون أنّ أكثر الأشياء أهمّية هي التي تبقى معنا بعد الرّحيل.

كلنا نخشى الفقد، ولا نستطيع أن نعتاد عليه، لذلك وُجِدَ الحزن ليعيننا على اجتيازه.. لا أريد أن أعتاد فقدك، ولا أريد أن أحزن عليك.. أريد فقط أن أجتاز إليك.

أصعب موقف يمرّ على المُفارق هو أن يقف بعد سنوات أمام المرآة ويقول: كأنّ هذا أنا.

أضطر أحياناً إلى مسح المرآة بيدي لأزيل الغبار المتراكم عليها حتى أرى نفسي.. فَقَدَت المرايا بريقها بعدك، عندما أراكِ فقط أرى نفسي.. كم أشتاق إلى أن أنظر إلى المرآة وأراك واقفة إلى جانبي.

إنّ ما نَشعُرُ به أكثر صِدقاً ممّا نُفكّر فيه، فكيف إذا صرتُ أشعر بك، وأفكّر فيك.. ثلاثة أشياء أُحبها رغماً عني: الضّحك، والسّعادة، وأنتِ.

حبّك هو الفعل الوحيد الذي لا أعتاده أو أَمَلّ منه.

كنتُ تمنيتُ أن ينتهيَ اسمي بأوّل حرف من اسمك. لِتَعْلَمي أنّك مُنتهى الأشياء في داخلي واكتمالها.

***

عاد وائل واختبأ في منزل قريبه لعدة أيّام. وبعد أن هدأ روع دوريّات الجيش الشّرقستانيّ قليلاً، بدأ يزور منازل أصدقائه وأقربائه ليطمئنّ عليهم. كان يقوم بذلك بمساعدة عليّ الذي حذره من استخدام الهاتف، بعد أن استطاعت الحكومة الشّرقستانيّة الجديدة التي يرأسها قائد القوّات المسلحة، أن تُخضع كلّ أنظمة الاتصالات في البلاد للمراقبة. وبعد أيّام، قطعت الحكومة كلّ المكالمات والرّسائل خارج المملكة، ففقد التواصل مع أسرته.

بدأ بالإعداد لمقاومة سريّة من الشّباب الذين آثروا البقاء في الوطن مثله. وكلّما لاقى أحداً منهم، تحدث معه على انفراد بعد منتصف الليل في بيت عليّ، لأنه كان أبعد عن الشكّ من منازل المواطنين.

أفادت المعلومات الاستخباراتيّة بوجود بعض الأمراء ومجموعة من كبار الضباط في المملكة، فأخذت المداهمات تتوالى على المنازل بشكل يوميّ ومفاجئ. لم يكتفِ الجنود بالتفتيش، بل كانوا يسرقون كلّ ما يمكن حمله.

استطاع بعد عدّة أسابيع أن يُجنّد مجموعة من الشّباب، ولكنّه رفض طلبات بعض الفتيات اللاّئي حاولن الانخراط معهم. كان يخشى عليهنّ من الجنود الذين لم يتوانون عن اغتصاب أيّ فتاة تعجبهم. اقترحت إحدى الطبيبات أن تقوم بتدريب الفتيات على الإسعافات الأوليّة، ولكنّه اشترط عليها أن تدرّبهنّ على انفراد، حتّى لا تتناهى أخبارهنّ إلى الدوريّات التي لا تكفّ عن كنسِ الشوارع ليلَ نهارَ بحثاً

عن أيّ نشاط.

بدأ عليّ بتأمين السلاح لهم عن طريق بعض أصدقائه من أصحاب البقالات الذين أخذوا يبيعون السلاح إلى المواطنين عندما لم يحصلوا على مقابل ماديّ من الجيش مثلما وعدهم لقاء تعاونهم معهم.

بقيَ على انطلاق المقاومة، حسب الجدول الذي وضعه وائل، أسبوع واحد. كانوا في انتظار بعض قطع السلاح لتكتمل عدتهم، ولكن عليّ قال لهم إن الاستخبارات العسكريّة بدأت تشك في أمر أصحاب البقالات. وفي أحد المساءات المليئة بالأتربة، سمع وائل صراخاً يأتي من أحد المنازل القريبة منه، خرج من شرفة غرفته، فوجد دوريّة جنود تقف عند باب المنزل. حمل مسدساً وانطلق نازلاً على السلّم فلقيه زميله (راشد) فأمسكه وطرحه أرضاً وصرخ فيه:

- هل جننت!

- ابتعد عنّي، سيغتصب هؤلاء الأوغاد زوجة جاري، دعني أذهب قبل أن تقع مصيبة.

ظلّ جاثماً عليه، وممسكاً بيديه خلف ظهره بقوة حتّى لا يفلت منه:

- وماذا سيمكنك فعله، هل ستقتل جميع الجنود بهذا المسدس؟ لن تقتل إلاّ نفسك!

- لم يبقَ فيَّ عقل يا راشد، هؤلاء الأوغاد لم يُبقوا فينا عقلاً.

قام من على ظهره، وقال موجهاً إصبعه إلى وجهه:

- لو خرجت إليهم وهذا المسدس في يدك فسينفضح أمر المقاومة، وعندها سيغتصبون جميع نساء الحيّ.

ظلّ وائل محدقاً في عينيه وصدره يرتفع إلى الأعلى ويهبط، وقد اكتسى وجهه بالعرق والحُمْرة. أشاح عنه، فعلم راشد أنّه اقتنع بكلامه، وفجأة.. سمعا صوت طلق ناريّ قادم من المنزل المجاور. جلس وائل ووضع رأسه بين ركبيته، وصاح بأعلى صوته.. «يا الله».

عندما انصرف الجنود، هرع من تبقى من أهالي الحيّ إلى ذلك المنزل، وعندما دخلوا وجدوا ربّ البيت يعوم في بركة دماء سالت من رأسه بعد أن اخترقته رصاصة أحد الجنود، وكانت زوجته جاثمة غير بعيد منه وهي تنتحب وتصرخ. هرعت إليها الطبيبة وحقنتها بحقنة مهدئة فأغمضت عينيها على الفور. علم الجميع لاحقاً أنّ زوجها منع الجنود من دخول البيت وتفتيشه، وطلب منهم الانتظار حتّى تلبس زوجته شيئًا يسترها. دفعوه إلى الداخل واقتحموا البيت عنوة. أمرهم قائدهم بربطه إلى أحد الأعمدة، ثمّ قاموا بتجريد زوجته من ثيابها، واغتصبوها أمامه واحداً تلو الآخر، وهو ينظر ويصرخ. بعد أن انتهوا منها، قام قائد المجموعة بإطلاق رصاصة على الزوج ورحلوا. وعند منتصف الليل، تُوفيت الزوجة بسكتة قلبية لتُدفن إلى جانب زوجها في مقبرة الشهداء.

كانت تلك الحادثة سبباً لإعطاء وائل تعليماته للشباب بالبدء في تنفيذ العمليات المخطط لها، على الرّغم من تأخر السلاح. حاول عليّ إقناعه بالتريّث قليلاً، فرد عليه:

- كان يمكن لتلك المرأة أن تكون زوجة أيّ مِنّا، ولو أننا تحركنا مبكراً لربما كنا استطعنا منع تلك الجريمة من الحدوث.

حفظ وجه قائد المجموعة التي قتل جاره واغتصب زوجته، وأقسم أن ينتقم منه. وفي مساء ذلك اليوم، عادت دوريّة المُغتصبين لتطوف بالحي. كان الجنود يدخنون السجائر بهدوء وسكينة وهم يسطعون بكشافاتهم يمنة ويسرة للتأكد من عدم وجود متجوّلين في الشوارع. وبينما هم كذلك، تراءى لهم شخص قادم في اتجاههم. أوقفوا السّيّارة وتحدّث أحدهم عبر مكبر الصوت:

- قف مكانك ولا تتحرك.

لم يتوقف الرّجل وظلّ يمشي باتجاههم.

- قف مكانك وإلاّ أطلقنا النار.

توقف، وظلّ محدقاً بهم، ثمّ انبطح على بطنه، وظلّ ساكناً. ترجّل قائد المجموعة مع جنوده إلاّ سائق السّيّارة، وما إن خطوا بضع خطوات باتجاهه حتى انهال عليهم وابل من الرّصاص من إحدى الجهات، فتبعثر الجنود في المكان. نهض الفتى الذي كان مستلقياً على الأرض، وركض باتجاه سائق السّيّارة الذي كان مشغولاً بالبحث عن

بندقيته، فوضع فوهة مسدسه على زجاج السّيّارة الأمامي، وضغط على الزناد عدة مرات حتى تطايرت أشلاء رأس السائق في كلّ مكان. احتمى بباب السيّارة، وأخذ يطلق النار على الجنود وهم يسقطون واحداً تلو الآخر إلاّ ثلاثة: قائد المجموعة، وجنديّين آخريْن استطاعا أن يحتميا ببرميل كبير للقمامة. أشار وائل بيده إلى زملائه ليتوقفوا عن إطلاق النار، حيث خشيَ أن تنفد منهم الذخيرة. سحب الفتى جثة السائق ورمى بها في الشارع، ركب مكانه وانطلق بالسيّارة ناحية البرميل الحديدي بأقصى سرعة. صرخ عليه وائل ليتوقف ولكن الفتى أيقن بأنّ هذه هي الطريقة الوحيدة ليزيح البرميل من أمام الجنود، وقبل أن تصطدم السّيّارة بالرميل أطلق قائد الدورية رصاصاً على الفتى، فاخترقت إحداها رقبته، ولكن بعد فوات الأوان.. اصطدمت السيّارة بالبرميل، فطار جنديّ من مكانه. قفز وائل وراشد من فوق السور الذي كانا عليه، واتجها ناحية الجنديّيْن ويداهما قد التصقت بزناد رشّاشيهما.. ظلّ وائل ضاغطاً على الزناد حتّى بعد أن مات الجنديّان، وظلت رصاصاته تخترق جسد قائد المجموعة، فأصبح كالخرقة البالية. أيقن راشد بأن وائل لم يكن في وعيه، وإنما كان يفكّر في جاره وفي زوجته.. وربما كان يفكّر في شوق، وفي مريم وفي أمّه.. كان يفكّر في وطنه.

وضع يده على رشاش وائل، فرفع يده من على الزناد. بصق على الجنديّين، وتوجّه مع رفاقه ليحملوا جثة صديقهم من السّيّارة، ثمّ انطلقوا إلى المقبرة. وضعوه في لحده ثمّ أهالوا عليه التراب، وانصرفوا دون أن يذرف أحدهم دمعة واحدة. ففي المعارك، يفقد الإنسان القدرة

على الحزن. لم يكن هناك وقتٌ للمشاعر، وكان تركيز المقاومين على كيفية تحرير بلادهم.

استفاقت قيادة حكومة الاحتلال على وقع خبر اغتيال الجنود. وصل الخبر إلى الملك الشّرقستانيّ في اليوم نفسه، فأمر قائد الجيش بوأد المقاومة في مهدها، وأطلق يده لتعيث فساداً فيمن تبقّى من السكّان.

تضاعف عدد الدوريّات في المناطق السكنية، وأصبح الجنود أكثر حذراً. لم يوقف ذلك عمليات المقاومة التي توزّعت في العاصمة، حتّى لا تعرف حكومة الاحتلال من يقودها. كان الشّباب المنخرطون فيها مستعدّين للموت في أيّ لحظة، وكلّما استشهد أحدهم شعر من يدفنه بأنّه سيُدفن في الحفرة المجاورة قريباً. لم يكن استشهاد أحدهم أمراً بسيطاً عند وائل، فهو يعلم بأن لكلّ فتى منهم أسرة تحبّه.

حاول أن يفهم حينها لماذا على الإنسان أن يموت لكي يحيا غيره! لماذا تُغتصب فتاة وتُمزّقُ أحشاء شابّ لأن ملكاً أو رئيساً مّا في مكان مّا، اشتهى أن يضمّ أرضاً أخرى إلى أرضه!

كانت أكثر عمليّة أثارت غضب قوّات الاحتلال هي اختراق مجموعة من المقاومين سجناً أقامته حكومة الاحتلال في أحد الأبنية الحكوميّة، وسط العاصمة، لاحتجاز رجال الشرطة، والحرس الوطني.

قام المقاومون بتوزيع أنفسهم إلى ستّ مجموعات، تولت كلٌّ

منها الهجوم على إحدى الدوريات في مناطق متفرقة من العاصمة. كان موعد الهجوم بعد الغروب بساعة، ولم يكن الهدف من تلك الهجمات قتل الجنود، ولكن أراد وائل أن يثير انتباه الحاكم العسكريّ إلى تلك الهجمات، فيطلق جميع جنوده للبحث عن المقاومين. نجحت خطته، ولم يبقَ حول المبنى الحكوميّ المستهدف إلاّ حارسان، وقفاً على مدخله، فلم يتوقع أحد أن يتجرأ المقاومون بالسّطو على مكان عامّ وفي وسط المدينة، ولكن توقعاتهم تلك هي ما كان يريدها وائل.

هجم المقاومون على المبنى، وقتلوا الحارسيْن قبل أن يتمكنا من إطلاق صافرة الإنذار. كسروا الأبواب، وأطلقوا السّجناء، ثمّ انتشروا راكضين في الأزقة حتّى اختفوا تماماً.

بانضمام ضباط من الحرس الوطني والشرطة، صارت المقاومة أكثر تنظيماً وأشدّ شراسة، وأسهمت خبرات الضباط وحرفيّتهم في جعل هجمات المقاومين أكثر إيلاماً لقوّات الاحتلال حتى طفح الكيل بقائدها، فقرر أن يعيّن أحد ضبّاطه القدماء الذين تعوّدوا على مثل هذا النوع من حرب الميليشيات في حروب سابقة، قائداً للقوّات الميدانيّة. وكانت مهمّته واضحة: القبض على شباب المقاومة، أحياءً أو أمواتاً.

استدعاه من دوريات الحدود التي كان يقودها منذ بداية الاحتلال. وضع الضابط لنفسه هدفين: اكتشاف مخابئ السّلاح، ومقرّ قيادة المقاومة. بدأ بسؤال جنوده الذين كانوا في الميدان واشتبكوا مع المقاومين عن طبيعة الهجمات، وكيف بدأت. ثمّ أمرهم أن يأخذوه إلى

أوّل مكان هوجمت فيه الدوريّة العسكريّة. تفقّد المكان جيداً، وأمضى يوماً كاملاً يدور على المنازل ويتفحّصها من الخارج. عند المساء، وقبل أن ينصرف من الحيّ الذي يسكنه وائل، لمح سيارة ذات دفع رباعي أمام أحد المنازل، فأوقف المُدرّعة. سأل جنوده عن اسم صاحب البيت، فأخرج أحدهم رزمة أوراق سميكة، وراح يبحث فيها إلى أن وصل إلى اسم وائل.

ظلّ القائد يتذكّر، وائل.. وائل.. كان الاسم مألوفاً لديه. أمر أحد جنوده بطرق الباب ثمّ طلب منه أن يتحدث مع صاحب البيت في أيّ موضوع ليسمع صوته، ويرى وجهه جيّداً.

طرق الجنديّ الباب، ووقف الجنود خلفه، وكان بينهم قائدهم، ولكنّه تصرّف وكأنّه أحدهم. فتح وائل وهو لابس بنطالاً فقط، وتظاهر بأنّه كان يأكل. بدا أنّه لم يخرج من البيت لأيّام. ظلّ القائد محدّقاً في وجهه. شعر أنّه رآه من قبل. ظلّ يتفحص جسده، فرآى علامة حمراء تميل إلى السواد في كتفه الأيمن، ولاحظ أن أطراف أصابعه داكنة.. وبينما هو منصتٌ له وهو يتحدث مع الجنود تذكّره..

كان القائد هو الذي حبس وائل وأسرته على الحدود لليلة كاملة عند بداية الاحتلال. خرج من بين الجنود، ودفع الجنديّ الذي كان يتحدث مع وائل جانباً. اقترب وحدّق في عينيه وقال:

- ألم تعبر الحدود مع أسرتك قبل أشهر؟

عرف وائل أنّه لو أنكر الأمر، فسيشكّ في أمره، ولن يتركه حتّى يتأكد من صحّة كلامه، فقرر أن يكون صريحاً:

- بلى.

- وأين أسرتك الآن؟

- ليسوا هنا، لقد رحلوا إلى خارج المملكة.

- وأنت، لماذا لم ترحل معهم؟

- أردتُ العودة لأكون بين أبي وأمي، فهما كبيران في السن، ولا يقويان على السفر.

- وأين هما الآن؟

- عند ابن عمي، خارج المدينة.

ظلّ القائد يتفرّس في وجهه، ووائل ينظر في عينيه مباشرة وكأنّ عينيه فُوّهتَا بندقيّة تكاد تنفجر. أمر جنوده بالانسحاب، ثمّ عاد إلى مركبته وعيناه لم تزوغا عنه، حتّى اختفى عن ناظريه.

أيقن وائل أنّ الجنود سيعودون قريبا لتفتيش منزله مرّة أخرى. فقد فتّشوه من قبل، ولكنّهم لم ينتبهوا لوجود قبو سريّ تحت الأرض، ولو أنّ أحدهم رفع سجادة المطبخ، لرأى مقبض الباب المؤدي إلى مخزن الأسلحة. حاول أن يتصل براشد، ولكنّه تذكّر كلام عليّ عن

مراقبة المكالمات. كان يجب عليه أن يخرج السلاح من بيته اللّيلة قبل أن تعود الدوريّة. ولحسن حظه، دخل عليه راشد فجأة دون اتفاق مُسْبَق، حيث علم من عليّ أنّ القائد الجديد لدوريات الأحياء عازم على اقتحام كلّ بيوت الحيّ مرّة واحدة، بحثاً عن الأسلحة. أخبره وائل بما جرى، واقترح عليه خطة لإخراج الأسلحة.

ذهبا إلى المسجد، وحملا نعش الموتى إلى بيت وائل. أخذا يحشوان السلاح فيه حتى وصل رفاقهما ثم كفنوه كما يُكفن الميت، ثم لفّوا النّعش من الخارج بقماش أخضر، وتأكدوا من إحكام ربطه جيداً، وحملوه إلى المسجد. صلوا عليه صلاة الجنازة، وخرجوا وهم يُعلون أصواتهم بذكر الله.

مرّت دورية أخرى غير التي كان فيها القائد الميداني فأبطأت السّرعة، استمرّ موكب الجنازة في المشي دون أن يلتفت أحد منهم، وحده وائل التفت قليلاً. أدخل يديه في فتحة صغيرة تركها لتكون كافية لإخراج قطعة سلاح. أمسك برشاش وكان مستعدّاً لإخراجه إن أوقفتهم الدورية. عادت الدورية إلى الوراء قليلاً حتّى اقتربت من الجنازة فتوقفت. خرج السائق منها واقترب من النعش. بدأ وائل بسحب السلاح ببطء، إلاّ أنّه توقف عندما سمع الجنديّ يقول: «لا إله إلاّ الله» وهو يمسح بيده على طرف النّعش، ثمّ عاد إلى سيارته. تجمد الدّم في عروق المتطوعين، ولكنّهم علموا أنّ الجنديّ أراد بذلك العمل أن يحصل على أجر حامل الجنازة. صمت الجميع حتّى ركب الجنديّ المركبة وانطلقت الدورية، وبعد أن اختفت عن الأنظار، ضحكوا ضحكة

خافتة، وقال أحدهم:

- هؤلاء هم الذين ينطبق عليهم المثل القائل: «يقتلون الميت ويمشون في جنازته».

استمرّ ضحكهم قليلاً ثمّ أمرهم وائل بضبط أنفسهم حتّى لا يبدو شكلهم غريباً.

تأكد أحدهم من خلوّ المقبرة من الناس تماماً، ثمّ قاموا بوضع الأسلحة في قبرين متباعدين، وأهالوا عليهما التراب. وتأكد راشد من أنّه حفظ مكانهما قبل أن يتفرقوا.

عاد وائل إلى بيته وهو موقن بعودة القائد. أخفى كلّ دليل على تورطه في المقاومة، ولكنّ المحتلين لم يكونوا في حاجة إلى عذر لكي يعتقلوا أحداً. أعدّ لنفسه كوباً من الشّاي الخالي من السكّر، فلقد نفدت المؤونة من بيته. تذكّر أمّه التي كانت تدير البيت وتوفر له جميع حاجياته دون أن يطلبها. لقد كانت تعرف ماذا يحبّ. تراءى له منظر مريم وهي تلهو، وتخيّلها تركض في اتجاهه، ليحملها ويقبّلها بقوّة، كما كان يفعل كلّ يوم. أراد أن يجلس على أريكته كما تعوّد، ولكنّه أحسّ بحنين غامر إلى شوق، فقرر أن يجلس على الأريكة التي كانت تجلس عليها كلّما زارتهم في البيت. أغمض عينيه ليسمع صوتها.. لم يسمع شيئاً، ولكن هُيّئ إليه أنه يشمّ رائحة عطرها تنبعث من أريكتها.. تخيّل شعرها وهو يستر الأريكة، ويكسوها بعبقه.

وضع كوب الشّاي على الطّاولة أمامه. سحب الدفتر والقلم..
وبدأ يكتب:

حبيبتي شوق...

ظلّ يكتب لساعات حتّى سمع أذان الفجر. وبعد أن انتهى المؤذن، سمع طرقاً قويّاً على الباب فعرف أنّه قد آن الأوان. استمرّ في الكتابة حتّى كسر الجنود الباب، واقتحموا المنزل. هجموا عليه، وحاولوا تقييده، ولكنّه قاوم. أمسكوا يديه خلف ظهره.. نظر إلى قائدهم، وقال له:

- لقد عدت إلى وطني بإرادتي، وسأذهب معكم بإرادتي.

أمرهم القائد بإفلاته.. رأى وائل في عينيه نظرة احترام.. تجاهلها، ومشى حتّى ركب السّيّارة.

***

تلقى خالد أوّل جرعة من الدّواء الكيمائيّ، وقبل أن يبدأ شعر رأسه بالتساقط، قامت زوجته بحلقه تماماً حتّى لا يشعر بتغيّرٍ كبير في شكله بعد الدّواء. كلما يأخذ جرعة جديدة، يقول لزوجته إنّه يشعر وكأنّ قنبلة تنفجر في جسده، وكان الغثيان والشعور بالدّوار يزيدان من حدتها، حتّى لم يعد يُفرّق بين الألم النفسيّ والألم الجسديّ.

نصح الأطباء زوجته ألا تُخبره بنبأ الغزو إلاّ أنّها أصرت على

أن تفعل، فلا أحد يعلم كيف ستكون نفسيته بعد العلاج، وخافت إن علم متأخراً، أن ينهار فجأة، وفضّلت أن تخبره في أوّل يوم استفاق فيه من غيبوبته. ظل يتابع أخبار الغزو يوماً بيوم، وكان يوصي زوجته أن تخبره عن كلّ ما يفوته من أخبار خلال خضوعه للفحوصات أو أثناء دخوله في إحدى حالات الإغماء عندما تباغته فجأة.

لم تكن نتائج الفحص الأوّلي الذي أجراه الأطباء بعد ثلاثة أسابيع من تلقيه للدواء الكيماوي مبشّرة، فالخلايا السرطانية لم تتراجع، واستمرّت بالانتشار في رأسه والسيطرة عليه. قال الطبيب لزوجته إن الدّواء سيمدّ من حياته لبعض الوقت فقط، ولكنّه لن يشفيَه.

- لو كان الدّواء سيمدّ من حياته ساعة واحدة، فلا بأس.

قالتها بصوت متقطّع..

تريده أن يبقى معها لأطول مدّة ممكنة، ولكنها قد تكون أنانية.. هذا ما يدور في نفسها كلما رأت زفرات الألم وهي تخرج منه وتخترق فؤادها حتّى تمزق روحها. اقترح عليها الطبيب أن يُطلع خالد على تفاصيل حالته، فهو رجل دولة، ويعرف كيف يتعامل مع الأزمات والمصائب، فوافقت.

جلس معهما، وشرح له حالته الصحيّة بكلّ وضوح، وقال له صراحة إنّه لا أملَ في شفائه، وإنّ الدّواء قد يُبقيه لبضعة أسابيع أو

أشهر.. لا أحد يعلم، ولكنّه سيضعف جسمه وينهكه، وسيجعله فريسة لكلّ أنواع الآلم.. صمت قليلاً ثمّ رد على الطبيب:

- أعطني الدّواء وسأحتمل الألم.. لا أريد أن أموت قبل أن تتحرّر بلادي.

سقطت دمعتان من عيني زوجته، ووعدت نفسها أن تحتفظ بيأسها لنفسها.

***

بدأت قوّات التحالف، بقيادة الولايات المتحدة، بالتجمع، بعد أن قام فيصل برحلات مكوكية إلى حلفاء المملكة ليُجنّد أكبر عدد ممكن من الدّول في سبيل تحرير بلاده.

أرسلت القوّات تحذيراتها للمملكة الشّرقستانيّة، وطالبتها بسحب قوّاتها على الفور. وفي كلّ مرّة يتحدث فيها قائد قوّات التحالف على التلفاز، يخرج ملك شرقستان بعده بساعات، ليؤكد أنّ قوّاته لن تنسحب من أيّ شبر من «مملكته» وأنّهم على استعداد للدفاع عن وطنهم.

استمرت المقاومة الداخلية حتّى بعد القبض على وائل. وردت أنباء من بعض أصدقاء عليّ بأن وائل لم يعترف تحت التّعذيب باسم أيّ شخص من المنخرطين في المقاومة، ما شجّع المقاومين على الاستبسال في توجيه ضربات موجعة لقوّات الاحتلال.

قرر قائد القوّات الميدانية نقل وائل إلى سجن تحت الأرض في مكانٍ ناءٍ في شرقستان، ليقطع على المقاومة أيّ أمل في تحريره. كان على وائل إذا أراد النوم أن يجلس القرفصاء، ويُسند ظهره إلى الجدار ثمّ يغمض عينيه. لم يتجاوز اتساع زنزانته أكثر من متر مربع واحد. أما أرضيتها، فكانت مبللة على الدوام بسبب تسرب الماء من أحد أنابيب المجاري التي تمرّ فوقها، وكلما سقطت قطرات الماء على تلك البركة الضحلة، أصابت وائل حكة شديدة في جسمه، وخُيل إليه أن الجُدران ستُطْبِقُ عليه.

لم يرَ النور لعدّة أسابيع، وكلّما رُمِيَ له صحن الوجبة الوحيد في اليوم من تحت الباب، يتحسّس الأكل بيديه ليعرف كم بقى منه. الأضواء الوحيدة التي يراها هي إنارة مصابيح ضعيفة معلّقة في أسقف الممرّات المؤدّية إلى غرفة التّعذيب. تحوّلت تلك الغُرفة إلى مزار يومي له.

تعرض في التحقيقات إلى ضرب مبرح من رّجال ضخام الجُثث غصت بهم الغُرفة، وبعد أن فشل الضرب بالأيدي والهراوات، نقلوه إلى «المشرحة» كما يسميها الجنود. يبدأ التّعذيب هناك بإحداث جروح غائرة في أطراف أصابع الأيدي والأرجل، ثمّ يُرسل السّجين إلى زنزانته لقضاء يومين كاملين دون أن يستطيع لمس أيّ شيء حوله، حتّى أكله يتناوله بفمه مباشرة، مثل الكلاب. لا يوجد في الزنزانة مرحاض، وعليه أن يقضيَ حاجته في حفرة في الوسط، ثمّ يغتسل مستخدماً الماء المتجمّع حولها.. كان ذلك أقسى أنواع التّعذيب بالنّسبة إليه.

صار جسده خلال أسابيع أشبه بجذع شجرة خاوية ملأتها الشقوق، وكان جنود التّعذيب يحرصون، بعد أن يوثقوه عارياً تماماً، أن يرشّوا على جسده المُتقرّح مِلحاً، فيصرخ عالياً وكأنّه أصيب بصعقة كهربائيّة.. بعد أيّام، صارت صرخاته تخرج بصمت. بُحّ صوته، وانحسر إلى داخل روحه.

حينها فقد القدرة حتّى على الموت...

كانت صورة شوق ومريم وأمّه لا تُفارقه طوال اليوم، وكلّما أحس بالأمواس والمعاوِل تجُزُّ شيئاً من جسده، يتذكرهم، فيشعر بأنّه يعوم على سطح بحيرة ساكنة لثوانٍ قليلة، ثمّ يغرق حتّى يصل إلى قاعها، فيسحقه ضغط الظلام فوقه.

مع كلّ ألم يُحدثه مِشرط العدو في جسده، يُحدث دواء الطبيب مثله في جسد خالد. كانا يتألمان في الوقت نفسه، دون أن يعلم أحدهما بالآخر. إلاّ أنّ خالداً كان يشعر بيد زوجته وهي تضغط على يده كلّما تألم، أمّا وائل، فكان يسمع صوت شوق كلّما غارت مسامير العدوّ في جسده.

عندما فشلت جميع أساليب التّعذيب، قرّر أحد الضباط أن يقتله ويتخلّص منه، إلاّ أنّ قائده قال له إنّهم يحتاجونه لكسرة شوكة المقاومة. إنه متأكد بأنه ضالعٌ فيها وسيعترف قريباً.

هدده الضابط باقتلاع عينيه إن لم يقل له الحقيقة.. ظلّ صامتاً

ولم يردّ عليه. نهض من مكانه وتناول مطرقة ومسماراً من على طاولة توزّعت عليها أدوات التّعذيب. دار حوله وهو يقول له إنّ عينيه أغلى من وطنه، ولا شيء يستحقّ أن يفقدهما من أجله. حرك وائل رأسه ببطئ، وقد تضرّج وجهه بالدّماء، وطفحت جروحه بالقيء. بصق على رجل الضابط بصقة حمراء اختلطت بسواد.

أمر الضابط جنوده بإحكام الوثاق حول رأسه. وضع المسمار على عينيه وقرب المطرقة من رأس المسمار ونظر إلى عيني وائل وابتسم.. طرق المسمار بقوة فتطايرت أشلاء عينه اليسرى واستقرّت على وجه الضابط، ففزع من مكانه وركض إلى خارج الغرفة وهو يصرخ ويبحث عن دورة المياه.. فقد وائل الوعي فحمله الجنود بعد أن غطّوا عينه بضمادة ولفّوها عدة مرات بشريط حتى توقف النزيف، ثم رموه في زنزانته.

بعد منتصف الليل، دخل عليه جنديّ تعاطف معه عندما رآى صبره وجَلَده. وجده ما يزال مغشيّاً عليه. أخذ بتضميد عينه ومسح الدّماء من على وجهه. حقنه ببعض مسكنات الألم ومضادات الالتهابات التي سرقها من عيادة الجنود. وعندما سمعه يتنفس بعمق، أيقن بأنّه شعر بالراحة.

استيقظ في اليوم الثاني، فارتبك عندما لم يستطع أن يرى إلاّ بعينه اليمنى، وما هي إلاّ ثوانٍ حتّى باغته ألم شديد في رأسه، فأخذ يصرخ حتّى أغشيَ عليه مرّة أخرى.

كان الضابط الذي اقتلع عينه قد عدل عن اقتلاع الأخرى عندما رأى منظره. كانت تلك أقسى عمليّة تعذيب قام بها في حياته. لم يتخيّل يوماً أن يكون منظر العين المقتلعة بهذه البشاعة. استمرّ الجنديّ المتعاطف معه بزيارته في كلّ ليلة للاهتمام بجروحه. بعد أيّام، أمر الضابط بنقله إلى السّجن العام في الطابق العلويّ. كانت تلك أول مرّة يرى فيها ضوء الشمس منذ أسابيع.. أو ربّما أشهر.. لم يعد يتذكر. وأوّل مرّة أيضاً يطلّ فيها على العالم بعين واحدة فقط.

***

أخذت حالة خالد الصحيّة تزداد سوءاً يوما بعد آخر. نحل جسمه وفقد كثيراً من وزنه، وغادرت جميع الملامح وجهه دون رجعة. لم يستطع حتّى أن يقضيَ حاجته في الحمّام وحده، ورفض أن تعينه زوجته على ذلك حتّى لا ترى منه شيئاً سيئاً، وفَضّلَ أن يقوم أحد الممرضين الرّجال بمساعدته.. كان يبكي كلما قام الممرض بتنظيفه بعد قضاء حاجته، وكان الممرض يقول له إنّ هذا عمله، ولا يجب عليه أن يشعر بالخجل. لم يكن يسمعه وهو يتحدث، وكلّ ما كان يتمناه هو أن يموت في تلك اللحظة. لكن شيئاً في داخله أصرّ على مقاومة فكرة الموت حتّى تتَحرّر بلاده.

بدأت ذاكرته في الاضمحلال، إلاّ أنّ قوة إرادته أدهشت الطبيب الذي قال لزوجته إنّ غالبيّة المرضى الذين يمرّون بحالة مشابهة يفقدون تسعين بالمائة من ذاكرتهم تماماً. إلا أن خالداً يبْهرُه، كلّما سأل عن أبنائه. لم يكن يتذكر أسماءهم بسهولة، ولكنه لم ينسهم

أيضاً.

بعد أيّام، توقف المرض عن حمله إلى الحمّام، وتم نقله إلى غرفة مجهزة لهذه الحالات. يقضي المريض حاجته هناك، عندما لا يستطيع الذهاب إلى الحمام، وهو مستلقٍ على السّرير ثمّ يقوم الممرضون بتنظيفه بعد كلّ مرة. كان الممرضون يظنون أنّه لا يشعر بهم وهم يغسلونه، إلاّ أنّه يبكي في داخله دون أن يستطيع إظهار ذلك لأحد. توقف الطبيب عن إعطائه الدّواء لأنّ نسبة المناعة في جسده هَوَتْ إلى حدها الأدنى. خاف أن يموت خلال جلسات الدّواء، وطلب من أسرته أن تدعو له.

أخبر خالد أحد إخوته الذين كانوا معه، عندما استطاع الكلام قليلاً، عن حلم الأسد، وطلب منه تفسيره. وبعد أيّام عاد له بالتفسير:

- قد لا يبدو مناسباً أن أخبرك عن تفسير الحلم لو كنتَ في وضع آخر، ولكن بما أنك..

سكت، وأراد أن يقول: «بما أنك على وشك الموت..» إلاّ أنّ دموعه وحياءه غلباه.. هزّ خالد رأسه وكأنّه يريد أن يوفّر عليه غُمّة الإحراج.. فاستطرد:

- سألتُ أحد المتخصّصين في تفسير الأحلام وقال لي إنّ رؤية الأسد في المنام..

صمت قليلاً وقد ذرفت عيناه بعض الدّموع.. تمالك نفسه وأكمل

حديثه:

- رؤية الأسد في المنام ربّما دلت على الموت والشدّة، لأنّ الناظر إليه يصفرّ لونه ويُغشى عليه. وهذا غالباً تفسير كوابيسك مع الأسد.. أما حلمك الذي كُنتَ تمطي فيه ظهره، فإنّه يدلّ على سيطرتك على مَلِكٍ.. وزئير الأسد يدلّ على خوفك منه.

صمت عندما رأى خالد قد أغمض عينيه، وأراح رأسه على وسادته، ثمّ انهمرت دمعتان حارقتان على وجنتيه حتّى خُيِّلَ إلى أخيه أنّه شعر بحرارتهما على يديه وهو يمسحهما ويُقبّلُ رأسه.

***

انتظر قائد قوّات التحالف حتّى اكتمل القمر، وفي اللّيلة التي سطع البدر فيها لينير صحراء عربستان، انطلقت طائراته من دولة مجاورة تقصف مواقع القوّات الشّرقستانيّة. كان القصف أشبه بيوم دخول القوّات الغازية إلى عربستان. ومن حظ قوات التحالف أن الصواريخ الشّرقستانيّة المضادة للطائرات قديمة ومحليّة الصنع، فلم تستطع أن تقاوم الطائرات الحديثة. أخذت القوّات الشّرقستانيّة بالانسحاب بعد أيّام من الهجوم. أدرك قائد الجيش بعد الدمار الذي ألحقته بهم مقاتلات التحالف الجوية، أنّ بقاءهم في عربستان سيكون انتحاراً، إلاّ أنّه أبقى على خط دفاعيّ واحد لعرقلة قوّات التحالف، وإعطاء قوّاته فرصة للهرب. التحم الطرفان، فلم تستغرق قوّات التحالف أكثر من أربع ساعات لتدمّر ذلك الخطّ، وتحيله غباراً وكأنّه

لم يكن. توجه فيصل برفقة قائد قوّات التحالف إلى مبنى التلفزيون مع مجموعة من التقنيّين، وفصلوا ارتباط البث بالقناة الرسميّة للمملكة الشّرقستانيّة، وأعلن من هناك تحرير عربستان.

ما إن وصل الخبر إلى الملك، حتّى ركب طائرته وعاد من باريس باتجاه عاصمته...

هرعت زوجة خالد إلى إبلاغه بالأخبار السّعيدة علّ حالته تتحسّن. فتح عينيه قليلاً وعلت وجهه ابتسامة داعبتها دمعات انهالت من عينيه كقطر الندى. بدأت نبضاته بالتباطؤ وكأنّه قد اطمأن الآن وقرّر الرّحيل. شعرت زوجته بأنّ جسده يرتعش، أحست بأنّه في خطر فهرعت لتنادي الطبيب. أوقفها أحد إخوته:

- دعيه ينام بسلام.

أيقنت عندها بأنّ زوجها يموت.. فتح عينيه قليلاً وبدأ يتكلّم.. كان صوته خافتاً جدّاً. اقتربت منه لتسمعه:

- في أيّ فصل تدرس ابنتي؟

نظرت إليه ودموعها تنهمل على وجهها وقالت له:

- في الفصل العاشر يا حبيبي.. في الفصل العاشر.

ثم قالت له وهي تبكي على صدره:

- أبناؤك يحبّونك يا خالد.. أحبّك يا خالد.. كلّنا نحبّك.

حاول أن يتحدث، ولكن الكلمات حُبست في فمه، فقالت وهي تبكي:

- أعلم أنك تريد أن تقول بأنك تحبنا أيضاً... أعلم.. ولكنك مُضطرٌّ إلى الرّحيل الآن.. أحبّك يا خالد.. أحبّك يا حبيبي.

كان بزاز ينزل على سلّم طائرته التي توقفت في مطار العاصمة بخطوات سريعة...

ابتسم خالد لزوجته ثمّ أرسل نظره إلى البعيد وكأنّه ينظر إلى شيء ما يحلّق فوق رأسها.. اتّسعت نظراته ثمّ أطلق زفرة طويلة حتى توقف نبضه. سرَتْ في جسده سكينة شعرت بها زوجته.. فأيقنت برحيله.

وقف الملك على أرض عربستان متكئاً على يد زوجته. هوى على ركبتيه وألصق رأسه بالأرض وقبّلها...

هوت زوجة خالد بوجهها على رأس زوجها وقبّلته.. أطلقت صرخة مكتومة عجزت الآذان عن سماعها.

رفع الملك رأسه من على الأرض وقد بللها بدموعه...

رفعت زوجة خالد رأسها من على صدر زوجها وقد بللته

بدموعها...

كانت الشمس قد غربت من أمام غرفة خالد في أمريكا.. وأشرقت على عربستان..

***

عندما حلَّت الطائرة توجهت أسرة وائل إلى منزله. دخلت شوق فرأت كلّ شيء في مكانه وكأنّ شيئاً لم يحدث هنا. ركضت وهي تصرخ وتناديه في جميع أرجاء البيت، ولكنّها أيقنت بعد دقائق بأنّه ليس هناك.. جلست في غرفة العائلة فلمحت كوب شاي على الطّاولة، توجهت إليه فوجدت ورقة تحت الكوب وقلماً تُرِك مفتوحاً حتّى جفّ حبره.. كانت رسالة موجهة إليها من وائل:

«حبيبتي شوق... أكتب لك وجنود الاحتلال على وشك اعتقالي، أعلم هذا جيّداً لأنّني قرأته في عينيّ قائدهم اليوم. أتمنّى أن تكوني وأمّي ومريم بخير.. اشتقت إليكم كثيراً. أكتب لك هذه الرّسالة وقد فضّلت أن أجلس على كرسيّك لكي أشعر بوجودك وأريح روحي بشذى عطرك. نحن نقوم بعملنا قدر استطاعتنا، وأرجو، بل أعلم تماماً أنّكم تدعون لنا حيثما كنتم.. أشعر بدعائك يرافقني في كلّ مكان.

لقد وعدتك بأنّني سألحق بكم، ولكنّني لم أستطع أن أترك وطني قبل أن يتحرّر. هناك ثلاثة أشياء يا حبيبتي لو فقدتُها فلن أستطيع استعادتها.. الوطن.. وقليل من من الكتب.. وكثير من الذكريات.

أعلم أنّك كنتِ تريدينني أن أرحل من أجلكم، ولكنّني بقيت من أجلكم.. كان على أحد أن يبقى حتّى لا يرحل الوطن.

لم يمرّ عليَّ يوم دون أن أتذكّركم. أنتم وطني أيضاً، ولكنّني مطمئنّ إلى أنكم قد أصبحتم في أمان الآن. إذا وصلتك هذه الرّسالة يا حبيبتي فاعلمي أنّني أُخذت أسيراً، ولكن اعلمي أيضاً أنّني سأظلّ حُراً دائماً لأنّني أحمل حبّك وحبّ وطني في داخلي. اعلمي يا حبيبتي أنّه كلّما زاد عدد الأسرى في السّجون، اقترب موعد التّحرير. إن الأَسْرَ الذي يحرّر الوطن من عبوديّته هو أشرف أنواع الأسر.

كتبتُ لكِ رسالة خميسٍ أخيرة.. إذا قرأتِ هذه الأوراق، فانشريها في الصّحيفة، وقولي لجميع الفتيات اللاّئي تعرفينهنّ إنّها لكِ أنتِ.. بل كلّ رسائلي كانت أنتِ.

أسمع ضربات أعقاب بنادق الجنود على الباب... لقد اقترب موعد التّحرير يا حبيبتي.. أحبّك، حيّاً كنتُ أو ميتاً.. أحبّك».

احتضنت الرّسالة، وهوت على الأرض وهي تبكي وتعتصرها بين يدها وقلبها..

نظرت إلى كوب الشاي فوجدته ما يزال ممتلئاً، فعرفت أنّه لم يتمكن حتّى من أخذ رشفة واحدة، وفضّل الكتابة لها على احتساء آخر كوب شاي في حياته.. تقدمّت أمّه واحتضنتها وظلّت تبكي معها.

بعد أن نامت مريم وأمّ وائل، أشعلت شوق نوراً ضعيفاً كقلبها

الذي تيتّم من الحبّ. فتحت رسالة الخميس الأخيرة:

«بالأمس، أزحتُ الغبار عن إحدى صورك، ثمّ وضعتُ أصابعي على وجنتيك، وبكيتُ على صفحتهما.. إنّ صور من نحبّ تُشبِهنا أكثر منهم.. أشتاقُ إليك بقدر ما أحبّك، وأحبّك بقدر ما اشتقتُ إليك.

بين الحبّ والشّوق يعيش قلبي، وتُعشّشُ لهفتي إليك.

لا أدري إن كان من حقّي أن أناديَك الآن يا حبيبتي؟ ولكنّني أعرف أنّه من حقّي أن أحبّك، فالحبّ هو الجريمة الوحيدة التي لا يُعاقب عليها القانون. سأحبّك حتّى لو بقيتِ بعيدة. سأحبّك دون شروط أو رغبات سوى رغبةِ ملامسة وجهِك.

لا توجد في الحبّ آخر مرة، فكل مرّة تبدو كأنّها الأولى.. وكل مرّة معك أجمل من كلّ مرة.

لا تكوني لي.. كوني للذكرى حبيبة، فالذكرى هي الموعد الوحيد الذي لن يخلفه أحدنا، حتّى وإن حاول جاهداً.

الحبّ كالنور، ينتشر رغماً عنا، ولا ينبعث إلاّ في أوانه.

لقد أسكنني رحيلك الدرك الأسفل من الحزن.

من هنا.. من قاع الشّوق أكتب إليك، علّ قلبك يذكرُ.. أو يهوى.

حقّاً، إن الحبّ يعلّمنا البكاء، والفراق يعلّمنا الكتابة.. كم أحبّ

أن أراك تكتبين لي..

المُفارِقُ مُجرِمٌ حتّى تثبتَ عودته.

لا بدّ أن نُفارق لنصنع الذكريات.

لا طاقة لي اليوم على بكاء آخر.. أريد أن أحتفظ ببعض الدّموع للحظة لقائك.

أنا لستُ غاضباً عليك.. أنا مشتاقٌ إليك.. ومُبَعْثَرٌ كأشلاء نافذة اعتادت على تكثّف أنفاسك الدافئة فوق صفحتها في ليالي الشتّاء الباردة..

كلّ الأشياء يمكنها أن تُفْتَعَل، إلاّ الاشتياق.. وأنتِ.

يعيش أحدنا على هامش الحياة حتّى تَجُرّه إلى عمق صفحاتها امرأة مثلك، فيتورّط ويصير نَصّاً يستمتع بقراءته العاشقون قبل النوم.. أليس لهذا تُدوَّنُ قصص الحبّ؟ لتجلب البكاء والتعب لمن يريدون النوم بسرعة.

لا أريد أن أنساك، لأنّك تعينينني على احتمال البكاء.. تذكُّرك هو لحظاتي الخاصّة.. فرحتي الخاصّة.. وانكساراتي الخاصّة.

يحبّ المرء في الخفاء، وينكسر في العَلَن.

تلُفُّني أسوار سفرك، ويظلّلني غيابك، فأسندُ رأسي إلى جذع

تذكّرك، وأغمض عيني عليّ ألقاكِ فيهما.

أحبّك، ولا أدري، إن كنتُ أفعل ذلك لأنّك تستحقين الحبّ، أم لأنّني أستحق العذاب..

شيئان يملآني الآن، صوتك، وشوقي إلى سماعه.

كثيف هو حبّك ككثافة الشّوق بعد الرّحيل.

أحبّك يا قابَ قلبي أو أدنى.

لو أقسمتِ على قلبي، يا قلبي، لأَبَرّك.

***

لا أدري ماذا سأقول للّيالي عنك بعد اليوم، فقد أدمَنَتْ حكاياتنا التي كنتُ أكتبها على أطراف سريري، لأشعر بأنّك حولي كلّ ليلة.

انتهت قصتنا وما انتهى حُبّنا.. الحبّ ليس الزهرة، بل التربة التي تنبت فيها.

الحبّ ليس النتيجة، ولا السّبب، إنّه المعادلة غير العادلة التي لا يتساوى طرفاها إلاّ عندما يُقَسَّمان.

الحبّ حقٌّ نحصلُ عليه عندما نتنازل عنه لمن نحبّ.

لا أعلم أين سأكون عندما تقرئين رسالتي، ولكنّني أعلم أنّك

ستكونين في قلبي.. يا قلبي.

في كلّ حنينٍ إليك حكاية معك، وفي كلّ حكاية معك حنينٌ إليك.

النهاية، يا حبيبتي، تأتي رغماً عنّا، تملؤنا بالحزن الشديد، وتبثّ في أطرافنا الموت والوجع،

لكنّها تجعلنا أكثر صدقاً مع من نحبّ.. النهاية تُوحّدنا مع من نحبّ.

سأتوقف الآن، وسألوّح بقلمي للأوراق، وسأطوّح بقلبي في بحر الاشتياق ليَغرق ببطء شديد، كما أُحبّك بعمقٍ شديد.

الحبّ والكتابة عملان لا يَحْمُلان إلاّ بِك.

كم أحبّ أن أكون في انتظارك..

وأن أبتسم في انتظارك..

وأن أبكيَ وأشكوَ في انتظارك..

ثم لا تأتين..

وأعود أدراجي راضياً بأنّني أوفيتُ بانتظارك.

الأقسى من فقدك هو أن أفقد القدرة على انتظارك.

لم يَبْقَ لي وقت حتّى أكتب، ولكن بقيَ لي عمر حتّى أتذكر..

سأشتاق إليك بقدر ما أحببتك، وسأبقى أحبّك بقدر ما اشتقتُ إليك.

يُشيرون إليك بأصابعهم، وأشير إليك بقلبي..

حتّى في فراقك أشعر بحنانك.

كل الأماكن التي انتظرتك فيها صارت وطناً للصّمت والتذكر.

أشعر، وأنا أكتب رسالتي الأخيرة، أنّها الساعة الأخيرة، وقريباً، سيُصلّون على قلمي، ويوارونه الثّرى..

أشعر وكأنّ هناك موتاً جماعيّاً للكلمات في صدري،

أو موتاً للسنين.

لا شيء كالنهايات تُبِيدُنا، وتُبَدّدُنا، حتّى نكون حَرَضاً،

أو نكون من الهالكين.

أَعلمُ أنّك لن تأتي، ولكنّني سأنتظرك،

إيماناً بك،

ووفاءً لك،

ولهفةً عليك.

حبّك طفلٌ، كلّما كبر ازداد طفولة، وازداد تعلّقي به.

الحبّ يَسْكن القلب، والشّوق يَسْكن العين، وأنتِ ترحلين بينهما،

ترتادينَ كلماتي،

ثم لا تَرُدّينها، أو تَرُدّين.

أتنفسُكِ اشتياقاً، وأجِدُ ريحكِ في زوايا صدري،

لولا أن تُفنِّدين.

عودَتُكِ غَوْثٌ، وغَيثٌ،

وغابةٌ مِن فرح وياسمين.

السّماء التي لا تُظِلّك لا تُنزِلُ المطر،

والأرضُ التي لا تحمِلُك لا تُنبِتُ الشجر.

كلّ لغات العالم لا تكفيني لأكتُبَ عن اشتياقي إليك..

أدركتُ الآن أنّ أصابعي قبلكِ لم تحمل أيّ بصمات، ووجهي لم تكن به قسَمات..

كُنْتُ ظِلاًّ لِظِلّي، فأعدتِ رسمي من جديد.. وها هي لوحتُك،

مُعلّقة داخل إطارٍ مهترئ في متحف قديم،

وها هو قلبي،

معلّقٌ على جدار انتظارك،

قاتمٌ عقيم.

ساعاتُ الانتظار جُزْءٌ مِن اللقاء، وأحياناً تكون أجمل منه..

وساعاتُ الفقد جزءٌ من الموت، وأحياناً تكون أوحش منه.

الليالي التي التقيتُكِ فيها، حِبرٌ أكتبُ به قصّتنا..

لقد كنتِ أكثر ممّا أستحق، وأجمل ممّا أتمنّى.

كُلّ الخيالِ أجمل مِن الحقيقة، إلاّ أنتِ،

أجمل مِن الخيال.. ومِن الحقيقة.

لولاكِ ما أحببتُ.. لولاكِ ما كَتبتُ..

لولاكِ يا حبيبتي ما كُنتُ.

تقاسمتُ قلبي معك، فخُذي نصفك، واحتفظي بنصفيَ عندكِ..

فما عدتُ أحتاجه بَعدك.

سأفتقدُ صوتك، وصوت أنفاسك التي كانت تُحرّك شِغَاف قلبي كشراعٍ أبيضَ عانق النجوم.

لا أدري كيف كان يجب أن يكون فراقنا، ولكنّني كنت أتمنّى ألاّ يكون..

نُضطرّ أحيانا إلى أن نُمارس النسيان، قسْراً، حتّى نستطيع أن نتذكر وجه من نحبّ.

ما زالت رسائلي التي سَطّرْتُها لك واقفة على عتبات الأمنيات،

تحملُ باقة ذكريات، تدقّ باب الأمل،

وتنتظرُ أن يُفتَح لها.

أودعتُ قلبي في رسائلي، عسى ربّي أن يجعل فؤادك يَهوي إليها،

أو يَهوي إلَيَّ..

قد جاوز الحُبّ قلباً، واشتعل الوجْدُ شوقاً،

ولم أَزَلْ بحبّك رَضِيّاً..

بَلَغْتُ مِنَ الصبْر عجْزاً، ومن البكاء يأساً،

ومِنَ الشّوق عِتِيّاً..

سأحبّك ما دُمتُ أكتُبُ.. وأُحبّك ما دُمتُ حَيّاً».

سقطت الأوراق من يد شوق وهي تبكي.. تذكرت لقاءها به في المكتبة، وفي المعسكر.. تذكرت ضحكاتهما في إنسياد، وشجارهما ثم تصالحهما في عمّان. أفزعتها فكرة رحيله.. لا تريد أن يكون وائل مجرد ذكريات فقط.. فهي تخشى من ذكرياتها كثيراً لأنها مليئة بالفقد والرحيل.

بعد أن هدأت قليلاً انتبهت إلى أن شيئاً قد كُتِب على ظهر الصفحة الأخيرة. رفعتها وقد تبللت بدموعها.. قرأت ملاحظة كتبها بخط متقطّع: «كم يشعر أحدنا بالخجل عندما يمشي على الأرض، ومن يحبهم يرقدون تحتها.»

***

أوّل عمل قام به الملك بعد التّحرير هو وضع حجر أساس لمدرسة، وحجر أساس آخر للمبنى الجديد لجامعة عربستان التي دمّرتها دبّابات الاحتلال. ثمّ شكّل لجنة للمطالبة بتحرير الأسرى، وعلى رغم إصرار حكومة شرقستان على أنّه لم يبقَ أسيرٌ واحد في سجونهم، إلاّ أنّه ظلّ مُصراً على معرفة ماذا حلّ بالذين اختفوا ولم يعودوا!

قرر الأمير أحمد الاستقرار في باريس، ثمّ أرسل رسالة إلى أبيه يعلن فيها تنازله عن منصب وليّ العهد. قبل الملك طلب ابنه وعيّنَ

فيصل مكانه.. ثم بدأ بالانسحاب تدريجيّاً من إدارة شؤون المملكة، وتركها للأمير الجديد.

ترأّس فيصل لجنة استعادة الأسرى بقرار من الملك. سافر إلى الأمم المتحدة، والتقى بقادة العالم لكي يضغطوا على ملك شرقستان للإفصاح عن مصيرهم. وعندما قيل لهم إنّ الذين ماتوا قد دُفِنوا في عربستان، طلبت اللجنة معرفة أماكن دفنهم للتأكد من هويّاتهم من خلال فحوصات البصمة الوراثيّة.

أراد فيصل أن يعرف مصير صديقه وائل. ظل يتصل بشوق كلّ عدّة أيّام ويقسم لها أنّه لن يتخلّى عن البحث عن خطيبها.

بعد ستة أشهر، دُقّ جرس باب بيت وائل. خرجت الخادمة فوجدت عَليّاً، صاحب البقالة، وطلب أن يتحدث مع شوق.

خرجت مسرعة:

- كيف حالك يا شوق؟

- بخير يا عليّ، ماذا تريد؟

- اسمعيني فقط.

شعرت بوخزة في صدرها، فأومأت برأسها ليتكلّم:

- وردتني أخبار عن طريق معارفي في شرقستان تُفيد أنّ هناك

سجيناً واحداً لا يزال على قيد الحياة في أحد السجون.

كانت عائلة وائل قد أقامت له عزاءً قبل عدّة أشهر عندما أرسلت الحكومة الشرّقستانيّة قائمة بأسماء الأسرى الذين ماتوا في السّجون، وكان هو بينهم، إلاّ أنّها كانت تعيش على أمل يكذّب ذلك.

- من قال لك ذلك.. هل أنت متأكّد؟!

قالتها وقد اختلطت مشاعر الأمل في صدرها بالغضب من أن يكون أملاً كاذباً. رد بهدوء:

- لا أستطيع أن أخبرك من، ولكن الحارس الذي يشرف على زنزانة السجين، قال إنّه مستعدّ للهروب معه، إن وعدته حكومتكم بمنحه حقّ اللجوء السياسيّ.. كما طلب مبلغاً مِن المال.

- ولكن كيف لي أن أعرف أنّ هذا الحارس صادق، ولا يريد استغلالنا؟ وكيف سنعرف أن السجين الباقي هو وائل؟

أطرق عليّ في التفكير وكأنّ سؤال شوق لم يخطر على باله من قبل.. ظلّ يفكر قليلاً ثمّ قال:

- اسأليني أيّ سؤال لا يعرف إجابته إلاّ أنت ووائل وسأوصله إلى الحارس عن طريق معارفي، وإذا كانت الإجابة صحيحة، فستتأكدين من أنّه على قيد الحياة.

استحسنت شوق الفكرة، وطلبت منه أن يعود في المساء. جلست تفكّر في شيء لا يعرفه إلاّ كليهما.. شيء سيظلّ عالقاً في ذاكرة وائل على رغم ما مرّ به، فلا بدّ من أنّهم عذّبوه كثيراً.. أفزعتها فكرة تعذيبه، ولكنها عادت إلى التركيز على كونه لا يزال حيّاً.

عندما عاد في المساء قالت له:

- لديّ سؤالان، الأول: ما اسم الشّخص الذي ترك الدّواء من أجل كتاب، يروي قصّته لأطفاله؟ والثاني: ما كلمة السر التي علّمها ابنته؟

بعد شهر عاد عليّ بالأجوبة:

- جواب السؤال الأوّل هو «برزويه» وزير الملك أنوشروان، ملك فارس قديماً. ترك اشتغاله بالطبّ، وعمل لسنوات في الهند من أجل الحصول على نسخة من كتاب «كليلة ودمنة».

جواب السؤال الثاني هو «شوق».

جَثَت على ركبتيها وانهمرت دموعها.. أيقنت أنّ حبيبها على قيد الحياة. هرعت إلى الهاتف واتّصلت بفيصل وأخبرته بالقصّة. طلب منها أن تطمئنّ إلى أنّه سيفعل كلّ ما في وسعه لتحرير وائل.

خلال أيّام كانت الاستخبارات العسكريّة قد نسّقت مع عليّ ترتيبات هروب الحارس ووائل من سجنه في شرقستان، وأعطوه

ضمانات بأنّه سيُمنح حقّ اللجوء السياسيّ والمبلغ الذي يريد.

***

اكتشفت شوق عندما كانت خارج المملكة أثناء الغزو أنّها مصابة بورم في غدتها الدرقيّة. ظلّ الورم يكبر واضطرت إلى أن تدخل المستشفى بعد عودتها. قال لها الطبيب عدّة مرات إنّها يجب أن تخضع لعمليّة جراحية في أسرع وقت لاستئصال الورم قبل استفحاله، لكنها كانت ترفض عندما ظنّت أن وائل قد مات. ظلت تقول لأمّه إنّها تريد أن تلحق به. وعندما شعرت أنّه قد يكون على قيد الحياة، أقنعتها أمّه بأن تخضع للعمليّة.

قال لها الطبيب في المستشفى إنّها تأخرت، وقد يكون من الخطورة إجراؤها الآن. أرادت أن تخرج، فقالت لها أمّه، إنّ وائل إذا عاد وعلم أنّها لم تخضع للعملية، فإنّه سيغضب منها كثيراً:

- تأكدي أنّ هذا ما يريده يا ابنتي.

- ولكن ماذا لو دخلتُ غرفة العمليات وخرجتُ منها إلى المقبرة! تخيّلي أن أموت عند عودة وائل! كلاّ، لا أريده أن يحمل نعشي. لا أريد أن أكسر قلبه.

- لا نعلم إن كان حيّاً أم ميّتاً.

لم تكد تنتهي من الجملة حتّى غالبت شفتاها رغبة في البكاء. أخذت نفساً عميقاً واستجمعت قواها وأكملت:

- كل ما نعلمه يا ابنتي أنّ الله يرعاه أينما كان. والله أيضاً سيرعاكِ يا حبيبتي.

ثم نظرت إلى الطبيب وقالت له:

- متى تستطيع أن تُجري العمليّة؟

- خلال أيّام.

أدخلتها غرفتها، قبّلت رأسها وخرجت. عادت بعد ساعات ووضعت ملفّاً بجانب رأسها وانصرفت دون أن تقول شيئاً. فتحته شوق فوجدت كلّ رسائل الخميس التي كتبها وائل قد جمعتها أمّه في كتاب وتركته لها حتّى تُقَوّيَ كلماتُه عزيمتها.

استمرّت تقرأُ فيه وتبكي.. وعندما انتهت قرّرت أن تكتب رسالة إلى وائل وطلبت من أمّه أن تُعطيه إيّاها إذا عاد:

«ها هي الحياة تضع عثرة جديدة في طريقي معك. ها هو المرض يُلزمنِي البعد عنك، وها أنا أجد صعوبة في الكتابة إليك. لماذا تمنحنا الحياة يا حبيبي الوقت الكافي كي نكره، بينما تستعجل الرّحيل عندما نحبّ؟!

كم يقوّيني وجودك بجواري. مذ كنتُ في عَمّان وحتّى مجيئي إلى هنا، ما زال صوتك يسكنني. كلّما تذكرتُ صوتك وأنت تردّد إنني سأعود أقوى، يزداد إيماني بعودتي.

حبيبي، أحبّك، ولا أعلم يقيناً آخر سوى أنّي أحبّك.

كنتُ أعدُّ للتوّ بلاطات جدار المستشفى، فلمحتُك تسند ظهرك إلى بعضها. إن كان هذا جنوناً فأنا مجنونة بك. هل ستُمَدّ الأيّام من أجلنا حتّى نلتقيَ مرة أخرى؟ حتّى نجوب العالم معاً؟ حتّى نرميَ العملات المعدنيّة في البِرَك، ونتمنّى ألاّ يُفارق أحدنا الآخر؟ هل سيُمهلني القدر حتّى أمسك بيديك ونحن نجوب الشوارع والأزقّة القديمة؟ ما زلتُ أسأل الله أن يمنحني عمراً آخر، ليس لأنّني أخاف الموت، ولكن لأنّني أخاف أن يمضيَ عمري، وأموت قبل أن ألقاك.

بدأتُ أخاف أن ينتهيَ عمري فجأة كصفحات دفتري هذا الذي بدأ بالنفاد. قال لي الطبيب إنّه لا يعرف كم سأعيش، وقد يكون موتي وشيكاً، فلا يعلم إن كان الورم قد خرج من نطاق الغدّة أم لا!

أريد أن أراك ساعة واحدة قبل انتهاء حياتي حتّى تكتمل بلقائك.

الناس في حياتنا كالأشجار، تطرح الثمار، وغاية الآخرين أن يجنوها أو على الأقل، أن يتفيّؤوا ظلالها. وهناك الجذور التي تشكل أصل الشجرة وحضنها الأوّل. تبقى الجذور مبتدأ الشجر والرافد

لنموها وازدهارها.

أنت يا حبيبي كالشجرة، يسعى من حولك إلى مشاركتك إنجازاتك ويتسابقون إلى قطفها. وهناك من يكفيهم أن يستظلوا تحت ظلّ حنانك وكرمك وتشجيعك. بعضهم، صار غصناً متفرعاً منك، وبعضهم نما قريباً جدّاً حتّى صار ثمرة معلّقة فيك.

أما أنا فلا أريد كلّ ذلك، أريد فقط أن أكون شيئاً من جذورك الأولى، تماماً كأمك وأبيك. أريد أن أكون شيئًا من سيرتك الأولى.. أريد أن أحملك في أفراحك وأحزانك، أريد أن أمنحك القوة لتعين الآخرين وترشدهم. أريد عندما يلجأ الجميع إليك ليحتموا من الشمس أو المطر، أن تلجأ أنت إليّ كي أبقيك متماسكاً، منتصب القامة أمام رياح الزمن. لم أردك أن تراني يوماً ضعيفة حتّى تبقى قويّاً يا حبيبي. لم أبح بحاجتي إليك كي لا ترى ضعفي، وحتّى تظلّ واثقاً من قوة جذورك وتماسكها.

ولكن هناك ثمّة أنا يا حبيبي.. ثمّة أنا تفتقدك الآن على هذا الفراش الذي يفوح برائحة الموت. ثمّة جذور تمنح كلّ قواها لأشجارها حتّى تستمر في الحياة، ولكنّها تنسى أنّ سرّ حياة الأشجار هو بقاء جذورها صلبة.. أعترف لك الآن بأنّني ما عدتُ صلبة.. لا أريد أن أموت حتّى لا تحزن عليّ، فقسوة حزنك أشدّ وطأة على قلبي من رهبة الموت وغربته.

أريد أن أحيا كي أحتضنك كلّما هَمّكَ شيءٌ، وكي أنفضَ عنك غبار الأوجاع وأطبّبك وقت المرض. أريد أن أسقيَك الدّواء، وأحضر لك الطعام، وأرتّب أوراقك، وأصفّق لك بعد نجاحك.. لا أريد أن أكون في حياتك سوى جذورٍ لا تأبه بِشَرَهِ الظهور. لا يعنيني أن أقطف ثمارك، أو أستظلّ تحت ظلالك، أريد فقط أن أكون حضنك الذي يجبر انكساراتك. أريد أن أسمع أنفاسك الدّافئة في أواخر الليالي الباردة..

أبوح لك الآن بكلّ هذا لأنّني لا أملك الوقت الكافي لتأجيله. بتُّ يا حبيبي أخشى من الوقت، وبسبب ضيقه بتُّ لا أغار من أحد عليك سوى من الأيّام التي ستقضيها دوني.

حبيبي...

لا أكذبُ إن قلتُ إنّني أحبّ مَرَضِي لأنّني بسببه أصبحتُ أحظى بمزيد من الوقت لقراءة ما كتبته لي.

حبيبي، لو لم أعش حتّى اللحظة التي أملك فيها الشجاعة على قراءة أسطري هذه لك، فاعلم أنّني أخفقت كثيراً وأنا أكتب إليك. ما أصعب أن يكتب أحدنا إلى شخص يشبهه.. قال لي أحدهم ذات مرّة إنّ الأشخاص الذين نحبّهم ويغادرون الحياة قبلنا يحبوننا أكثر منّا، لأنّهم لا يمكلون الجرأة على تقبّل الحياة من دوننا.

لو لم أكن إلى جوارك عندما تعود، وكنتُ أرقد في مكان بعيد، فتأكد من أنّني تركتُ الحياة رُغما عنّي. تركتها قبلك يا صديقي لأنّي

لستُ قادرة على التّفكير في فقدانك مرّة أخرى. أعلمُ أنّني لن أحتمل ذلك اليوم الذي تُغيّبك فيه الحياة عن ناظري، لذا فقد يكون رحيلي قبلك مبرّراً منطقيّا.. لربّما تقتنع الآن بأنّني أحبّك أكثر منّي.

غداً قد ينتهي كلّ شيء، أو قد يبدأ كلّ شيء من جديد. الأهم هو أنك أجمل البدايات، رغم كلّ النهايات الحزينة. سنعيشُ يا حبيبي في قلب أحدنا الآخر رُغم الموت والتُّراب.

آمنتُ اليوم بأننا كنا نختبر احتياجنا لبعضنا.. لقد كانت كلّ نهاية تغرسك في داخلي أكثر. أريد أن أكون في قلبك كلّما مررت بالأماكن التي جمعتنا، وأريدك أن تشعر بيدي، وأنت تجوب الطرقات القديمة التي أودعناها أمنياتنا.

أريد أن أكون فنجان قهوتك، ووسادة أمنياتك.. وإن أصابك همّ فلا تحزن، ستعرف طريق قبري، تعالَ هناك وبُحْ إليّ وسأسمعك.

آمنتُ بك يا صديقي.. آمنتُ بحبّك وسأحمله معي لينير ظلمة الطريق الطويل.

حبيبي...

كتبتُ لك كلّ هذا وأنا أسترق النّظر إلى رسالتك الأخيرة التي بعثتها إليّ.. آهٍ من وجعي يا صديقي.. ما زلتُ أراهن عليك.. ما زلتُ أراهن أن الحياة تستحق أن نفخر بحُبّنا النّقي.

إن لم أعد غداً، فثِقْ تماماً أنّني رحلتُ إلى وجهتي الأخيرة.. رحلتُ إليك.

بقيت أربع ساعات قبل دخولي غرفة العمليات.. أربع ساعات وما زال شوقي إليك يتخطى حدود الزّمان والرغبات.

كلّ ما أتمناه الآن هو أن تكون بجواري، تمسك بيدي وتهدّئ من خوفي وألمي. أريد أن تكون يدك آخر يد أمسك بها، وأن تكون أوّل شخص تراه عيناي، إذا ما قدّر الله لهما أن يبصرا بعد العمليّة. أريد أن تكون الأخير في حياتي، مثلما شاء القدر أن تكون آخر من أكتب إليه في آخر صفحة في دفتر ذكرياتي.

حبيبي...

لقد حلمت بك البارحة. كنتُ أجوب الجبل معك، وكنتَ تتعمّد الحديث عن معجباتك اللاّئي يعاكسنك كلّ يوم. ثمّ تبتسم كلّما شعرتَ بغيرتي عليك. كم أحتاج إلى سماع صوتك الآن.. أريد أن أعيش كي أحبّك أكثر ممّا مضى.

سأغفو الآن وأنا أحتضنك كما أفعل كلّ يوم.. سأنام ورسالتك على وسادتي.. أما أنت، فإنك ستغفو في داخلي أينما تنام من الآن وصاعداً، وسيرعاك قلبي، يا قلبي. كم أحتاج أن تحتضنني الآن ويصمت كلّ شيء.. كلّ شيء يا حبيبي. تذكّر دائماً أنّي أحبّك...

وائل...

القدر لا يُغيِّب إلاّ أولئك الذين يملكون الجرأة على النسيان..

بعد حين، سيُعرّف الآخرون بأنفسهم أنّهم كانوا جيل ثورات الرّبيع، أمّا أنا، فيكفيني، وإن فنيتُ، أن أعرف أنّك كنتَ ثورة ربيعي وكلّ فصولي».

***

بعد ثلاثة أسابيع، جلس الحارس في مقرّ قيادة الاستخبارات في عربستان، ولكن وائل لم يكن معه. حكى لهم قصّة هروبه:

«كانت الحراسة شديدة حول السّجن. لم يمكن لأحد، بمن في ذلك مدير السّجن نفسه، أن يدخل أو يخرج منه إلاّ عبر مروره بثلاث نقاط تفتيش. يقع السّجن في مكان منعزل بين الجبال حتّى لا يعلم أحد بوجود أسرى فيه، حتّى أنّه لم يكن موجوداً ضمن لائحة السّجون الموجودة في شرقستان. لم تكن المشكلة في خروجي أنا، ولكن في خروج وائل. فحتّى لو تمكنا من الهرب، فإنّنا لن نستطيع عبور تلك الجبال الوعرة مشياً على الأقدام. كانت الطريقة الوحيدة هي أن أخبّئه في أحد براميل القمامة التي تحملها سيّارة كلّ مساء إلى مكبّ النفايات خارج السّجن، وكانت تلك السّيّارة الوحيدة التي لا تخضع لتفتيش مكثّف عند البوابات الثلاث.

تعمدتُ ضرب وائل في يوم الهروب لأنّه سكب أكله على أرضيّة الزنزانة، وعاقبته بتنظيف العنبر كاملاً، وحمل مخلفات السّجناء إلى

القمامة. كان رئيسي مرتاحاً لذلك العقاب لأنّه يعني عملاً منهكاً ومقرفاً للسجين طوال اليوم.

ما إن قاربت الشمس على الغروب، حتّى كان وائل مختبئاً في أحد براميل القمامة. كانت مناوبتي قد انتهت. اتفقت معه أن ألاقيَه بعد منتصف الليل في مكب النفايات القريب من المدينة. وصل عمّال النظافة وبدؤوا بتحميل البراميل في الشاحنة. مرّوا على البوابتين الأولى والثانية دون أن يوقفهم أحد، وعندما اقتربوا من البوابة الثالثة، نبحت كلاب الحراسة، فأمر الحرّاس سائق الشاحنة بالتوقف. أحس وائل بالخطر، وعندما اقتربت أصوات نباح الكلاب من البرميل الذي كان مختبئاً فيه، أيقن أن أمره قد كُشف، وأنّه ميت في تلك اللّيلة.

ركب الجنود في مؤخرة الشاحنة، حملوا البرميل ورمَوْهُ من فوقها فسقط على الأرض وانكسر. تقافزت الكلاب عليه وأخذت تلعق الأكل الذي تناثر في كلّ مكان.. نسيَ وائل وهو يملأ أحد البراميل أن يُلقي فضلات الأكل في البراميل المخصصة لها، فجمعها مع بقية القمامة في البرميل الذي كان بجانب برميله، ما أثار حاسّة الشمّ لدى الكلاب. ضحك الجنود وسمحوا لسائق الشاحنة بالمرور.

بعد منتصف الليل، خرج وائل من البرميل واختبأ في مكان منخفض في مكب النفايات حسب ما شرحت له، وعندما وجدته، ركب معي على دراجتي الناريّة وانطلقنا نحو الميناء.

اتفقتُ مع مركب لنقل البضائع إلى إحدى المدن الساحليّة

القريبة من عربستان ليقوم بتهريبي مع وائل، وادعيتُ أنه ابن عمي، خارج البلاد لكي نبحث عن عمل في مكان مّا، فالأوضاع الاقتصاديّة متردية جدّاً. هذا ما قُلته له. وافق بعد أن دفعت له كلّ ما أملك، وعندما وصلنا الميناء، اتفقنا أن يختبئ كلّ منّا في صندوق خشبيّ، إلاّ أنّه ذهب لبيع الدراجة ووعدني ألا يتأخر. قمتُ برشوة المفتش لكي يتغاضى عن صناديقنا ولا يُفتشها.

بعد أن تمّ تحميل الصناديق في داخل المركب، خرجت من صندوقي وفتحت صندوق وائل فوجدتُه خالياً. كان المركب قد خرج من الميناء، ولم يكن هناك مجال للعودة.

أيقن المحققون بأنّهم خُدعوا. وعندما وصل الخبر إلى أمه بكت عليه، وكأنّه قد مات مرّة أخرى. أدرك الجميع أنّ الحارس كان يكذب. ولكنّهم تذكّروا الأجوبة.. كيف علم بها!!

بعد شهر من تلك الواقعة، دقّ جرس البيت فخرجت الخادمة. رأت رجلاً بدا كبيراً في السن يلبس ثياباً رثّة. غطى شعره المتقصف وجهه، وكسَت لحيته المشوبة ببياض خفيف وجهه ورقبته. طلبت منه أن ينتظر ثمّ عادت إليه ببضع دنانير ووضعتها في يده. ابتسم وقال لها إنّه يريد أن يرى سيّدتها، فقالت له إنّ هذا المال يكفيه. أعاد المال إليها وكرّر طلبه.

عادت الخادمة وقالت لسيّدتها إنّ فقيراً بالباب يريد أن يتحدث إليها، فأمرتها أن تعطيَه بعضاً من مالِ الصّدقة الذي كانت تضعه في

صندوق في غرفة الجلوس. أخبرتها أنه رفض أخذ المال وأصرّ على مقابلتها.

اقتربت من الباب وفتحته قليلاً وأطلّت منه، فقال الرّجل:

- السلام عليكم.

- وعليك السلام. ماذا تريد؟

كانت مريم تنادي عليها من بعيد. تجاهل الرّجل نداء الطفلة وسأل المرأة وهو يحدّق فيها:

- ماذا يمكنك أن تعطيني؟

- هل تريد ثياباً.. انتظر هنا.

وعندما التفتت إلى داخل البيت سمعته يناديها من خلفها:

- شوق.

- نزل صوته وهو ينطق اسمها على مسمعها مثل الصاعقة.. أصابتها رجفة.. قالت بصوت متقطّع:

- كيف عرفت اسمي؟

رد مُبتسماً:

- انظري إليّ جيداً.

وصلت مريم إلى الباب الخارجيّ، وعندما رأت الرّجل تمعنت فيه جيداً. نزل على ركبتيه، وأصبح في مستوى نظرها.. خافت شوق، فضمتها إليها. ظلت البنت محدّقة في الرّجل ثمّ صرخت:

- بابا.. بابا..

دفعت بشوق وانطلقت إليه فتلقفها في حضنه وسقط على ظهره وهي بين يديه. انهارت شوق على الأرض واضعة إحدى يديها على فمها، وممسكة بمقبض الباب باليد الأخرى حتّى لا تسقط.. أرادت أن تقف فلم تستطع.. هرع إليها واحتضنها.. بكت وهي تصرخ:

- وائل لم يمت.. وائل لم يمت..

أخذت مريم تبكي معها وهي متعلّقة بثوب أبيها المُمَزَّق. ظلّ الثلاثة يبكون أمام المنزل، وعندما خرجت أمّه انكبّ على قدمها يُقبلها، فاحتضنته وهي تبكي وتردّد:

- كنتُ أعلم أنّك لم تَمُتْ.. قلبي كان يقول ذلك..

بعد أن هدؤوا قليلاً.. أمسكت شوق وجهه بيديها وتمعنت فيه، ثمّ سألته:

- ماذا حصل لعينك يا حبيبي؟

قال مبتسماً:

- ثمن قليل من أجل الوطن.

في المساء، تجمع الناس في بيته للسلام عليه.. لم يصدّق أحد أنّه عاد حتّى يعانقه بنفسه، وأخذ وائل يبكي مع كلّ عناق. شعر أنّ كلّ عناق كان يعيد إليه جزءاً من نفسه. عندما سألوه عن اختفائه من الصندوق قال لهم:

«عندما وصلنا إلى الميناء قلت للحارس أن يذهب إلى صاحب المركب للتأكد من أنّه جاهز، وسأبيع أنا الدّراجة النارية في السوق المجاورة لكي نستفيد من قيمتها خلال الرّحلة، فمن يدري ماذا قد نواجه.

لكنني لم أشأ أن أركب معه في المركب نفسه، فلا بدّ من أنّ أمر هروبي قد كُشف الآن، وخِفت من أن تتِمَّ مطاردتنا والقبض علينا في عرض البحر. بعت الدّراجة، ورُحتُ أرتاد الأرصفة البحرية والمقاهي المهترئة التي يجتمع فيها البحارة. لم آكل أو أشرب معهم وكنتُ أنام في الطرقات وآكل من القُمامة حتى أحتفظ بالمال الذي معي. لم يشكَّ أحد في أنّني شرقستانيّ، فقد تمكنت خلال تلك المدّة من تقليد لهجتهم، إلاّ أنّني لم أكن أكثر الكلام حتّى لا يُكشف أمري. بعد عدة أسابيع، تمكنت من معرفة المهربين المُحترفين.

تحدثتُ إلى أحدهم على انفراد وهو جالس يشرب الشّاي.

تجاهلني وكأنّه لم يسمعنِي، أخرجت له نصف مبلغ الدّراجة من جيبي، وعندما لمحه، قام من مكانه، واتجه إلى أحد الأزقة. تبعته حتّى توقف. قال إنّه سيحتاج مبلغاً أكبر لتأمين إيصالي إلى أحد الموانئ. أعطيته كلّ ما بحوزتي فوافق.. خبؤوني في أحد الصناديق، ولم يسمحوا لي بالخروج منه إلا ليلاً للأكل وقضاء الحاجة.. اقتربنا من ساحل عربستان بعد منتصف الليل. ألقوا صندوقي في البحر وأمروني بالقفز والتعلّق فيه. حاولت إقناعهم بأن السُلطات لن تعاقبهم إن أدخلوني الميناء معهم، إلا أنهم لم ينصتوا إليّ، وحملوني عنوةً ورموني من المركب. من حسن حظي أن الصندوق لم يبتعد كثيراً. سبحتُ حتى تعلّقت به. أمسكته بيدي وبدأتُ أسبح برجلي باتجاه الساحل. وكلما أدركني التعب، أصعد عليه، وأرتاح قليلاً ثم أعاود الكَرّة. وعندما بدأت خيوط الشمس تتمدد في الظلام، كنتُ قد وصلتُ إلى الشاطئ.»

علم فيصل بالخبر، فاتّصل بشوق وطلب منها أن ترسل إليه وائل على الفور. تجاهل وائل طلبه حتى اليوم التالي. عندما رآه فيصل عانقه حتّى انهالت دموعه على كتفه. جلس الاثنان وحكى له كلّ شيء، منذ دخول قوّات الاحتلال إلى عربستان، وحتّى هروبه من السّجن وعودته إلى بلده. قال الأمير:

- لقد تغيّرت الأوضاع يا صديقي.

- يبدو ذلك.. رحم الله الشهداء.

- رحمهم الله.

- علينا أن نبدأ العمل من جديد، أريدك إلى جانبي.. مسؤولياتي كثيرة.

ابتسم وقال:

- لقد قررتُ يا فيصل ألاّ أعمل في السّياسة مرّة أخرى، فقد أفقدتني عيناً واحدة، ولا أريد أن أفقد الأخرى.

ضحك فيصل وقال:

- وماذا ستعمل إذاً؟

- أريد أن أكتب، وأدرّس.. أريد أن أعَلِّمَ أبناءنا وبناتنا.

- وماذا ستعلمهم؟

- كيف يعيشون أحراراً، لا عبيداً.

العبيدُ الجُدد

كتبَ لها:

"تلفُّني أسوار سفرك، ويظلّلني غيابك، فأسندُ رأسي إلى جذع تذكّرك، وأغمض عيني عليّ ألقاكِ فيهما.

أحبكِ، ولا أدري، إن كنتُ أفعل ذلك لأنّك تستحقين الحبّ، أم لأنّني أستحق العذاب..

شيئان يملآني الآن، صوتك، وشوقي إلى سماعه.

كثيف هو حبّك ككثافة الشّوق بعد الرّحيل.

أحبّك يا قابَ قلبي أو أدنى.

لو أقسمتِ على قلبي، يا قلبي، لأبَرّك."

"أنا لستُ غاضباً عليك.. أنا مشتاقٌ إليك.. ومُبَعثرٌ كأشلاء نافذة اعتادت على تكثّف أنفاسك الدافئة فوق صفحتها في ليالي الشّتاء الباردة..

كلّ الأشياء يمكنها أن تُفتَعَل، إلاّ الاشتياق.. وأنتِ.

يعيش أحدنا على هامش الحياة حتّى تَجُرّه إلى عمق صفحاتها امرأة مثلك، فيتورّط ويصير نَصّاً يستمتع بقراءته العاشقون قبل النوم.. أليس لهذا تُدوَّنُ قصص الحبّ؟ لتجلب البكاء والتعب لمن يريدون النوم بسرعة".

كتبت إليه:

"سأغفو الآن وأنا أحتضنك كما أفعل كلّ يوم.. سأنام ورسالتك على وسادتي.. أما أنت، فإنك ستغفو في داخلي أينما تنام من الآن وصاعداً، وسيرعاك قلبي. كم أحتاج أن تحتضنني الآن ويصمت كلّ شيء.. إن نسيتني فأرجوك لا تنسى أنّي أحبّك...

حبيبي...

القدر لا يُغَيّب إلاّ أولئك الذين يملكون الجرأة على النسيان..

بعد حين، سيُعرّفُ الآخرون بأنفسهم أنّهم كانوا جيل ثورات الرّبيع، أمّا أنا، فيكفيني، وإن فنيتُ، أن أعرف أنّك كنتَ ثورة ربيعي وكلّ فصولي".


ISBN 978-9948-496-70-0





